التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحـاد الكتّاب العـرب ـ دمشق

العدد : ٣٣ صفر ١٤٠٩ تشرين الأول « اكتوبر » ١٩٨٨ السنة ٩

لج


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



التراث العربي

تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد : ٣٣ ـ صفر ١٤٠٩ هـ ـ تشرين الأول « اكتوبر » ١٩٨٨ م ـ السنة التاسعة

ترسل المواد والمراسلات الى العنوان التالي :

المدير المسؤول ـ اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب : ٣٢٣٠ ـ ☎ ٢٤٤٢٩٩ ـ ٢٤٤٣٢٩

المواد المنشورة في المجلة تعبّر عن رأي أصحابها



الاشتراك السنوي

داخل القطر	للأفراد	:	١٠٠ ل.س
في الأقطار العربية	«	:	٢٠٠ ل.س أو (١٠) دولار أميركي
خارج الوطن العربي	«	:	٣٠٠ ل.س أو (١٥) دولار أميركي
الدوائر الرسمية داخل القطر		:	٢٠٠ ل.س
الدوائر الرسمية في الوطن العربي		:	٣٥٠ ل.س أو (٢٠) دولار أميركي
الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي		:	٥٠٠ ل.س أو (٢٥) دولار أميركي
أعضاء اتحاد الكتاب		:	٥٠ ل.س .

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكا أو يدفع نقدا الى : (محاسب مجلة التراث العربي) ■

الاخراج الفني : أكرم قدار

المحتويات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سمات العلم والتعليم في الحضارة العربيّة الإسلاميّة

د. عبد الكريم اليافي

يتألف هذا البحث من ثلاثة مقاطع : نشوء التعليم وتكامله في حضارة الاسلام ومكانة الجامعات في العصر الحاضر وخصائص العلم والتعليم في تلك الحضارة ٠

* * *

قلّ أن وجدت حضارة من الحضارات في الزمن القديم أو الحديث رفعت من قيمة العلم وحثت على طلبه وبثّه كالحضارة العربية الاسلامية ٠ ذلك أنه لما بزغ نور الاسلام دفع الناس جميعاً على اختلاف الأحوال والأعمار الى طلب العلم والنهوض لتلقّيه والى بثه وتعليمه ٠ أول الوحي الى الرسول الكريم طلب قراءة سطور النور المنزّل ٠ فلقد كان الوحي في رأينا تلقياً سمعياً وقراءة عينية : « اقرأ بسم ربك الذي خلق » ، « ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين » ، كما كانت فاتحة الوحي منّته جل وعلا على الانسان بتعليمه ما لم يعلم.

ومنذ تباشير الدعوة اتخذ الرسول دار الأرقم بن عبد مناف بن سعد المخزومي مركزاً له ولأصحابه حين كانت الدعوة سرية ٠ فكان المسلمون يلتفون حول الرسول فيها يتلون كتاب الله ويتعلمون مبادىء الاسلام ويحفظون ما يتنزل من سور النور الكريم وآياته ٠ ثم أصبح منزل الرسول في مكة بمنزلة المعهد الذي يتلقّى فيه المؤمنون القرآن ويستمعون الى الحديث الشريف ٠ ثم غدا المسجد في

المدينة غب الهجرة المكان المعهود للعلم والفتوى والقضاء الى جانب أداء العبادات فيه وعرض الأمور العامة على المسلمين • بل غدا كل مجلس يجلسه الرسول ويلتقي فيه أتباع الرسالة مناسبة للتعليم •

ولعل أهل الصفة الفقراء كانوا من أوائل مدارس الاسلام • حدث عريفهم أبو هريرة كما جاء في « حلية الأولياء » :« قال قال رسول الله ﷺ في حديث تحدثه يوماً : لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي اليه مقالتي هذه ثم يجمع اليه ثوبه الا وعى ما أقول فبسطت نَمِرة (بردة من صوف) علي حتى اذا قضى النبي ﷺ مقالته جمعتها الى صدري • فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء » • وعندنا ان بسط الثوب وجمعه اذ ذاك من نوع التنبيه وتركيز الفكر • كذلك تحدث أبو هريرة كما جاء في الحلية أيضاً الى من هاله كثرة حديثه عن الرسول : « انكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبي ﷺ وتقولون ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون عن النبي ﷺ مثل حديث أبي هريرة ، وإن اخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق (ضرب اليد على اليد في تمام البيع والشراء) بالأسواق وكان يشغل اخواني من الأنصار عمل أموالهم وكنت امرءاً مسكيناً من مساكين الصفة ألزم النبي ﷺ على ملء بطني فأحضر حين يغيبون وأعي حين ينسون »•

كذلك كانت أمهات المؤمنين وفي طليعتهم السيدة عائشة والصحابيات مدارس النساء الأولى •

وقد وقع في غزوة بدر لفيف من المشركين في الأسر فكان فداء الأسير الذي يكتب أن يعلّم عشرة من صبيان المدينة الكتابة •

ذلك أن للعلم في ذاته قيمة كبرى وهي المعرفة • وهو فوق ذلك نوع من أنواع القوّة ووسيلة من وسائل النضال والكفاح كفاح الشرك ونضال الظلم ، وهو أيضاً سبيل من سبل العلاء والتقدم •

انه ميراث النبوّة • العلماء ورثة الأنبياء • سواء أكان ذلك في العلاء والتقدم ، أم في النضال والكفاح ، أم في القوة والمعرفة •

وقد جرى الخلفاء الراشدون والصحابة على هذا السنن ، سنن رسول الله • ثم غدت الندوات الفكرية تنعقد في المساجد وفي بيوت الأفراد يؤمها الذين يرغبون في

مدارسة العلم ۰ وهناك أخبار كثيرة على ذلك ۰ نذكر منها ما روي عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى في منتصف القرن الأول الهجري اذ كان له « بيت فيه مصاحف يجتمع اليه القراء قلّما تفرقوا عنه الاعن طعام » ۰ وربما كان هذا البيت أول المكتبات في العهد الاسلامي الأول ۰ وقد شغل الخلفاء الأمويون في ابّان عهودهم بالفتوحات أكثر منهم شغلا بالعلم. اللهمّ الا الخليفة عمر بن عبد العزيز. وظهر الاهتمام الشديد لدى الأمير الأموي خالد بن يزيد الذي يروى عنه أنه اهتمّ بالصنعة وبالكتب التي تبحث فيها فاختط نهجا قويما في جمع الكتب والمعارف ۰ وألّف هو نفسه كتاباً هو أول مصنف عربي في هذا العلم. وهكذا ظلّ المتعلمون والعلماء يحرصون على تلقي العلم وعلى نشره ويجمعون الكتب ويتداولونها ويعلون شأنها في عهود الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ۰ ولكن ما ان لاح العصر العباسي حتى تبوأ العلماء أعلى منزلة ۰ هذا أبو جعفر المنصور ينشيء خزانة كتب في قصره ويجمع العلماء ويعهد اليهم في تأليف الكتب وترجمتها ۰ وها هو ذا الرشيد من بعده ينشيء بيت الحكمة وهو مركز أصبح محجّ العلماء والأدباء ۰ ثم يجيء عصر المأمون وهو ذروة في التاريخ العربي اهتماماً بالعلم والمكتبات ۰ نظّم بيوتاً للحكمة اجتمع فيها الكثير من كتب الأقدمين ثم أطلقها للقراء يقرؤون فيها ويتعلمون ووضع لهم من يقوم بأمورهم فنصب خزاناً يدعى الواحد منهم صاحب بيت الحكمة ۰ ولم يقتصر على ذلك بل كان يدعو الى ندوات ومجالس للأدباء والعلماء تدار فيها المناقشات ويشترك هو فيها ۰ وقد شغف العلم قلبه وشغل عقله حتى انه رأى في منامه كما يروي ابن النديم في فهرسته أرسطاطاليس ۰ وهكذا رغب في استحضار الكتب اليونانية وترجمتها تلبية لحاجات الدولة العلمية ۰

يروى أن الخليفة المتضد كان مع ثابت بن قرة الحراني في بستان له ويده على يد ثابت ۰ فانتزع يده بغتة من يد ثابت ففزع من ذلك فقال له المتضد : يا ثابت أخطأت حين وضعت يدي على يدك وسهوت فان العلم يعلو ولا يعلى ۰

قصة المعاهد العلمية والمكتبات ومكانة العلم في الحضارة العربية مستفيضة وواسعة ۰ ولا بد لنا من أن نذكر أطرافاً منها في القسم الأول من هذا الحديث ۰

لما استولى السلاجقة على بغداد وعلى أغلب العالم الاسلامي ظهر منهم نظام الملك أبرز وزراء ذلك العهد ۰ كان هو نفسه عالما عرف مكانة العلم فأنشأ

المدارس الكثيرة التي نسبت اليه في بغدادو بلخ و نيسابورو هراة وأصفهان والبصرة ومرو وآمل والموصل كما يذكر السبكي في طبقاته • بل يقال ان له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة (طبقات الشافية ج ٣ ص ١٣٧) وأمد هذه المدارس جميعها بالأساتذة والأموال والكتب •

وكانت نظامية بغداد أولى تلك المدارس واهمها • ومن المعروف المتداول أن نظام الملك لمح في مجالس معكسره الذي أقامه قرب نيسابور عبقرية الغزالي وعلمه حين قدم عليه فولاه التدريس في نظامية بغداد مع غيره من العلماء الأعلام . وذكر السبكي نقلا أن الغزالي « علت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة »• وهذا تنويه بمكانة العلم واحترام العلماء وبصورة من صور المجد الذي تبوؤه اذ ذاك •

ثم أنشأ المستنصر بالله الخليفة العباسي المدرسة المستنصرية في بغداد سنة ٦٢٥ فكانت عظيمة الشأن مستفيضة النفع •

وعند قيام امارات الأتابك والشاهات على أنقاض السلاجقة بقي الشغف الكبير بالعلم لدى الأمراء والملوك الذين خلفوهم • ومن أبرزهم نور الدين محمود زنكي الذي غدا ملكاً لسورية فقد رعى العلم والثقافة رعاية مثلى على الرغم من نيران الحروب الصليبية وزيادة على تدبيره المحكم للقضاء على أولئك الغزاة • ومن المناسب أن نشير استطراداً الى أمره بصنع منبر فائق الصنعة هدية منه الى المسجد الأقصى عند تحريره من الفرنجة • وقد أقامه في المسجد خليفته صلاح الدين فبقي تحفة فنية رائعة الى عهد قريب حين شب الصهاينة الحريق في الجامع فاحترق المنبر • كان لنور الدين مجالس عظيمة لأهل العلم عنده وكان يجمعهم للبحث والنظر ويستقدمهم من البلاد الشاسعة وقد توطدت علاقته بالامام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون الموصلي الأصل حين التحق به في مدينة حلب فنال حظوة عنده وأقام السلطان له مجموعة من المدارس في حلب ودمشق وحماة وحمص وبعلبك ومنبج وفوض اليه الاشراف عليها والتدريس فيها وتسمية من يراه أهلاً لتولي التدريس فيها وعرفت بالمدارس العصرونية • وبعد وفاة نور الدين عام ٥٦٩ اطمأن اليه صلاح الدين فولاه قضاء القضاة وصحبه في وقعة حطين •

وكان الحال اذ ذاك أن كل عالم أو متخصص متميز في علم من العلوم يبني

مدرسة ويقف عليها وقفاً ويجعل فيها داركتب ويشرف هو نفسه على التدريس فيها وينتدب معه من يراه أهلاً لذلك ٠واذا رجعنا الى كتاب « الدارس في تاريخ المدارس » لمؤلفه عبدالقادر بن محمدالنعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ وجدنا في جزءيه الكبيرين عدداً كبيراً من المدارس لكل علم من العلوم المعروفة لذلك العهد ٠ ويطيب لنا أن نذكر هنا أن دمشق في زمن الملك العادل الأيوبي وعهد نور الدين زنكي كثرت المدارس فيها كثرة كبيرة واشتد الاقبال عليها وتخرج فيها مشاهير الرجال الأعلام في كل مضمار. وليس شيء أدل على ذلك من قيام ثلاث مدارس طبية في وقت واحد تقريباً بدمشق الى جانب المشافي التي كان أشهرها المارستان النوري نسبة الى نور الدين زنكي ٠ وقد ذكر النعيمي في كتابه تلك المدارس الطبية الثلاث وهي المدرسة الدخوارية بالصاغة العتيقة قبلي الجامع الأموي أنشأها شيخ الأطباء اذ ذاك مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار سنة احدى وعشرين وستمائة ٠ وهو من بيت عريق في الطب .أبوه كحال وكذلك أخوه حامد بن علي وكان هو في بادىء أمره كحالاً ٠ وعلى مقربة من المدرسة الدخوارية كانت تقوم غربي المارستان النوري المدرسة الدنيسرية أنشأها عماد الدين الدنيسري من أشهر أطباء عصره وقد درّس في الدخوارية بعد محمد ابن قاضي بعلبك الذي تلا مؤسسها الدخوار ٠ وكان كثرة الطلاب والمريدين جملته يفتتح مدرسته الطبية هذه قريبةً من تلك ٠ وفي خارج دمشق مدرسة طبية ثالثة تدعى المدرسة اللبودية النجمية أسسها نجم الدين يحيى بن محمد اللبودي سنة أربع وستين وستمائة ٠ وكانت تلك المعاهد تسمى مدارس وهي تقابل الجامعات في العصر الحديث ٠ وانما استطردنا هذا الاستطراد لنشير الى ازدحام الطلاب الذين كانت تعج بهم البلاد في كل عهد على الرغم من الاضطرابات السياسية التي كان أبرزها الحروب الصليبية وغارات المغول واستطردنا كذلك لننوّه بالطبيب العربي العبقري علاء الدين بن أبي الحزم ابن النفيس الذي ولد بدمشق سنة ٦٠٧ هـ = ١٢١١ م ؟ وتوفي بالقاهرة عام ١٢٨٨/٦٨٧ ٠ لقد درس في المدرسة الدخوارية تلك وتخرج فيها ثم علت شهرته فقربه الملوك الأيوبيون والمماليك الشراكسة ولا سيما الملك الظاهر بيبرس وغدا في مصر رئيساً للمارستان الناصري وللمارستان المنصوري الذي أسس قبل وفاته بنحو خمس سنوات والذي وهب له ابن النفيس داره الجميلة التي ابتناها بالقرب منه وخزائن كتبه وما ملكت يداه.

ويهمنا هنا أن نذكّر بأن ابن النفيس كان علامة في الفقه وفي أصول الفقه وفي الحديث وفي اللغة العربية وبلاغتها • وقد أطراه أثير الدين أبو حيان النحوي الأندلسي الذي قدم القاهرة. وهذا التوسع في مختلف العلوم من صفات الحضارة العربية والعلم العربي كما سنرى قريباً • ولكن شهرة ابن النفيس الطبية هي التي غلبت عليه • وهو أول من كشف الدورة الدموية التي تدعى بالصغرى • فالى جانب كتبه الطبية العديدة لخص كتاب القانون لابن سينا ما عدا قسم التشريح منه ودعاه « موجز القانون » • ثم عمد الى قسم التشريح فشرحه في كتاب دعاه « شرح تشريح القانون » وفي هذا الكتاب يرفض ما جاء في كلام جالينوس وابن سينا من أن الدم يمر من البطين الأيمن في القلب الى البطين الأيسر ورفضه مبني على أن جدار القلب بينهما سميك مستحصف لا كما ادعى ابن سينا وجالينوس • ورأى أن الدم يذهب بالشريان الرئوي الى الرئة ليصفو وينقى ثم يعود بالوريد الرئوي واصلاً في النهاية الى البطين الأيسر وحاملاً معه روح الحياة • ونريد بهذه المناسبة أن نتطرق الى مصير هذا الكشف العلمي الرائع فقد جاء الطبيب الايطالي اندريا الباغو (مات عام ١٥٢٠) بعد نحو قرنين من ابن النفيس وعكف يجمع المخطوطات العلمية العربية ويترجمها الى اللاتينية ويقال انه قضى في سورية قرابة ثلاثين سنة لهذا الغرض وترجم فيما ترجمه كتاب ابن النفيس • وأتى في ذلك الوقت طبيب ولاهوتي اسباني هو ميخائيل سرفيتوس (١٥١١ ـ ١٥٥٣) درس الطب في جامعات باريس ومونبليي ولوفان كما درس اللاتينية والعربية والعبرية وكانت هذه الجامعات متأثرة تأثراً عميقاً بالطب العربي • ولما تخرج مارس الطب في بعض المدن الفرنسية ونشر كتاباً بعنوان « اصلاح المسيحية » عام ١٥٥٣ في فيينا عارض فيه عقيدة الثالوث المسيحية والخطيئة الأولى وتعميد الأطفال فأثار الكنيسة واستدعته محكمة التفتيش في النمسا فأفلت منها ولجأ الى جنيف ولكن قبض عليه فيها وأمر به المصلح الديني كلفن فأعدم حرقاً • وهو في كتابه ذاك يشرح الدورة الدموية الصغرى وينتحل كشفها • وقد ذكر المستشرق مايرهوف في الموسوعة الاسلامية أن الجمل التي كتبها سرفيتوس عن الدورة الدموية تكاد تكون نقلا حرفياً لما جاء في كتاب ابن النفيس. وعاش في الوقت نفسه أيضاً الطبيب الايطالي ماتيّو ريلدو كولمبو فألف كتاباً في التشريح عرض فيه الدورة الدموية الصغرى عرضاً مقارباً جداً لكلام سرفيتوس كما يؤكد ذلك

مايرهوف . وأتى بعدهما بنحو خمسين سنة وليم هارفي الطبيب الانكليزي الذي تشيد كتب تاريخ الطب بكشفه للدورة الدموية . ولكن هذا الطبيب قد درس في مدينة بادوة الايطالية عام ١٥٩٨ وتخرج فيها عام ١٦٠٢ واطلع على بحوث كولمبو وسرفيتوس كما تفيد الموسوعة الفرنسية« أونيفرساليس » ، واستطاع بعد ذلك أن يصف الدورة الدموية وصفاً كاملاً في كتابه « دراسة تشريحية لحركة القلب والدم في الحيوان» عام ١٦٢٨ أي بعد نحو أربعة قرون من ابن النفيس وشاعت شهرته بذلك ولم ينتبه هارفي فيما تُرجِم عن ابن النفيس عند وصفه للدورة الدموية الى ما ورد في كلامه من « منافذ محسوسة » بين الشرايين والأوردة أي مما دعي بالأوعية الشعرية التي تأخر كشفها الى مجيء الطبيب الايطالي ملبيغي عام ١٦٦١ أي بعد ما يزيد على ثلاثين سنة من كتاب هارفي وذلك حين تقدم العلم في الغرب وصنعت المجاهر .

هذا ولما كانت الأشياء تتميّز بأضدادها كما قال أبو الطيب : « وبضدها تتميّز الأشياء » رأينا أن نورد هذه النادرة الغريبة يقصها علينا أسامة بن منقذ في كتاب « الاعتبار » وهو البطل الأديب الذي عاصر بعض الحروب الصليبية ووصف ظواهر تأخرهم في شؤون كثيرة وفي المداواة والطب . كتب: « ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب الى عمّي يطلب منه انفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه . فارسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد . فقلت له : ما أسرع ما داويت المرضى ! قال : احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دُمّلة" وامرأة" قد لحقها نُشاف ، فعملت للفارس لبيخة" ففتحت الدملة وصَلَحَت . وحَمَيْتُ المراة ورطّبتُ مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيئا يداويهم . وقال للفارس : « أيّما أحب اليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال: أعيش برجل واحدة . قال: احضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر فحط" ساقه على قُرْمة خشب وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة" ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته . وأبصر المراة فقال هذه امراة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها فحلقوه ، وعادت تأكل مأكلهم :الثوم والخردل . فزاد بها النُشاف . فقال : الشيطان قد دخل في رأسها . فأخذ الموسى وشق" رأسها صليباً وسلخ وسطه

حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح فماتت في وقتها . فقلت لهم : بقي لكم اليّ حاجة؟ قالوا : لا . فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه (ص ١٣٢ ـ ١٣٣) .

وكان نفوذ الدولة الأيوبية قد امتد الى اليمن عام ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م حين أرسل صلاح الدين اخاه اليه فاهتم ملوكها بنشر الثقافة والعلم فيه وبنى الملك مُعِزّ الدين اسماعيل بن طُغْتُكين بن أيوب مدرستين احداهما في تِعِزّ سماها المدرسة السيفية نسبة الى أبيه سيف الاسلام طغتكين والثانية في زبيد نسبها الى نفسه فسماها المعِزّية أو مدرسة المعزّ .

وانقطع حكم الأيوبيين في اليمن عام ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م حين خلفهم بنو رسول . وكان عهد هؤلاء أخصب عهود اليمن ثقافة وأكثرها اهتماماً بانشاء المدارس وعمارة المكتبات وأشدها عناية بالعلماء وتكريماً لهم . وغدا اليمن في عهدهم موئل العلماء يجدون فيه من التقدير والتكريم أكثر مما يأملون . ومن أشهر من قدم اليمن في ذلك العهد الامام اللغوي مجد الدين الفيروزابادي فاحتفى به الملك الأشرف الثاني ممهّد الدين اسماعيل بن العباس فتصدر الامام للتدريس في مدينة زبيد . ولم يمتنع الملك نفسه من أن يأخذ عنه . وقد ولاه قضاء الأقضية فكان يقضي ويدرس ويؤلف . وقد ألّف كتابه القاموس المحيط وأهداه الى الملك .

وخلفت الدولة الرسولية الدولة الطاهرية عام ٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م فسار ملوكها على ذلك النهج وتابعوا بناء المدارس ونشر العلم .

وهكذا كانت سِيَر الحكام في مختلف بقاع العالم العربي الاسلامي مثلا في حبهم للعلم وتكريمهم للعلماء وحفزهم على جمع الكتب وتأليفها ، ولا سيما في مصر والمغرب والأندلس . ولو كان اهتمام المؤرخين العرب قدماء ومحدثين مُنْصَبّا على تاريخ العلم وبناء المدارس وتأليف الكتب وجمعها بأنواعها أكثر من اهتمامهم بالملوك والرؤساء والحروب لظهر فضل الحضارة العربية الاسلامية أوضح مما ظهر ولطغى نورها على أنوار الحضارات الأخرى ولاستبان غَناؤها في تقدم العلم والعرفان في كل مضمار ولَتَبَدّت شدة تكريمها للمشتغلين بهما ورفعها لهم فوق كل مكانة ومكان ، على الرغم مما أصابها من فتن وتحيّفها من محن وتعرضت له من كوارث وغارات .

ان ما ذكرناه آنفا يتناول المدارس المستقلة مؤخراً عن المساجد وان كان بعضها لا يخلو من مصلّى تقام فيه الصلوات . بَيْدَ أن المساجد والجوامع منذ أول الدعوة كما ذكرنا حتى الوقت الحاضر هي مراكز تعليم وتثقيف وتنوير . وهي لا تكاد تحصى في كل قطر . يأتي في طليعتها الجامع الأموي بدمشق والجامع الأزهر بالقاهرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس وجامع قرطبة المشهور حيث حلقات العلماء والطلاب تنعقد دائماً من قبل شروق الشمس الى غسق الليل . ونحن نتصوّر عدد الجوامع الأخرى الكثيرة الصغيرة التي لم تكن تفتأ تبثّ العلم بأنواعه المختلفة . ويطيب لي هنا أن أذكر الى جانب تعلّمي في المدارس الرسمية الحكومية بمدينة حمص كنت وأنا فتى في نحو الخامسة عشرة من العمر أستيقظ قبل الشمس فأصلي الصبح وأسرع الى جامع بازرباشي وهو جامع صغير على بعد كيلو متر من دارنا لأقرأ مع غيري من الطلاب كتب النحو والبلاغة والمنطق القديمة وتفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) وأنهل بملء ملكاتي الناشئة المتحفزة من مناهلها العذبة الثرّة ما كان لي فيما بعد قوةّ علمية أيّ قوة مع دراساتي للعلوم الأجنبية .

ومن الطبيعي أن يرافق انشاء المدارس الاكباب على تأليف الكتب وانتشار فن الوراقة وانشاء المكتبات مستقلة أومرتبطة بالمدارس . ولقد كان بعض المكتبات ينشئها الأدباء والعلماء أنفسهم ويفتحونها لطلاب العلم ويبرونهم بالمال والورق مثلما كان بعضهم ينشئون المدارس . نقرأ في « ارشاد الأديب » لياقوت أن جعفر بن محمد الموصلي (٢٤٠ـ٣٢٠) « كانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب للعلم لا يُمنع أحد من دخولها اذا جاءه غريب يطلب الأدب وان كان معسراً أعطاه ورِقاً وورَقاً تفتح في كل يوم ويجلس فيها اذا عاد من ركوبه ويجتمع اليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته (ج ٢ ص ١٩٣) . ويذكر ياقوت أيضاً في كتابه نقلا عن نشوار المحاضرة أنه « كان بكركر من نواحي القفص (قريباً من بغداد) ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى بن المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها دار الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن

يحيى (ج ١٥ ص ١٥٧) • هـذا شـأن الشعب • أما الأمراء والخلفاء والوزراء فقد كانوا يتسابقون الى ذلـك ويـزيد الخلف على ما قام به السلف • ولقد مر آنفاً حـديث بيت الحكمـة الذي أنشـأه هارون واشتهر في زمن المأمون •

ولقد أحب الناس في الحضـارة العربية الاسلامية الكتاب كل الحب ووصفـوه بأجمل الأوصاف ونعتوه بأسمى النعـوت وأكثرها غرابة وغنى • وأكاد أقـول ان الجاحظ قد تغزل متفنناً بالكتاب في مستهل كتابه الحيوان حين أنشـأ بنثره الممتـع البليغ وصفه ذاك • ولا نستطيع أن نمر على ذكره دون أن تزدحم في البـال بعض فقراته كاللآلىء المفصلة : « نعم الذخر والعقدة هو ، ونعـم الجليس والعـدة ، ونعم النشـرة والنزهـة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس لساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل ، ونعـم الوزيـر والنـزيل • والكتاب وعاء مليء علماً وظـرف حشي ظرفاً واناء شحن مزاحاً وجدا • ان شئت كان أبين من سحبان وائل ، وان شئت كان أعيا من باقـل ، وان شـئت ضحكت مـن نـوادره وان شـئت عجبت مـن غـرائب فرائده ، وان شئت ألهتك طرائفه ، وان شئت أشجتك مواعظه • ومن لك بواعظ مله ، وبزاجر مغـر ، وبناسك فـاتك ، وبناطق أخرس ، وببارد حار » ثم يقول :« ومن لك بطبيب أعرابي ومن لك برومي هندي، وبفارسي يوناني، وبقديم مولّد، وبميت ممتع ! ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر والناقص والوافر ، والخفي والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرفيـع والوضيع ، والغث والسمـين ، والشـكل وخلافه ، والجنس وضده ؟ وبعـد فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردن وروضة تقـل في حِجْر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ؟ ومـن لك بمؤنس لا ينـام الا بنومك ولا ينطق الا بما تهوى ؟ آمـن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من رباب الوديعة••• » الى آخر هذا الوصف المتفنن في محاسـن الكتاب ومزاياه • فلا غرو بعـد هـذا أن يقول أبو الطيب مشيراً الى العـلم والى النضال معاً :

أعز مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الأنـام كتـاب

ولا عجب أن يفتخر جار الله أبو القاسم الزمخشري فيقول ساهراً عاكفاً عـلى القراءة والكتابة :

سهري لتنقيح العـلوم الذّ لي من وصل غانيـة وطيب عنـاق

وتمايلي طربا لحل عويصة　　اشهى واحلى من مدامة ساق
وصرير اقلامي على أوراقها　　احلى من الدوكاه والعشاق
والذ من نقر الفتاة لدفها　　نقري لالقي الرمل عن أوراقي
أأبيت سهران الدجى وتبيته　　نوما وتبغي بعد ذاك لحاقي

بل قد بلغ حب الكتب من قلوب الناشئة والعلماء مبلغاً عميقاً حتى ان أبا عبد الله محمد بن سلامة المقرّي خشي أن يموت دون أن يذهب ظمؤه وينقضي أربه من ذلك الحب ·

اني لما انا فيه من منافستي　　فيما شغفت به من هذه الكتب
لقد علمت بان الموت يدركني　　من قبل ان ينقضي منحبها اربي

كما يذكر ياقوت في مقدمة كتابه ·

ولعل اهتمام الجاحظ بالكتابة والأدب والعلم والفلسفة جمله يستغرق وينسى نفسه وكنيته فقد حدث مرة قال: نسيت كنيتي ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي فقلت لهم : بم أكنى ؟ فقالوا : بأبي عثمان ·

وربما كان الجاحظ هو نفسه يضع النوادر ترويحاً ، فقد ذكر أنه دخل مدينة واسط فبكر يوم الجمعة الى المسجد فقعد فرأى على وجه رجل لحية لم ير أكبر منها واذا هو يقول لآخر : الزم السنّة حتى تدخل الجنة · فقال له الآخر : « وما السنة ؟ قال : حب أبي بكر بن عفان وعثمان الفاروق وعمر الصديق وعلي بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي شيبان · قال: ومن معاوية ابن أبي شيبان ؟ قال : رجل صالح من حملة العرش وكاتب النبي ﷺ وزوج ابنته عائشة (أخبار الحمقى) ·

يريد أمير الفكاهة من نادرته هذه أن ينبهنا على ألا نغتر بالمظاهر ولا بالألقاب اذ تكون أحيانا مضللة ·

وكان العلماء العرب يخشون التحريف وعدم الدقة في رواياتهم فاستعملوا الفكاهة للتنديد بهما · سأل أبو عبيدة كيسان كاتبه عن اسم رجل من شعراء العرب فقال اسمه خداش أو خراش أو خماش أو شيء آخر وأظنه قرشياً · فقال

له أبو عبيدة : من أين علمت أن نسبه في قريش ؟ فقال : رأيت اكتناف الشينات عليه من كل جانب ·

وكيسان هذا يترجم له السيوطي في كتابه « بغية الوعاة » فيورد قول أبي عبيدة فيه : « كان كيسان يخرج معنا الى الأعراب فينشدوننا · فيكتب في الواحه غير ما ينشدون ، وينقل منها الى الدفاتر غير ما فيها · ثم يحفظ من الدفاتر غير ما فيها ثم يحدث غير ما حفظ ·

ولقد ضاق شاعر قديم بروايته فقال:

أقول لـه بكراً فيسمع خالداً   ويكتبه زيداً ويقرؤه عَمْـراً

وقد نجد أمثال كيسان هذا في العصر الحاضر موزعين بين المحققين والمصححين والناشرين والموظفين وان كانوا قلة نادرين · وكم تضيق صدورنا بالأخطاء المطبعية في الكتب التي تنشرها دور الطباعة اليوم · على أن طالب العلم ومعلمه ينبغي أن يكونا مكفيّي المؤونة متفرغين لما هما بصدده من البحث والا كان مثلهما مثل أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي · قال : « حضرت مجلس يزيد بن هارون فأملى ثلاثين حديثاً فحفظتها فجئت الى منزلي أعلّق · فعلّقت منها ثلاثة · فجاءتني الجارية وقالت : مولاي ! فني الدقيق (أي الطحين) فنسيت سبعة وعشرين وبقيت ثلاثة · »

وهنالك أمثلة تظهر فضل المكتبات في اعداد العلماء · يروي الشيخ الرئيس ابن سينا أنه لما مرض نوح بن منصور الساماني في بخارى شارك وهو شاب ناشيء في مداواته حتى بريء فسأله يوماً الاذن في دخول دار كتبه ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب فأذن له · فدخل داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض · في بيت منها كتب العربية والشعر · وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد · يقول ابن سينا : « فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت اليه منها ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته من بعد · فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه · فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها · »

وكان طلاب العلم يقصدون مناهلـه مهما تكن بعيدة • ونحن نذكر كيف شـد الرحال من معرة النعمان بالشام الى بغداد طـالب علم ضـرير آيـة في النبـوغ هو أبو العلاء المعري ليزور فيمـا يزوره دار العلم السابورية التي أنشأها أبو نصـر سابور بن أردشير الشيرازي وزير بهـاء الدولة بن عضد الدولة . وقد ذكرها حكيم المعرة حين سمع في أصيل يوم ربيعي حمامة تهدل على شجرة مزهرة من أشجار المكتبة:

وغنّت لنا في دار سابور قينـة" من الوُرْق مطراب الأصائل ميهال

واشتهرت هذه المكتبة وبلغ خبرهـا الفاطميين بمصر فأنشؤوا مثلها في عهـد الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٤٠٠ هـ أي بعد دار العلم السابورية بتسع عشرة سنة.

وذكر ياقوت في معجم البلدان بصدد كلامـه على مدينـة مرو كثرة المكتبـات العامرة فيها فهو يقول : « ولولا ما عرا من ورود التتر الى تلك البـلاد وخرابها لمـا فارقتها الى الممات لما في أهلها من الرفـد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة بها فاني فارقتها وفيهـا عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلهـا كثرة وجودة • منها خزانتان في الجامـع احداهما يقال لها العزيزية وقفها رجـل يقـال له عزيز الديـن أبو بكـر عتيـق الزنجاني أو عتيـق بن أبي بكـر وكـان فقاعياً للسلطان سنجر • وكان أول أمره يبيع الفاكهة والريحـان بسوق مـرو ثم صار شرابياً له • وكان ذا مكانة منـه •وكـان فيهـا اثنـا عشـر ألف مجـلد أو ما يقاربها ، والأخرى يقال لها الكماليـة لا أدري الى من تنسب وبها خزانة شـرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته • ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤ ، وخزانة نظـام الملك الحسـن بن اسحاق في مدرسته، وخزانتان للسمعانيين، وأخرى في المدرسة العميدية، وخزانة لمجد الملك أحـد الـوزراء المتأخـرين بهـا ، والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك • وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها • وانساني حبّها كـل بلد والهـاني عن الأهـل والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن . »

ولا ننس الأندلس ودور العلم فيها وازدحام الكتب على رفوف مكتباتهـا • وقد أثبت ابن خلدون أن أسماء دواوين الشعر وحدها في مكتبـة قرطبة عاصمـة

خلفاء بني أمية في الأندلس كانت مدونة في ثمانمائة وثمانين صفحة . ويذكر المؤرخون أن مكتبة قرطبة كانت تحتوي على ستمائة ألف مجلد وأن فهرست أسماء تلك الكتب كانت تقع في أربعة وأربعين مجلداً .

هذا غيض من فيض وبرض" من عِد" . ولم نذكر الرباطات والخوانق والزوايا التي كانت تملأ البلاد العربية والاسلامية والتي كان المرء أنى وجد يستطيع فيها أن يتفرغ للعلم والتأليف والنسخ والوراقة مكفياً مؤونته المعاشية . ويُخيِّل لنا ان البلاد العربية والاسلامية بأرجائها الواسعة وسواحلها المتطاولة وسفوح جبالها النضرة وغياضها الخضراء من شماليها الى جنوبيها ومن غربيها الى شرقيها كانت تتلألأ بدور العلم والمعاهد والمكتبات تلألؤ السماء الصافية بالنجوم البديعة وتتألق بعلمائها الأعلام تألقها بالكواكب المنيرة تضيء ذلك كله شمس الاسلام .

ولهذا كله أنتجت الحضارة العربية الاسلامية ما لا يحصى من روائع البيان وبدائع العلم وثمرات العقول والقلوب وغرائب الابتكار وفرائد الاختراع في كل علم وفي كل فن وفي كل مضمار .

ولا غرو لما شرع الغربيون يطلعون على طائفة من تلك الفرائد وعلى قسط من تلك الغرائب وعلى نصيب من تلك البدائع والروائع وعلى جنى تلك الثمرات ذهلوا أيّما ذهول وخامرهم العجز عن أن يلحقوا بركب تلك الحضارة فطفقوا يتعلمون ويجمّعون الكتب والمخطوطات ويترجمون ويقلدون وينتحلون ما شاء لهم الانتحال والتقليد والترجمة والتعلم . ثم غدوا يطمسون آثار تلك الحضارة في نفوسهم وفي كتبهم وفي تقدمهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وحسبنا أن نشير هنا الى فقرات كتبها الشاعر الايطالي بترار كوس (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤) يتبرم فيها بالحالة النفسية رانت على معاصريه . فهو يهيب ببني قومه ويستحثهم على الجرأة الفكرية والأدبية وينفخ في هممهم فهو يقول محنقاً ما ترجمته :

« ماذا ؟ لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستنس واستطاع فرجيلوس أن يكون شاعراً بعد هوميروس ، وبعد العرب لا يسمح لأحد بالكتاب ! لقد جارينا اليونان غالباً وتجاوزناهم أحياناً ، وبذلك جارينا

وتجاوزنا مختلف الأمم . وتقولون اننا لا نستطيع الوصول الى شأو العرب ! يا للجنون ويا للخبال ! بل يا لعبقرية ايطاليا الغافية أو المنطفئة* . »

ولقد كرت السنون بل كرت القرون، وتغيرت الأحوال وانتقل مركز الحضارة العربية الاسلامية من بلد اسلامي الى آخر ثم تخلفت البلاد العربية والاسلامية جميعاً عن ركب الحضارة الانسانية بعد أن حملت لواءها عصوراً عديدة وبعد أن بلّغتها أعلى ذراها من تحرير الانسان والمساواة بين البشر وتمجيد مكارم الأخلاق وتوحيد الايمان والتسابق في تحقيق القيم الرفيعة وتوكيد الأخوة الاسلامية والانسانية . « أيها الناس كلكم من آدم وآدم من تراب . » هذا وحده في مستوى الروح والأخلاق بصرف النظر عن الجوانب العلمية والفنية والأدبية .

ثم تلامحت شمل الحضارة المقتبسة في أوربة وأمريكة والاتحاد السوفياتي ولكنها مهما يشتد بريقها ويأخذ بالأبصار بما أنجزته من تقدم مادي وتكنولوجي تبق بحاجة الى نفحات علوية انسانية على الرغم من كثرة الدعاوي العريضة .

وهكذا بسبب التبعية الحضارية ولاسيما المادية أصبحت البلاد العربية والاسلامية تنشيء جامعاتها على غرار الجامعات الغربية في الغالب .

* * *

ان الجامعة في الوقت الحاضر منظمة علمية وتربوية ذات بنى مشتبكة وذات وجوه من النشاط متعددة : وهي تقصد الى أهداف تريد تحقيقها كلاً أو بعضاً بحسب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وقد يتعسر تحقيق الأهداف الكلية فتكتفي بأهداف اجرائية تنفيذية عاجلة . ومع ذلك تبقى الأهداف الكلية منصوبة للتحقيق . وهي أهداف وغايات علمية ووطنية وقومية وانسانية .

ثم ان الجامعة من أهم مراكز المعرفة تتعهد تالدها وتنمّي طارفها وتنقل ما يلزم الى الوطن من المعرفة العالمية وتعمل على تطوير هذه المعرفة بالتدريس والبحث والنشر والتشجيع في مجالات أكاديمية عالية . وهذه المعرفة انما يقصد

---

* ذكر هذا النص غاستون بوتول في التوطئة التي كتبها وقدم بها ترجمة المستشرق دي سلان لمقدمة ابن خلدون الى اللغة الفرنسية ، طبعة باريس عام ١٩٣٤ .

منها جانباها النظري والتطبيقي المواثمانلطبيعة الوطن الذي تقوم الجامعة على أرضه سواء كانت الطبيعة مادية أو نباتيةأو حيوانية والمواثمان لنشاط السكان الذين يؤلفون البنية الحية المدركة والذين يتم بهم كل تقدم ورفعة والذين يقدم كل منهم لمجتمعه أفضل ما يحسن من عمل وفي المقابل ييسر هذا المجتمع لأبنائه مساعيهم ويكفل تضامنهم ويضمن حريتهم وكرامتهم ورفههم ٠

ولا شك أن الجامعة من خلال برامجهاالأكاديمية وسياستها التنظيمية والغائية تبقى متفتحة للابتكارات الجديدة ، مستجيبة لمطالب هيئاتها العلمية والطلابية ، مترصدة للأساليب الناجعة في توارث المعرفة الصحيحة ونقلها من جيل الى جيل ومن كل مكان الى البلد الأصلي ٠ وهي تدرك العلاقات العامة بينها وبين ركب الحضارة والعلاقات الخاصة بينهاوبين المجتمع الذي تقوم في أحضانه والذي تعمل على خدمته وتطوير مرافقه وتحقيق مطامحه واعداد رجالاته ٠ ان كل كائن حي له وظائف تتماسك حياته بها ويتم تقدمه ونماؤه بأدائها على وجوهها السليمة ٠ وكل قصور في أداء وظيفة من تلك الوظائف مسؤول عنها العضو أو الأعضاء المنوطة بها تلك الوظيفة ٠

والجامعة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالثقافة القومية وبالمشاريع الوطنية كما أن لها شأناً قيادياً في القيام بالأبحاث العلمية وفي امداد المجتمع بسيل مستمر من الأفكار الجديدة والمخترعات الحديثة ، وفي امدادالدولة بالملاكات الوطنية التي تنفذ خطط التنمية وتحقق التقدم الاجتماعي وتيسّر الوصول الى مستو عال من الحداثة ٠

وقد أصبحت الجامعات خاصة والأقطار عامة بعضها ذات احتكاك ببعض بسبب سرعة المواصلات وتقدم وسائل الاعلاموأجهزة التصوير والطباعة الحديثة واحتمال تبادل الكتب والمجلات والتسجيلات السمعية والبصرية وما الى ذلك من تقنية تتطور في كل يوم ٠

فلا غرو أن تنفذ الى الجامعات وهي مواطن الفكر بشتى أنواعه وأساليبه وميادينه مختلف التيارات الفكرية وهذا بفضل حرية الفكر وحرية البحث المفروض توافرهما ٠ وربما ابتعثت تلك التيارات والاتجاهات الحديثة بعض البلبلة لدى الناشئة ونصيباً من الحيرة ٠ ولكننا لا نخشى الحيرة ولا البلبلة اذا كان الأساتذة والطلاب على حظ كاف من الثقافة التراثية والثقة بالنفس ، بل ربما

أفادوا من عناصرها العلمية والانسانيةوزادوا غنى ثقافاتهم بما تحمله من مضامين فكرية وأحاطوا بها بدلا من أن تحيط بهم · أو ليست الحكمة في تراثنا ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلدالمنة لمن ساقها اليه كائناًماكان؟!

وقد يتساءل الناشئة عن مواقفهم تلقاء تراثهم فينظرون اليه من جانب الأفق العالمي ويقدرون كم أسهم هذا التراث العظيم في تقدم العلم ورفعة الفكر وخدمة الانسانية · ثم ينظرون اليه من جانب الأفق العربي الاسلامي والجغرافي والتاريخي فيدركون أصالة هذا التراث وخصوصيته فوق ادراكهم عموميته ·

وكذلك ينظرون اليه من الأفق المطل على المستقبل فيستلهمونه في ضوء همومهم المطيفة وحل مشكلاتهم المعترضة · فيكون حافزاً لهم وباعثاً على الحركة والعمل

وهكذا اذا رجعنا الى التراث العربي الاسلامي طالعتنا مزايا هذا التراث واستطعنا أن نستند الى خصائصه المميزة وسماته العالمية ·



ونحن نحب أن نؤكد هذه السمات والخصائص والمزايا لعلها تنغرس في صدور الناشئة وترسخ في نفوسهم وتغدو مستنداً ومصدراً لهممهم ·

نوهنا في مستهل هذا الحديث بقيمة العلم في هذا التراث · فهو مجد وشرف وقوة ورفعة ليس فوقها رفعة · والمجتمع مسؤول عن كل علم نافع محمود حتى اذا أعوز علم من العلوم كان فرض كفاية على الناس بحيث يجب أن ينفر فريق منهم لتعلمه واتقانه وتزويد المجتمع به ، والاأثموا جميعاً ·

والعلم حياة للمجتمع وللفرد · انه حياة حقيقية في الحياة وبعد الحياة وقالوا في ذلك شعراً كثيراً نذكر منه هذين البيتين :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور

وان امرأ لم يحي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور

قال أبو الأسود : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك · (إحياء ج ١ ص ٧)

وقد شبه فريد الدين العطار النفس بالفراشة لا تصل الى المعرفة الا باحتراقها في الشملة شملة العلم وقد أخذ هذا المعنى الشاعر الألماني غوتي فله قطعة شعرية في كتابه « الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» بعنوان الحنين السعيد تقوم على هذا التشبيه كأن النفس تحن الى الاحتراق حين ترى مشهد النور فان لم تحترق كانت طيفاً عابراً في هذه الدنيا لا أثر لها ولا خبر . وثمة شعراء وكتّاب قدماء وحديثون اقتبسوا هذا التشبيه .

وكان علماء الاسلام في علومهم التي يتخصصون بها لا يحصرون أنفسهم في حدودها الضيقة . بل كانوا دائماً يتشوفون الى ما وراء هذه الحدود ويلمون ما استطاعوا بعلوم أخرى متعددة . ولهذا كانت لهم صفات موسوعية الى جانب اختصاصهم . وقل أن نجد عالماً من علماء الاسلام ضيّق الأفق اقتصر على علم واحد . قيل للامام الشافعي : متى يكون الرجل عالماً ؟ قال : اذا تحقق في علم فعلمه وتعرّض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فعند ذلك يكون عالماً (احياء علوم الدين ج ١ ص ٢٦) ذلك أن أولئك العلماء كانوا يدركون اشتباك جوانب الكون وتراكب عناصره وارتباط بعضها ببعض ضمن وحدته . فاذا درسوا علماً من العلوم يتناول موضوعاً ما انتبهوا الى احتمال علاقاته بموضوعات العلوم الأخرى وحاولوا استشفافها حباً في كشف هذه العلاقات وفي تطوير علومهم وفي ابتكار شيء جديد . ذلك أن من صفات العلم حركته وقبوله للتطور وعدم اكتماله وتاريخيته بمعنى أن كل علم هو زبدة العصر الذي ظهر فيه . فكان العالم المسلم متشوفاً نحو الابتكار والاستكمال والاتيان بالجديد يهتدي بنور عقله وذكاء قريحته . قال ابن مسعود : ليس العلم بكثرة الرواية . انما العلم نور يقذف في القلب (احياء ج ١ ص ٤٩) . ومعنى ذلك في رأينا تحفّز العالم لتفهم ما خفي عنه بتوقد قريحته وابتكار الجديد لا الوقوف عندما حصّل .

ثم ان العلم في الاسلام يجب أن يقترن بالعمل . ومن عبقرية اللغة العربية أنها كونت لفظي العلم والعمل من حروف واحدة لبيان اقترانهما وأن الواحد لا يتم الا بالآخر . وهذا ما يدعى في العربية بالاشتقاق الكبير . ثم ان كلاً منهما يؤثر في الآخر . وهذا ما يدعى في الفلسفة الحديثة بجدلية العلم والعمل اشارة الى التأثير المتبادل بينهما تأثيراً متلازماً . وعبّر علماء الاسلام عن هذه الجدلية

بعبارات بديعة كقولهم : « العلم يهتف بالعمل فان أجابه أقام والا ارتحل » ، وقولهم : « ثمرة العلوم العمل بالمعلوم » ، وقولهم : « شكر العلم العمل به وشكر العمل زيادة العلم » وفي هذا القول اشارة الى أن العلم والعمل كلاهما نعمة ! وقد قال علي كرم الله وجهه : قيمة كل امرىء ما يحسن • فأخذه الخليل الفراهيدي وهو العالم المبتكر فنظمه شعراً :

لا يكون العليّ مثل الدنيّ   لا ولا ذو الذكاء مثل الغبيّ

قيمة المرء قدر ما يحسن المر   ء قضاء من الامام عليّ

فالاحسان هنا بمعنى العمل المستند الى العلم والاتيان بالجديد المبتكر •

ثم ان العلم أياً كان موضوعه والعمل أياً كان ميدانه ينبغي لهما أن يؤديا الى مصلحة المجتمع وخدمة الانسانية وتعليم الناس الخير • فالخير هو الهدف المقصود والغاية المرجوة من العمل والعلم معاً • لقد ورد في الحديث الشريف : « ان الله عز وجلّ وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير • » ومن المعلوم أن الصلاة من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن الغير دعاء • ولا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة وجميع المخلوقات بالاستغفار والدعاء له • ولهذا كان ثوابه لا ينقطع بموته • وان دعاء الانسان لأخيه الانسان من الخير • فكيف بدعاء الملأ الأعلى ودعاء الورى وبالهام الحيوانات الاستغفار والدعاء له • وذلك لفضل العلماء وعملهم وارشادهم وهو سبب لانتظام أحوال العالم • وذكر النملة والحوت بعد ذكر الثقلين تتميم لجميع أنواع الحيوان • ثم ان نفع العالم يتجاوز الناس الى جميع الخلائق حتى النملة والحوت • وفي التعبير الحديث نقول : على العالم أن ينتبه للتوازن الحيوي فوق الأرض فلا يقع فيها تلوث ولا إجحاف ولا تخريب لأن العلم والعمل مسوسان بالخير العام ومسيّران نحوه •

ثم ان العالم العامل الذي يعلم الناس الخير يغدو قدوة لغيره من الناس • هنا نأتي الى فكرة الأستاذ القدوة التي هي من مزايا الحضارة الاسلامية ، ذلك أن الناس يعيشون على الاقتداء بأفاضلهم وأعاليهم كما نوه بذلك ابن خلدون قديماً وكما أشاد بذلك أيضاً المفكر الفرنسي « تارد » حديثاً • فبالاقتداء الذي يؤلف

غالبية الشبكة الاجتماعية يسري الخير في نفوس الناس وتسري المحبة والتضامن كما يسري النسغ الحي في نسج النبات في ابان الربيع ·

ان تضافر العلم والعمل والخير يجعلنا نفهم كلمة مفكر مسلم قديم (هو أبو يزيد البسطامي) تبدو غريبة مستهجنة في ظاهرها وهي : « أشد الناس حجاباً عن الله ثلاثة : عالم بعلمه وعابد بعبادته وزاهد بزهده » ذلك بأن العالم في رأينا اذا وقف عندما يعلم كان علمه محدوداً وغاب عنه ما وراء حدود علمه · والعابد اذا اقتصر على عبادته دون أن يخدم مجتمعه لم تنفعه العبادة الشخصية وحدها لأن غالبية العبادات ان لم نقل كلها ذات صفات اجتماعية تتعلق بتحسين المجتمع وتجويد العلاقات الانسانية والسعي في خير الجميع · والزاهد بانصرافه عن عمارة الدنيا التي هي سبيل الخلود تقل موازينه في ميدان العمل المثمر · وكل تجافٍ عن النظر في الكون والبحث في أسراره وعن التعاون مع الناس انما هو تباعد عن السنن الطبيعي وتنكب عن جوهر الانسان · ولقد كان علماء الاسلام حراصاً على الافادة من الزمن والخوف من فواته · كل ساعة عندهم وسيلة من وسائل الغنى العلمي والمادي · قالوا: الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك . وقال الجنيد: « الوقت اذا فات لا يستدرك، وليس شيء أعزّ من الوقت · » وقد كتب أبو الفرج بن الجوزي في كتابه صيد الخاطر : « ينبغي للانسان أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته فلا يضيع لحظة في غير قُربة ، ويقدم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل · ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور بما لا يعجز عنه البدن من العمل · »

وقد نجد في التراث مواقف وأقوالاً غريبة وعجيبة ورائعة في تقدير الوقت خشية فواته وفي محبة العلم والحرص عليه · روي عن عامر بن قيس أحد التابعين أن رجلاً قال له : كلمني (وعرف خواء حواره) فقال له عامر : أمسك الشمس · أي أن الزمن لا يقف فتجب الافادة منه وعدم اضاعته سدى ·

ومن أغرب هذه المواقف ما ذكر ياقوت في ارشاد الأديب عن أبي الريحان البيروني فقد كان « مع الفسحة في التعمير وجلالة الحال في عامة الأمور مكباً على تحصيل العلوم ، منصباً الى تصنيف الكتب، يفتح أبوابها ، ويحيط بشواكلها وأقرابها ، ولا يكاد يفارق يده القلم ،وعينه النظر ، وقلبه الفكر الا في يومي

النيروز والمهرجان من السنة لاعداد ماتمس اليه الحاجة في المعاش من بلغة الطعام وعلقة الرياش ، ثم هجيّرا في سائر الأيام من السنة علم يسفر عن وجهه قناع الاشكال ، ويحسر عن ذراعيه كمام الاغلاق »* • ثم يذكر ياقوت أن الفقيه عليّ بن عيسى الولوالجي قال : « دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه قد حشرج نفسه ، وضاق به صدره • فقال لي في تلك الحال : كيف قلت يوماً حساب الجدات الفاسدة ؟ فقلت له اشفاقاً عليه : أفي هذه الحالة ؟ قال لي : يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسالة ألا يكون خيراً من ان أخلّيها وأنا جاهل بها ؟ فأعدت ذلك عليه وحفظ وعلمني ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ • »
وما ندري أوقعت هذه القصة حقاً أم كانت خيالية لابراز حب أبي الريحان للعلم حتى في سياق الموت • وأبو الريحان هو الذي قال فيه المستشرق الألماني زخاو : « انه أكبر عقلية عرفها التاريخ » وهو الذي اقترح مؤرخ العلوم الأمريكي سارتون تسمية النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي باسمه •

قال رسول الله ﷺ : « ان هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق » • وفي الحق ليس ثمة شيء صالح الا دعا اليه ولا شيء ضار الا أبعد عنه حفظاً لمصلحة الفرد والمجتمع والدولة والانسانية • ولكن الحياة في تطور دائم وصيرورة مستمرة • ولا بد من أن تنشأ فيها مشكلات جديدة وتنشب مواقف حرجة تتعلق بمسائل اجتماعية وفكرية واقتصادية وعلمية وسياسية وما الى ذلك • وليست هذه المواقف والمشكلات بالقليلة كنظرية التطور مثلا في البيولوجية ومشكلة تنظيم الأسرة وضبط النسل في علم السكان • هاتان مسألتان بسيطتان في جانب مسائل أخرى دقيقة متعددة ، يمكن أن تعالج كلها في الجامعات ومعاهد البحث العالية • ونعتقد أنه ليس من الصعب الوصول الى الحلول السليمة تمليها مصلحة المجتمع وأسلوب الفكر الاسلامي المتفتح المحيط بدخائل الأمور والمتلمح لمصائرها والمدرك بأن النظريات العلمية ليست مطلقة ولا نهائية • بل هي ثمرة العصر الذي حصلت فيه والمرحلة التي وصلت اليها • نحن لا نخشى من أمثال هذه المباحث اذا اطلعنا اطلاعاً واسعاً وعميقاً على جوهرها وفكّرنا مليّاً في مصلحة الأمة دون أن نمد بسرعة الى

* هكذا في الاصل والمراد هنا اكمام جمع كم بضم الكاف وهو مدخل اليد ومخرجها من الثوب • ولعل الالف سقطت عند الطبع •

اعطاء رأي فطير أو فتوى جاءت في بعض الكتب الدينية المتأخرة بمناسبة حادثة طارئة . نعود فنضرب مثلا قضية ضبط النسل فلا بد في اعطاء رأي اسلامي في هذا الصدد من الالمام بمواقف الدول الحديثة غربية وشرقية وبمواقف الأديان الأخرى وتبيّن ما وراء هذه المواقف واستلهام ما جاء في التراث الواسع جميعه قبل التسرّع في الحكم . ونرى أنه من المفيد في جامعة اسلامية انشاء هيئة صغيرة استشارية تجتهد في هذا المضمار ان لم يكن ثمة نصّ قاطع تتألف من الأكفياء العلماء المطلعين على قواعد التشريع الاسلامي والمتفتحين على روح الدين واتجاهه الاجتماعي مع الاطلاع على مكاسب العلوم الحديثة وتكون هيئتهم بمنزلة السفينة الماخرة في بحر العلوم بل في خضم الحياة المتلاطم الأمواج والمتضارب النزعات . وقليل ما هم . ومن المفيد أيضاً لهذه الهيئة الاتصال بأمثالها في الجامعات الاسلامية وبدور الفتوى ان وجدت . ثم ان هدى البصيرة وتقوى القلوب واستشراف المستقبل تيسر كل صعب وتذلل كل عقبة وتوجّه كل بحث .

نجد في التراث أيضاً أن « العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه : قلب مفكر ، ولسان معبر ، وبيان مصور . » (أدب الدنيا والدين للماوردي) . وهذا يدل على أنه لا بد في التعلم والتعليم من قلوب أو عقول متدبرة مفكرة تستوعب المعاني والمعلومات، ولا بد فيهما أيضاً من ألفاظ ومصطلحات تقابل تلك المعاني ومن بيان يستوفي تلك المعلومات دون زيادة ولا نقصان . أما النقصان فيأتي من العي والحصر وضعف ملكة البيان . وأما الزيادة فهي ضرب من الهذر والاكثار . وتبقى زيادة اللفظ على المعنى أقل خطراً من تقصير اللفظ عن المعنى . وانما ينشأ هذا من سوء فهم المتكلم أو الشارح . ولهذا لابد للأستاذ من اتقان لغة قومه ولا بد له من التأليف فيها والتعليم بها أيضاً . ولا نستطيع أن نتصوّر جامعة عربية اسلامية تعلم العلوم على اختلاف أنواعها بغير اللغة العربية مهما اعترضت العقبات ونشبت دون ذلك الصعوبات وتعددت في سبيله العثرات .

ان الجامعات خزائن المعرفة ومناهل العلم وينابيع التفكير ومصادر التجديد اذا كان التعليم العالي فيها باللغة القومية . ذلك أنه يتخرج فيها رجال الفكر والأطباء والمهندسون والمحامون والاداريون وأهل القانون وأصحاب الاختصاص المتنوع في العلم والمعرفة . واذا جروا على ممارسة التفكير والاعراب عن بنات أفكارهم

وثمرات قرائحهم بلغتهم القومية العربية أدّى ذلك الى تطور العلم العربي . ثم ان كلاً من المفكرين والعلماء ينتسب الى أسرة وله أصدقاء وزملاء ويختلف الى أندية وجماعات ويشارك في مناقشات ويزاول التفكير والبحث أياً كان مداهما . فاذا جرى على التعبير والاعراب عن أفكاره في بحوثه ومناقشاته وتعليمه وكتاباته بلغته القومية وبشكل سليم صحيح أفضى ذلك الى الارتفاع بلغة الجماهير الذين يقتدون بمن هم أعلى منهم مكانة وثقافة ومرتبة ويلتقطون تعبيراتهم ومفرداتهم التي يستعملونها ويتأثرون ببيانهم الذي يسمعونه أو يقرؤونه فالتعليم باللغة العربية في جميع فروعه ودرجاته سبب لذيوع العلم العربي وتطوره ولنشره وبثه بين الناس والارتفاع بمستواهم الفكري والبياني . يضاف الى ذلك ما يتعلق بوسائل الاعلام من مجلات وصحف واذاعة سمعية وبصرية . كذلك الناشيء الذي يشب وهو يسمع لغة مبينة صقلها العلم وهذبتها المعرفة يغدو متمرساً بها ولاقناً لمفرداتها ومتفتحاً عقله وملكاته للافادة من مضامينها العلمية والفكرية والفنية . ولهذا نرى أن النهوض بالفكر لدى الشعب يتهيأ من الأعلى أي على طريق التثقيف والتعليم في الجامعات واعداد رجال الفكر والعلم من أطباء ومهندسين ومحامين وأساتذة وأدباء وغيرهم قد ملكوا زمام البيان في لغتهم القومية .

ولقد أدركت الشعوب هذه المزية فعمدت على الأغلب الى التعليم في جامعاتها ومعاهدها العالية بلغاتها القومية حتى لو كانت هذه اللغات ذوات حظوظ ضئيلة ومتفاوتة من التقدم بالقياس الى بعض اللغات الحديثة الشائعة التي يرجع سر تقدمها الى تقدم أبنائها لا الى خصائصها الذاتية . ذلك أن للغات خصائص ذاتية جوهرية وخصائص عارضة سطحية. فالخصائص العارضة متعلقة بالمرحلة الاجتماعية والثقافية التي وصل اليها الشعب . فاذا تقدم الشعب تقدمت لغته بتقدمه . والخصائص الذاتية ما كان أصيلاً من مرونة وغنى وطواعية وسهولة اشتقاق ونحت وقياس وتقبل وفي رأينا لا توجد لغة فوق الأرض تعدل اللغة العربية في هذه المزايا وفي غيرها أيضاً .

ان الفتى الذي ألمّ الماماً كافياً بقواعد لغته وبأصول التعبير الصحيح فيها يسهل عليه في الغالب التبريز في اتقان اللغات الأخرى وفي العلوم أيضاً لأن اتقانه لغته في سن نشوئه دليل على جودة ملكاته الفكرية ومُشْعِر بحسن مواهبه الأصلية.

ولهذا كان كل شعور بالعجز دليل الوهن والأفن وعدم الكفاية العقلية ٠ بل نرى فوق ذلك أن المصاعب التي قد يصادفها المثقف في ميدان الابداع والابتكار نوع من التحدّي لملكاته وقواه الفكرية ٠وكثيراً ما أفاد التحدي في ابراز القيم الشخصية وفي شحذ مواهب الأفراد والجماعات ٠ وشد ما قيل بين الناس : ان الحاجة أم الاختراع ٠ ونحن نقول : ان الصعوبة المعترضة والصبر دونها والتغلب عليها مفتاح النجاح ٠

نحن ندرك تواري اللغة العربية منذحين عن ساحة الحضارة الحديثة كما ندرك تلكؤها في مجاراة المصطلحات الحديثة التي غدت كالسيل الهادر والآتيّ المستفحل في مجال العلوم والتكنولوجيا الحديثة حتى صرف الأساتذة والمشرفين على الجامعات العربية عنها الى لغات أجنبية أهمها اللغة الانكليزية ٠ وربما خيّل الأجنبي للعربي صعوبة العلم بلغته وشدة المشقّة في سبيل غير معبّد ولا مذلل ٠ ولكن هذا لا يليق بالناشىء العربي اذ هو أكبر همة وأشدذكاءً وأوسع ادراكاً من أمثاله الأجانب ٠ وهو يستطيع أن ينهض بالأعباء الكبيرة الملقاة على جيله والمتحصلة عن صروف ماضية منتهية ٠ ولا بد من الاقبال والجرأة ٠ وقديماً قال الشاعر العربي :

لا تكونـنّ للأمور هيوبا فالى خيبة يصير الهيوب

ومن أخذ من العلم ما تسهّل وترك منه ما تعذّر كان شانه فيما قال القدماء كالقانص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائباً اذ ليس يرى الصيد الا ممتنعاً ٠ كذلك العلم صعب على المقصر سهل على المجدّ ٠ ولا يبعد شأو على صاحب الهمة ولا تشحط غاية على الراغب في الوصول ٠ لقد ذكر الجوزجاني أن شيخاً لغوياً هو أبو منصور الجبان التفت مرة الى ابن سينا قائلاً انك فيلسوف حكيم ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها ٠ فاستنكف أبو علي من هذا الكلام وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين ثم تحدى أبا منصور في اللغة وفاز عليه ٠ نحن لا نطلب الى الناشىء أن يكون لغوياً كالشيخ الرئيس ولا مبيناً في كل ميدان مثله ٠ ولكن لا بد للعالم من اتقان لغة قومه والتعليم والبحث فيها على الرغم من العقبات في جميع اللغات لا في اللغة العربية وحدها ٠

بل على العكس نجد اللغة العربية عند التمكن منها مواتية لكل مقصد ومسعفة في الوصول الى كل هدف ٠ منذا الذي لم يطلع على النص الذي كتبه

البيروني في مقدمة كتابه « الصيدنة » يعلي فيه بيان اللغة العربية حين كثر النقل والترجمة اليها فازداد المنقول والمترجم بها جمالاً واتساقاً : « والى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلّت في الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة ، وان كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مع الآفها وأشكالها . وأقيس هذا بنفسي وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب والزرافة في العراب ثم متنقلة الى العربية والفارسية ، فانا في كل واحدة دخل ولها متكلف . والهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسية . »

بل نجد أبا الريحان في مستهل كتابه « تحديد نهاية الأماكن » يندد باستعمال الباحثين لبعض الألفاظ اليونانية التي دخلت أول الأمر الى كتب المترجمين الأوائل ليهوّلوا بها على الناشئة دون أن يعرفوا المقابل العربي لها أو يضعوه بالضبط فهو يقول: « ونحن نراهم يستعملون في الجدل واصول الكلام والفقه طرُقه (طرق المنطق) ولكن بألفاظهم المعتادة فلا يكرهونها . فاذا ذكر لهم إيسا غوجي وقاطيغورياس وباري أرمنياس وانولوطيقا رأيتهم يشمئزون عنه و (ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت) (٤٧ ـ ٢٠) وحق لهم . فالجناية جناية المترجمين ، اذ لو نقلت الأسامي الى العربية فقيل كتاب المدخل والمقولات والعبارة والقياس والبرهان لوجدوا متسارعين الى قبولها غير معرضين عنها . »

هذا واذا تقدم الغرب في الوسائل التقنية والعلوم المادية فانا ما نزال نزعم أن الشرق متقدم على الغرب في القيم الانسانية والمزايا الروحية والشمائل الاجتماعية من علائق التعاطف في الأسرة ومن محبة الانسان للانسان ومن اعلاء شأن العلم والمعرفة ومن غوث الملهوف وعون الضعيف وهداية الحائر ومد يد المعونة للعاجز والبر بالشيوخ والوالدين والحدب على الصغار والتمسك بمكارم الأخلاق . واذا وجدنا لذلك شذوذاً فانه طرأ بطريق الاذاعة والسينما والقصص السيئة « السادية » . ان اثارة الرعب والتقتيل الجماعي والصمت عن الاجرام والتمييز العنصري وغش الشعوب وسرقة أراضيها وتخريب حضاراتها وعبادة الدرهم والدينار كل هذه الأمور بعيدة من تصورات الشرق ومفاهيمه .

ان البلاد العربية غنيّة بممكناتها المتنوعة الغزيرة • وهي تتسع اتساعاً وافياً لمختلف الثقافات الأجنبية وهي قادرة على تمثلها مع الزمن • وكما أن الأغراس في الحدائق تحتاج الى برهة للتلاؤم هي والأحوال الخارجية من تربة ورطوبة وحرارة وتغذية ورعاية وتعهد دائم لكي تنمو وتقوى وتتفرع وتزهر وتؤتي بالثمار الزكية تحتاج الأجيال الى فترات زمنية ذات ايقاع مناسب لكي تتفاعل ثقافاتها وتتهيأ للنهوض والتفتح وانشاء حضارة جديدة أصيلة • هكذا تم نهوض الأمم وظهورها بالتدرج على صعيد الحضارة العالمية • ولكنه تم أيضاً بالدعم الفعال من قبل المسؤولين والتعهد الدائم لنسغ الحضارة المتولد وتشجيع الأكفياء في كل ميدان • ولكل شعب مزايا يستطيع أن يظهرها في تحقيق مواهبه ان لم تحل دونه حوائل داخلية أو خارجية ولم تضلله تربية خاطئة ولا زيغ ناكب ولم يضيمه استلاب لحقيقته القومية والانسانية . ولا مجال للاستلاب الثقافي اذا ارتكز النشء على المبادىء الصحيحة والتوجيه السليم وتم التعليم باللغة القومية وانتشرت الأفكار والثقافة والعلوم ونمت المواهب بين الناس وتحققت ملكاتهم ومواهبهم في طريق التقدم والعلاء • وعلى العكس يقضي التعليم باللغة الأجنبية على هذه المواهب والملكات ويجعلها ذيلاً للحضارة الأجنبية وملحقة بها الحاق العمال في البلاد الرأسمالية الغربية بأصحاب المصانع وأرباب رؤوس الأموال •

ومن دواعي الفخر أن جامعاتنا في القطر العربي السوري كانت أسبق الجامعات العربية وما تزال في الحرص على التعليم بالعربية السليمة الصحيحة • ومع ذلك فالفرق كبير في هذه الحال بين أوائل هذا العصر والوقت الحاضر اذ غدت العربية أقرب ما تكون الى العامية والى الركاكة والى التعثر في تشتت المصطلحات سواء أكان ذلك في التدريس أم في كتابة الكتب • وهذا يلقي عبئاً ثقيلا على الطالب النبيه اذ يضطر الى أن يبذل جهوداً ضخمة في تلافي هذا الخلل التعليمي الشائن ، كما لا بد من مداواة هذا السقام التعليمي العضال الذي لا يشفيه الا تلاقي جهود الأساتذة الأكفياء وادارة جامعية موفقة حازمة تنظر في حقائق التعليم وبواطن الأمور والأساليب الناجعة ولا تتعلق بالمظاهر •

والمهم هو ارساخ التفكير العلمي فيأذهان الأجيال العربية المقبلة بحيث يغدو التفكير العلمي والتعبير العربي صنويين متحدين ملتحمين حافزين على الابداع والابتكار الى جانب الاطلاع الدائم على ما يجدّ من بحوث علمية على الصعيد الانساني العالمي بأي لغة كانت ٠

ان التعاون قوة من أكبر القوى وهوسبيل النجاح والتاييد ٠ ونحن العرب في هذا العصر أحوج ما نكون الى التعاون والتعاضد في كل مضمار ولا سيما مضمار البحث والعلم لتحقيق مقوماتنا الذاتية وهوياتنا الثقافية وللحاق بركب الحضارة العالمية الراهنة والمشاركة فيها مشاركة الند للند لا مشاركة البلد المنفرد بشكل الأجير المستغل في مطامع المجموعة العالمية ٠

ويساورنا اليقين أن الأجيال العربية الحديثة والمقبلة ستحمل الأعباء الضخمة في مجال العلم والتعليم وستنقل المعارف العالمية الى لغتهم وسيؤصلون تلك المعارف تأصيلاً عربياً اسلامياً ويتجاوزونها الى المبتكر الطريف ٠



مهما قيل في هذا الموضوع الرحب فاني متفائل بالنهوض القومي ، ومشغوف بالتقدم الانساني ، ومغرم بالتراث العالمي ولا سيما العربي الاسلامي ٠ واني لأتغنى في الختام فأقول :

أحرقت في حبي التراث حشاشتي ... وبذلت فيه جوانحي ومحاجري
ولبثت طول العيش اغشى لُجّه ... واميز فيه وارداً من صادر
واطالع الدر الوضيء ببحره ... وابث فيه مشاعري وخواطري
الشمس والقمر المنير سناهما ... يحكي البديع من التراث الباهر
قلبي المحب على المدى متفائل ... أورثت ذلك كابرا عن كابر
حاسبت نفسي في السنين اعدّها ... فاذا شؤون الحبّ ملء دفاتري
ما حالت السبعون دون صبابتي ... اني كبِرتُ وليس ذاك بضائري
القلب ليس يشيب ان شاب الفتى ... بل قد يضم ذخائرا لذخائر
ومحبتي هي للعروبة كلها ... والعلمُ والايمان كل شعائري

النحاة ومصادر الأفعال

صلاح الدين الزعبلاوي

ما عُرّف به المصدر :

المصدر هو اللفظ الدال على حدث الفعل المجرد من الزمان ، متضمنا أحرف فعله ، فهو يدل على الحدث من حيث تعلقه بفاعله ولكن على وجه العموم والابهام ، غير مقيد بزمن ، والفعل كذلك موضوع للحدث ولمن يقوم به ذلك الحدث على وجه الابهام ، كما يقول صاحب الكليات أبو البقاء الكفوي ، ولكن في زمن معين • فالحدث والزمان كلاهما يفهمان من لفظ الفعل لأن كل واحد منهما جزء مدلوله بخلاف المصدر فان المفهوم من لفظه الحدث وحده •

قال ابن جني في الخصائص (١/٢٥ ـط/١٩١٣) : « وهذا طريق المصدر لما كان جنساً لفعله ، الا ترى أنه اذا قام قومة واحدة فقد كان منه قيام ، واذا قام قومتين فقد كان منه قيام ، واذا قام مائة قومة فقد كان منه قيام • فالكلام اذاً انما هو جنس للجمل التوام مفردها ومثناها ومجموعها ، كما أن القيام جنس للقومات مفردها ومثناها ومجموعها • فنظير القومة الواحدة من القيام ، الجملة الواحدة من الكلام ، وهذا جليّ » •

المصدر واسم المصدر :

فالمصدر من حيث المعنى ، يدل على الحدث من حيث تعلقه بفاعله • قال الرضي في شرح الكافية : « الحدث ان اعتبر صدوره عن الفاعل ووقوعه على المفعول سُمي مصدراً ، واذا لم يعتبر من هذه الحيثية سمي اسم مصدر » • وقال ابن القيم في بدائع الفنون : « وأما الفرق المعنوي بين المصدر واسم المصدر فهو أن المصدر دال على الحدث وفاعله • فاذا قلت تكليم وتسليم وتعليم ونحو ذلك ، دل على الحدث ومن قام به ، فيدل التسليم على السلام

والمسلّم ، وكذلك التكليم والتعليم • وأما اسم المصدر فانما يدل على الحدث وحده فالسلام والكلام لا يدل لفظهما على مسلّم ومكلّم بخلاف التسليم والتكليم ، فاسم المصدر جردوه لمجرد الدلالة على الحدث » • وهكذا فان المصدر يدل على معنى الفعل من حيث تعلقه بفاعل أو مفعول ، واسم المصدر يدل على الفعل دون النظر الى تعلقه بفاعل أو مفعول • قال صاحب الكليات (٨٢٣) : « وقيل المصدر موضوع للحدث من حيث اعتبار تعلقه بالمنسوب اليه على وجه الابهام • ولهذا يقتضي الفاعل والمفعول، ويحتاج الى تعيينهما في استعماله • واسم المصدر موضوع لنفس الحدث من حيث هو ، بلا اعتبار تعلقه بالمنسوب اليه في الموضوع له ، وان كان له تعلق في الواقع ، ولذلك لا يقتضي الفاعل والمفعول ، ولا يحتاج الى تعيينهما » •

☐ **خصوص اسم المصدر :**

والمصدر من حيث اللفظ ، هو الجاري على فعله متضمنا أحرف هذا الفعل • قال ابن القيم في (بدائع الفنون) : « ان المصدر هو الجاري على فعله الذي هو قياسه كالافعال من افعل والتفعيل من فعّل والانفعال من انفعل والتفعل من تفعل • واما السلام والكلام فليسا بجاريين على فعليهما ،ولو جريا عليه لقيل تسليم وتكليم » •

ويدل هذا على أن المصدر ما ساوت حروفه حروف فعله لفظا كجرى جريا ، أو تقديرا كقاتل قتالا فقد خلا القتال من الف قاتل لفظا لا تقديرا ، أو معوضا مما حذف كوعد عدة فقد خلا (عدة) من واو (وعد) ولكن عوّض منها التاء • أو زادت حروفه كقاتل مقاتلة وأعلم اعلاما •

أما اسم المصدر من حيث لفظه فهو ما نقصت أحرفه عن أحرف فعله كالصلح اسم مصدر للمصالحة ، والوضوء اسم مصدر للتوضؤ ،فهما خاليان لفظا وتقديرا من بعض ما في فعليهما • ويكون (المصدر الميمي) بهذا الاعتبار مصدرا ، كقال مقالا وأكرم مكرماً، خلافاً لمن اعتدّه من أسماء المصادر • قال ابن هشام في شرح شذور الذهب : « اسم المصدر وهو يطلق على ثلاثة أمور : أحدها ما يعمل اتفاقاً ، وهو ما بدىء بميم زائدة لغير المفاعلة كالمضرب والمقتل وذلك لأنه مصدر في الحقيقة، ويسمى المصدر الميمي ، وانما سموه أحيانا اسم مصدر تجوزاً •• والثاني ما لا يعمل اتفاقاً وهو ما كان من أسماء الأحداث علماً كسبحان علماً للتسبيح وفجار وحَماد علَمين للفجرة والمحمدة • والثالث ما اختلف في اعماله ، وهو ما كان اسماً لغير الحدث فاستعمل له كالكلام فانه في الأصل اسم للملفوظ به من الكلمات ثم نقل الى معنى التكليم والثواب فانه في الأصل اسم لما يُثاب به العمال ثم نقل الى معنى الاثابة ، وهذا النوع ذهب الكوفيون والبغداديون الى جواز اعماله •• »

ولاسم المصدر خصوص آخر ذكره ابن هشام في شرح شذور الذهب ، كما تقدم ، ذلك أنه اسم للحدث من جهة واسم للعين من جهة أخرى ، ولا يعنينا أيهما الأصل اسم

الحدث أو اسم العين . فقد ذكر الرضي في شرح الكافية أن اسم المصدر هو اسم العين المنقول الى الحدث اذ قال : « اسم المصدر هو اسم العين يستعمل بمعنى المصدر كقوله:

اكفراً بعد ردّ الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا

أي اعطائك .. والعطاء في الأصل لما يعطى » . فذهب الرضي بهذا الى أنه ليس ثمة اسم مصدر دال على الحدث الا واسم العين أصل له . وأكد صاحب المصباح أن (الكلام) ، اسماً للعين ، هو الأصل ، وأنه ، اسماً للحدث ، هو الفرع ، فقال : « كلمته تكليماً والاسم الكلام .. والكلام في أصل اللغة عبارة عن أصوات متتابعة لمعنى مفهوم. وفي اصطلاح النحاة هو اسم لما تركب من مسند ومسند اليه ، وليس هو فعل المتكلم. وربما حصل ذلك نحو : عجبت من كلامك زيداً » . فالكلام الذي هو فعل التكليم هو الفرع .

واذا كان ما ذهب اليه صاحب المصباح من أن (الكلام) في أصل اللغة ، هو أصوات متتابعة لمعنى مفهوم ، يعني أن اسم المصدر الذي هو موضوع (الحدث) هو الفرع ، والدال على (العين) هو الأصل ، فان في طبيعة نشوء اللغة وتوالد معانيها ، ما يؤيد هذا المذهب ويدعمه ، ولو أن مدار البحث لدى النحاة حيناً أن اسم المصدر في الأصل هو اسم الجنس المراد به الحدث .

أقول على ذلك جرى الأوائل من النحاة . فقد أشار ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) في الخصائص (١/٢٣) الى أن الكلام هو موضوع الحدث حين قال : « وذلك أن الكلام اسم من كلّم بمنزلة السلام من سلّم ، وهما بمعنى التكليم والتسليم ، وهما المصدران الجاريان على كلّم وسلّم » . فما دام الكلام كالتكليم من حيث معناه فانه اسم للحدث. كما أنه أشار الى أنه اسم عين حين قال (١/٣٠) : « ان الكلام انما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها المستغنية عن غيرها وهي التي يسميها ، أهل هذه الصناعة ، الجمل على اختلاف تركيبها » . وهكذا فعل أبو محمد عبد الله الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) في سر الفصاحة. فقد نبه أن (الكلام) اسم للحدث حين قال (٢٤) : « الكلام اسم عام يقع على القليل والكثير ، وذكر السيرافي أنه مصدر ، والصحيح أنه اسم مصدر ، والمصدر التكليم، قال الله تعالى : وكلم الله موسى تكليماً » . فما دام الكلام اسماً للتكليم فهو اسم للحدث ، كما نبه على أنه اسم عين حين قال (٤١) : « الكلام هو الصوت الواقع على بعض الوجوه » .

☐ الأسماء المصدرية :

ويخرج عن المصدر واسمه أسماء مصدرية أشبهت المصادر بجريانها على أحرف الفعل لفظاً ، وخالفت المصادر وأسماءها بخلوها من الحدث معنى. وذكروا من ذلك الطهور بفتح اوله وهو اسم لما يُتطهر به ، والوضوء بالفتح للماء يُتوضا بـه ، وكذلك الوقود والولوع والقبول بالفتح ، وبالضم المصدر. وقال آخرون الطهور والوضوء بالفتح اسمان ومصدران كالوقود والولوع والقبول بالفتح، فاذا كانا بالضم فهما مصدران البتة (الكامل

للمبرد ـ ٢/٧٧ ، وأمالي المرتضى ـ ١ /٣٩٧، والنهاية لابن الأثير ـ مادة طهر ، والمصباح ـ مادة وضؤ) ٠

وجاء (الغسل) بالضم لما يُغسل به ،وهو بالفتح مصدر ، وقال آخرون الغسل بالضم اسم ومصدر ، فاذا كان بالفتح فهو المصدر البتة (الصحاح والأفعال لابن القوطية والمصباح) ٠

وجاء (النقل) بالفتح مصدراً ، وجاء بالفتح والكسر والضم لما يتنقل به على الشراب (الصحاح ، وليس لابن خالويه ،وبحر العوّام لابن الحنبلي الحلبي) ٠

فهذه أسماء مصدرية ساوت المصادر في حروفها ولفظها أو ساوتها في حروفها وقاربتها في لفظها ، وقد أريد بها اسم الذات ولم يُرد بها الحدث٠ قال السيوطي في الأشباه والنظائر (٢/١٨٥) : « وقد يقولون مصدر واسم مصدر في الشيئين المتقاربين لفظاً ، أحدهما للفعل والآخر للآلة التي يستعمل بها الفعل، كالطهور بالضم والطهور بالفتح والأكل بالفتح والأكل بالضم٠ فالطهور بالضم المصدر والطهور بالفتح اسم لما يتطهر به ٠ والأكل بالفتح المصدر والأكل بالضم لما يؤكل » ٠

وقد يراد بالاسم المصدري هذا اسم المعنى دون اسم الذات فيكون اسماً للحال التي تحصل بالمصدر ٠ فقد جاء في الفروق لاسماعيل الحقي (١٣٢/١٣٣) : « الفرق بين المصدر والحاصل بالمصدر أن المصدر نفس الايقاع الذي هو أمر معنوي ، والحاصل بالمصدر هو الأثر الذي يحصل بالايقاع » ٠

وقال صاحب الجاسوس على القاموس(١٩٥) : « والفرق بين المصدر والاسم أن المصدر يتضمن معنى الفعل فينصب مثله ،والاسم هو الحال التي حصلت من الفعل ٠ مثال ذلك الغَسل بالفتح والغُسل بالضم ٠تقول قد بالغت في غسلك هذا الثوب لتنصب الثوب ٠ فاذا أردت الحال قلت : لست أرى في هذا الثوب غسلا بالضم ، هذا ماظهر لي»٠ أي أن الغسل بالفتح هو المصدر الدال على حدث الفعل ، والغسل بالضم هو الحال أو الأثر الحاصل من حدث الفعل ٠ قال ابن القوطية في الأفعال : « غسّل الشيءَ غَسلا بالفتح، والغُسل بالضم ما يُغتسل به ،وهو أيضاً تمام الطهارة » ٠ فقد جاء الغُسل بالضم ، وهو اسم مصدري ، بمعنيين فهو مايُغتسل به أي الماء فهو اسم للذات، وهو تمام الطهارة فهو اسم للمعنى ٠ وقد لمح ذلك صاحب المصباح حين قال : « وقيل الغُسل بالضم هو الماء الذي يُتطهر به ، وقال ابن القوطية : والغسل بالضم تمام الطهارة » ، لكنه أردف « وهو اسم من الاغتسال » ٠ أقول الغسل بالضم هو اسم للغسل بالفتح أي اسم للحال الحاصل به ، فهو اسم للمعنى ، وقوله «واسم من الاغتسال » قد يوهم أنه اسم للحدث ٠

ومن الأسماء المصدرية المعبرة عن أسماء المعاني الخالية من الحدث (الطُهر) بالضم قال صاحب المصباح « طهر الشيء من بابي قتل وقرُب والاسم بالضم ٠٠ ومنه قيل للحالة المناقضة للحيض طهراً بالضم والجمع أطهار ، مثل قفل وإقفال » فالطهرُ بالضم

اسم معنى خال من الحدث كالغُسل بالضم ،وقد جمع الغُسل كذلك على أغسال كما في المصباح ·

ومنها (الولاية) فالغالب أنه بالكسر للاسم دون الحدث ، وبالفتح للحدث والمصدر· ومنهم من جعل الكسر والفتح لغتين في المصدر(الصحاح والاصلاح لابن السكيت ومفردات الراغب والمصباح والكليات) ·

وثمة (النصرة) بالضم فقد جاءت اسماً، والمصدر (النصر) بالفتح · قال الجوهري في صحاحه « نصره الله على عدوه ينصره نصراً والاسم النُصرة بالضم » وكذلك قال ابن سيده في محكمه والفيومي في مصباحه ،ومنهم من جعل (النصرة) مصدراً كالنصر · ففي مفردات الراغب : « ونصرة الله للعبد ظاهرة ونصرة العبد لله هو نصرته لعباده والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده واعتناق أحكامه واجتناب نهيه » فجاء به مصدراً · وكذلك فعل الزمخشري ، ففي أساس البلاغة « نصره الله تعالى على عدوه ومن عدوه نصراً ونصرة » · وأكد ذلك صاحب التاج فقال (نصر المظلوم نصراً ونصوراً ونصرة بالضم، وهذه عن الزمخشري » · وجاء فيه « ونصره منه نصراً ونصرة بالضم نجّاه وخلّصه ·وفي البصائر : ونصرة الله لنا ظاهرة ونصرتنا لله هو نصرتنا لعباده والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده وامتثال أوامره واجتناب نواهيه » · أقول ما دام (النصرة) بالضم قد حلّت في كلامهم محل (النصر) فهي اسم للحدث على كل حال ، سواء سميت مصدراً أو اسماً · وعندي أن (النصرة) مصدر لانطوائه على الحدث دون الأسماء المصدرية الخالية منها · ويؤكد مصدريته جريانه على فعله وكونه اسماً للحدث دون سواه ، وأسماء المصدر غير جارية على أفعالها ، وهي للحدث تارة ولغيره أخرى · و (فُعلة) بالضم ليس غريباً في مصادر الثلاثي، ومن ذلك (البُغية) بالضم ، ففي القاموس « بغيته أبغيه بُغاء وبُغية بضم الباء فيهما وبغية بالكسر ···والبغية بالضم والكسر ما ابتغى » ·وكذلك (القدرة) بالضم ففي الأفعال لابن القوطية« وقدر الله على كل شيء قدرة ملكه وقهره، وقدر الرزق ضيّقه ··»، وفيه أيضاً «وكدُر الماء والشيء كدراً وكُدرة وكدورة ، وكلف الرجل كلَفاً وكُلفة ·· » ، والغالب في (فُعلة) بالضم أنه مصدر الفعل اللازم ، أو اسم بمعنى المفعول كنخبة ونكتة ·

جمـع المصـادر

تقدم أن المصدر جنس لفعله ، كما ذكر ابن جني ، ذلك أنه يدل على الحدث من حيث تعلقه بفاعله على وجه العموم والابهام · وما دام الأمر كذلك فالمصدر لا يثنى ولا يجمع لا لأنه يتناول الجنس وحسب ،والجنس يدل على القليل والكثير ، بل لأنه يدل على الحدث المتعلق بفاعله من حيث هو حدث أيضاً · قال أبو البقاء في الكليات (٣٢٥) : « وعدم تثنيته وجمعه ــ أي المصدر ــ لا لكونه اسم جنس ، بل لكونه دالا على الماهية من حيث هي هي ، والا كان الأصل في اسم الجنس ألا يثنى ولا يجمع ، ولم يقل به أحد » · أقول ما أظن الأمر كما ذكر أبو البقاء ،ذلك أن الأصل في اسم الجنس ألا يجمع لأنه يدل

على القليل والكثير ، فاذا جمع فقد عُدل به عن دلالته • فالتمر اسم جنس ، فاذا جمعته على(تمور) فقد دللت بالتمر الذي هو واحد التمور ، على نوع من أنواعه ، وبهذا يكون قد جُذب من الجنس ودلالته العامة وشموله ،الى النوع ودلالته المحددة وخصوصه • وانظر الى قول أبي البقاء نفسه ، في الكليات :« واسم الجنس ، وان كان يتناول آحاد مدلوله ، الا أنه لا يدل على اختلاف فاعله ولا على تنوع مدلوله ، ولهـذا جمع العمل في قوله تعالى : الأخسرين أعمالا ، ليدل على الأمرين» فدل بذلك على أن الذي جمع هو النوع والصنف لا الجنس الجامع • قال صاحب المصبـاح :« لأن الجنس لا يجمـع في الحقيقـة ، وانما تجمع أصنافه ، والجمع يكـون في الأعيـان كالزيدين ، وفي أسماء الأجناس اذا اختلفت أنواعها كالارطاب والأعناب والالبان واللحوم ، وفي المعانـي الحقيقيـة المختلفـة كالعلـوم والظنون » •

وبحث الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله بن مالك وهو ولد ابن مالك صاحب الألفيـة ، الأسماء الدالة على الجمع فذكر منها الجمع واسم الجمـع واسم الجنس • قال الشيـخ بدر الدين شارح الألفية : « الاسم الدال على أكثر من اثنين بشهادة التأمل ، اما أن يكون موضوعاً للآحاد المجتمعة دالا عليها دلالة تكرار الواحد بالعطف ، وامـا أن يكون موضوعـاً لمجموع الآحـاد دالا عليها دلالة المفرد علـى جملة أجزاء مسمّاه ، واما أن يكون موضوعاً للحقيقة ملغى فيه اعتبار الفردية ، الا أن الواحـد ينتفي بنفيـه ، فالموضوع للآحـاد المجتمعة هو الجمع ، سواء كان له من لفظه واحـد مستعمل كرجـال وأسود أو لم يكـن كأبابيل • والموضوع لمجموع الآحاد هو اسم الجمع سواء كان له واحد مـن لفظه كركب وصحب ، أو لم يكن كقوم ورهط ، والموضوع للحقيقـة بالمعنى المذكور هو اسم الجنس ، وهو غالباً فيما يفرق بينه وبين واحده بالتاء كتمر وتمرة ، وعكسه كمأة وجبأة » أي أن الكمأة واحدها كمء على غير قياس ، وكذلك الجبأة واحدها الجبء •

وقصارى ما هناك أن المصدر اذا حُدّ بما ذكرنا فلا سبيل الى جمعه سماعاً أو قياساً ، فاذا عُدل به عن دلالته الجنسيـة أو حدثـه المتعلق بفاعله جاز جمعه في الأصل قياسا على الأسماء عامة • وكل ما جمعوه مـن المصادر وتأولوا لجمعه بالسماع واختلاف الأنواع قد خرجوا به عن جنسه أو حدثه العام الصـادر عن العامل ، فزال بذلك المانع من جمعه وعاد اليه حكم الأسماء في جمعها •

فكلام الأئمة مثلا على أن (العقول والألبـاب والعلوم والظنون) مصادر قد جمعت لاختلاف أنواعها ، وهي على التحقيق مصادر عُدل بها الى الاسمية فلم يبق لها من مصدريتها الا اللفظ ، ذلك أنها فقدت دلالة المصدر من حيث كونه جنساً لفعله وحدثه المتعلق بالفاعل • قال صاحب المصباح « ثم أطلق العقل الذي هو مصدر على الحجا واللب » فغدا بهذا القوة المتهيئة لقبول العلم ، كما قال صاحب المفردات ، أو هو قوة للنفس الناطقة ، أو هو ما يعقل به حقائق الأشياء ، كما في التعريفات للجرجاني •

وهكذا (اللب) فهو مصدر في الأصل ، تقول : (لبّ بمعنى عقل) ثم سُلخ منه ، حين جُمع على الألباب ، دلالته المصدرية · قال صاحب المفردات : « اللب العقل الخالص من الشوائب » ، وكذا (الحلم) بالكسر فهو مصدر بمعنى الأناة وقد أنزل منزلة العقل المجرد من مصدريته فجمع على أحلام وحلوم ·

أما (الظن) فقد حكى ابن منظور عن صاحب المحكم أنه يكون اسماً ومصدراً ، وأن الذي جمع هو الاسم · وهكذا (العلم) اذا قصد به المعرفة المتصلة بموضوع ، كقولك (علم النحو وعلم الفقه) فهو يجمع على علوم ، وهو لا يدل على الحدث · قال أبو البقاء في الكليات : « واستعمال العلم بمعنى المعلوم شائع وواقع في الأحاديث كقول ﷺ وتعلموا العلم ، فان العلم هنا بمعنى المعلوم » · قال الشيخ مصطفى الغلاييني في (جامع دروس اللغة العربية ـ ٢/٤١٤) : « فالمصدر الذي يراد به الاسم لا حدوث الفعل كما تقول : العلم نور ، فان لم يرد به الحدث فلا يعمل » ·

ولما كان الأمر على ما بيناه فليس شيء مما جمع وأصله المصدر باقياً على مصدريته · فكل ما جمع فقد جذب الى الاسمية وخُرج به عن المصدرية · واذا كان صاحب المصباح قد حكى عن الجرجاني قوله : « ولا يجمع المبهم الا اذا أريد به الفرق بين النوع والجنس ، واغلب ما يكون فيما ينجذب الى الاسمية نحو العلم والظن ، ولا يطرد » ، فان الغلبة التي أشير اليها هي قياس لا ينكسر · فاذا قال الأئمة فيما جمع انه مصدر فقد أرادوا أن ينبهوا على أصله الذي كان له قبل الجمع · وهكذا تصرّف الأئمة في جمع ما كان أصله المصدر ثم دعت حاجة التعبير الى انزاله منزلة الاسم فجمعوه ·

ما جمعه الأئمة من المصادر حملاً على الاسمية :

جرى الأئمة على جمع مصادر ما فوق الثلاثي فأكثروا منه ، وترددوا في جمع مصادر الثلاثي فأقلوا منه · فهم جمعوا استعمالا واختراعاً واحتمالا واعتقاداً واحتجاجاً واعتماداً وانتقالا والزاماً واختياراً وابتداء · على استعمالات واختراعات واحتمالات واعتقادات ·· كل ذلك بالألف والتاء ، كما جمعوا تقريراً وتحديداً وتدقيقاً وتصحيفاً وتنبيهاً وتنزيلا وتأويلا وترخيصاً وتعريفاً فقالوا تقريرات وتحديدات وتدقيقات وتصحيفات وتنبيهات ··· بالألف والتاء ، وجمعوا الحاقاً واشكالا واعراباً والزاماً على الحاقات واشكالات واعرابات والزامات بالألف والتاء أيضاً ، كما جمعوا تصرفاً على تصرفات ··· لكنهم جمعوا تركيباً وتقليباً وتعليلا وتكبيراً وتصغيراً وتصنيفاً وتأليفاً وتفعيلا وتقسيماً وتعبيراً وتصريفاً وتفسيراً على تراكيب وتقاليب وتعاليل وتكابير وتصاغير وتصانيف ··· جمع تكسير ، شاع ذلك في مؤلفات الأئمة شيوعاً متعالماً ، كالامام ابن جني في خصائصه والقاضي الجرجاني في وساطته والخفاجي في سر الفصاحة والزمخشري في كشافه وأساسه ، بل الجاحظ في بعض رسائله ، فقد جاء في (التربيع والتدوير / ٢١٧) : « وعادته كطبيعته ، وآخره كأوله ، تحكي اختياراته التوفيق ومذاهبه التسديد »

وهكذا ابن هشام في مغنيه والسيوطي ومن حكى عنهم في مزهره والأشباه والنظائر وفي همعه ، والصبان في حاشيته على الأشموني، والأشموني في شرح الألفية ..

واذا كان الأئمة قد استساغوا الجمع في مصادر ما فوق الثلاثي فجمعوه جمع سلامة ، فقد ضمنوا بجمع السلامة صيغة مفردة ،كما ضمنوا في جمع منتهى الجموع تمرّف واحده ، واذا كانوا قد ترددوا في جمع مصادر الثلاثي فذلك لاختلاف صيغ جمعه ، على وفرة ما نقل عن العرب من جمع مصادر الثلاثي . قال ابن منظور في (مادة نزل) : « وقول ابن جني المضاف والمضاف اليه عندهم وفي كثير من تنزيلاتهم كالاسم الواحد .. انما جمع تنزيلا هنا لأنه أراد للمضاف والمضاف اليه تنزيلات في وجوه كثيرة ، منزلة الاسم الواحد ، فكنّى بالتنزيلات عن الوجوه المختلفة . ألا ترى أن المصدر لاوجه له الا تشعب الأنواع وكثرتها . مع أن ابن جني تسمّح بهذا تسمّح تحضر وتحذق ، فأما على مذهب العرب ، فلا وجه له ، الا ما قلناه » . أقول ان ما فعله ابن جني وتسمّح به قد جرى عليه العرب أنفسهم ،ولا بد لمثل هذا التسمح ما دام تسمّح تحضر وتحذق أن يتسع نطاقه وتمتد آفاقه مع الزمن ما مسّت اليه حاجة التعبير .

قال الجوهري : « والثني واحد أثناء الشيء أي تضاعيفه .. والثني من الوادي والجبل منعطفه وثني الجبل ما ثنيت» فحكى عن العرب جمع (تضعيف) وهو مصدر ، على (تضاعيف) وجاء هذا الجمع في خطبة (المفصّل) للزمخشري فقال : « ثم انهم في تضاعيف ذلك يحمدون فضلها» قال ابن يعيش شارح المفصّل : « التضاعيف جمع تضعيف هو جمع ضعّف اذا أردت مثله أو أكثر »وأردف : « وانما جمع ، والمصدر لا يثنى ولا يجمع ، لأنه أراد أنواعاً من التضعيف مختلفة ،كما يقال العلوم والأشغال » .

□ القياس في جمع المصدر :

فالصحيح على هذا ان يؤخذ بقياس جمع المصدر كلما مسّت اليه حاجة الاستعمال بانزال المصدر منزلة الاسم ، جرياً على ما استنه العرب واقتاسوا به . وقد قال بذلك بعض الأئمة .

قال صاحب الهمع (١٨٦/١) : « أما النوع ففيه قولان : أحدهما أنه يثنى ويجمع وعليه ابن مالك قياساً على ما سمع منه كالمقول والألباب والحلوم » .

واذا كان بعض الأئمة قد استدركوا فقالوا : « ولا يطرد ، الا تراهم لم يقولوا في قتل وسلب ونهب قتول وسلوب ونهوب » كما جاء في المصباح (مادة قصد) حكاية عن الامام الجرجاني ، وأضاف « وقال غيره لا يجمع الوعد لأنه مصدر فدلّ كلامهم على أن جمع المصدر موقوف على السماع » . أقول : اذا كان بعض الأئمة قد قال بهذا ، فالجواب عنه أن العرب لو احتاجوا الى انزال (القتل) أو (النهب) أو (السلب) منزلة الاسم لجمعوه على قتول ونهوب وسلوب ،كما تجمع الأسماء. قال ابن يعيش في شرح المفصل : « .. فعلى هذا لو سميت بالمصدر نحو ضرب وقتل لكان القياس في جمعه أن تقول في القلة ضرب وأضرب وقتل وأقتل قياساً على أفلس وأكمب والعب »

وقال صاحب الهمع في (جمع المصدر–٢/١٨٣) : « ولم تطرد فيه قاعدة بحيث تكون مقيسة في جمع ذلك الاسم : فانه اذ ذاك يجمع جمع ما كان أشبه به ، مثال الأول أن يسمّى بضرب فانه لم يجمع وهو مصدر فجمع مسمّى به على أفعل في القلة فتقول أضرب ككلب وأكلب ، وضروب في الكثرة ككعب وكعوب » · وقد جاء نحو ذلك في شرح الكافية للرضي (٢/١٨٧) فمثل له بالضروب والقتول · وهكذا جمع (قتلا) حين أنزل منزلة الاسم على (قتول) · فتبين بذلك أنك اذا سميت بالمصدر جمعته على ما يجمع به نظيره من الأسماء · ونظائر ما ذكرناه ، مما جمعته العرب من المصادر حملا على الاسمية أو جمع قياسا على ما جمعوه ، لا يحصيه عد ·

ما جمعه ابن جني من مصادر الفعل الثلاثي وما جمعه الزمخشري :

فهذا ابن جني فقد جمع من المصادر (قصدا) على (قصود) حين انتوى فيه الاسمية ، ففي الخصائص (١/٤٢٧) : « من غير اعتقاد لعلله ولا لقصد من قصوده » . وقد تكرر منه هذا الجمع · وجمع (الحذف) على حذوف في قوله (١/٨٨) : « ألا ترى ما في القرآن وفصيح الكلام من كثرة الحذوف ، كحذف المضاف وحذف الموصوف » · وجمع (الحمل) على حمول ، فقال (١/٢٢٢) : « ثم قالوا كساوان تشبيهاً له بعلباوان · ثم قالوا قرّاوان حملاً على كساوان ··· وسبب هذه الحمول والاضافات والالحاقات كثرة هذه اللغة وسعتها وغلبة حاجة أهلها الى التصرف فيها » · وهكذا جمع (الفصل) خلاف (الوصل) على فصول (١/٣٣٤) ، و (الوصل) على وصول (اللسان – وصل) و (الغلط) على أغلاط (١/٤٨) ، كما جمعه على (غلاط) (اللسان – غلط) · بل جمع (الوعد) وهو مصدر في الأصل ، على وعود · فقد أنكر الجوهري جمع (الوعد) لمصدريته وكذا فعل الأزهري ، والأصبهاني في المفردات · واستدرك ابن منظور في اللسان فقال « والوعد من المصادر المجموعة ، حكاه ابن جني » ، أقول لعل الأظهر أنه جمعه ابن جني كما هو شأنه فيما أنزله منزلة الأسماء من المصادر ·

وجمع الزمخشري (الوَجَل) بفتحتين ، وهو الخوف ، على (أوجال) كما في أساس البلاغة ·

جمع البيان والبلاغ والعذاب :

وتردد المجمعيون في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في جمع (البيان) فقال الأستاذ عباس حسن عضو المجمع القاهري : « المصدر من حيث هو مصدر لا يجوز جمعه الا اذا كان عدديا أو نوعيا ، وهنا لا دليل على التعدد · ولو سلمنا أنه متعدد الأنواع لكان المانع من جمعه جمع المؤنث السالم أنه لا يدخل تحت نوع مما يُجمع هذا الجمع » · وهكذا أنكر الأستاذ عباس حسن جمع (بيان) على (بيانات) لسببين ، الأول : أنه لا دليل على تعدده ، والثاني : أنه لا سند لجواز جمعه جمع مؤنث سالما ، اذا صح جمعه ·

والجواب على ذلك أن (البيان) بمعناه الذي أرادوا ليس مصدراً ، وانما هو اسم لما يتم به بيان الأمر والكشف عن غامضه • وما دام قد عدم حدثه وجنسه فقد جذب الى الاسمية فساغ جمعه • والبيان بالمعنى المذكور متعدد كبيان التقرير والتغيير والتبديل على ما ذكره الجرجاني في تعريفاته • وقدجمع (البيان) في شرح المنار في أصول الفقه لابن ملك فقال : « فصل في بيان أقسام البيانات / ٢٣٤ » وجعل هذه الأقسام بيان التقرير والتفسير والتغيير • وأفتى صاحب الوساطة القاضي الجرجاني (ص/٣٣٢) فقال : « ان أصل الجمع التانيث •• فمن جمع اسماً لم يجد عن العرب جمعه فأجراه على الأصل ، أي بالألف والتاء ، لم يسغ الردعليه ، ولم يجز أن ينسبه الى الخطأ لأجلها » وعلى هذا جرى الأئمة • فقد جمع الصحاح (البلاغ) على البلاغات ، وكذلك فعل الجاحظ في كتاب (حجج النبوّة)، والهمذاني في خطبة كتابه (الألفاظ الكتابية) ، فسقط بذلك اعتراض المعترض ، ويصح عندي جمع (البيان) كذلك على (أبينة) كما جمع العذاب على (أعذبة) • قال ابن منظور :« قال أبو عبيد في قوله تعالى : يضاعف لها العذاب ضعفين ـ الأحزاب / ٣٠ ، معناه تجعل الواحد ثلاثة ، أي تعذب ثلاثة أعذبة». والبيان والعذاب اسمان للمصدر الأول من التبيين والثاني من التعذيب ، واسم المصدر كالمصدر في امتناعه على الجمع من حيث الأصل ، ما لم ينزل منزلة الاسم •

☐ جمع ما انتهى بالتاء من المصادر :

ومما صرح الأئمة بجواز جمعه من المصادر باطراد ما انتهى منها بالتاء • فقد ذكر العلامة ياسين في (حاشية التصريح) :« المصدر لا يثنى ولا يجمع ما لم يكن بالتاء». وسترى ان ما انتهى بالتاء من المصادر انما جمع حملاً على الاسمية ، ولو تاولوا له باختلاف الأنواع • قال ابن الأثير في (النهاية): « التحيات جمع تحية قيل أراد بها السلام• وانما جمع التحية لأن ملوك الأرض يحيُّون بتحيات مختلفة •• فقيل للمسلمين قولوا التحيات لله أي الألفاظ التي تدل على السلام والملك والبقاء هي لله تعالى » • وواضح أن (التحية) التي جمعت قد خرجت عن حدثها بل جنسها فأضحت اسماً من الأسماء •وهكذا (النية) ففي المصباح: « والنية الأمر والوجه الذي تنويه » •

ويدخل فيما تقدم مصدر الوحدة ومصدر الهيئة فانهما يثنيان ويجمعان ، وعلة ذلك على ما انتحيناه أنك اذا قلت (جلت جولة) لم يبق في قولك (جولة) دلالة على جنس الفعل الذي يدل على القليل والكثير ، بحكم قولك (جلت جولات) • وهكذا قولك (مشيت مِشية الفزِّع) فقد خصت (المشية) بنوع من (المشي) فخرجت به عن جنس الفعل ولو دل على حدثه •

ومما صرح الأئمة بامتناع جمعه البتة (المصدر المؤكد) • قال صاحب الهمع (١/ ١٨٦) : « المصدر نوعان مبهم ، وهو ما يساوي معنى عامله من غير زيادة كقمت قياماً

وجلست جلوساً ، وهو لمجرد التاكيد ، ومن ثم لا يثنى ولا يجمع » • فالمصدر في قولك (قمت قياماً وجلست جلوساً) قد ماثل فعله من حيث دلالته على الحدث وجنسه دون تحديد ، فهو باق على مصدريته •

اعمال المصـــدر

شرط اعمال المصدر عمل فعله ، تعدياولزوما ، بقاؤه على مصدريته بدلالته على حدثه وجنسه ، ذلك ليستقيم نيابته عن فعله او حلول الفعل المصحوب بان او ما المصدريتين، محله • مثال ذلك قولك (يعجبني قيامك بمايجب عليك) وقولك (يعجبني أن تقوم بفعل الخير) أو (يعجبني ما تقوم الان بفعل الخير) • فاذا دل على الوحدة لم يعمل • قال الاشموني (٣/١٠٥) : « فالموحد بالتاء أي تاء الوحدة لم يعمل » فاذا قلت (ضربت ضربة الرجل) فالرجل منصوب بالفعل لابضربة ، وكذا قولك (ضربت ضربتين الرجل) فالمصدر المبني للعدد لا يعمل لتحديده ، فاذا كانت التاء في أصل بناء المصدر كالرحمة والرغبة والرهبة عمل المصدر • قال أبو البقاء في الكليات « المصدر المحدد بتاء التأنيث لا يعمل الا في قليل من كلامهم • ولو كان مبنياً على التاء عمل في قوله :

فلولا رجاء النصر منك ورهبة … عقابك قد كانوا لنا بالموارد

فاعمل رهبة لكونه مبنياً على التاء » أي لكون التاء في أصل بناء المصدر •

والمصدر المؤكد لا يعمل ، على ابهامه ودلالته على الحدث وجنسه ، لأنه انما أتى ليؤكد عامله وهو الفعل • فاذا قلت (علمت التلميذ تعليماً المسألة) فالمسألة منصوبة بالفعل لأنه هو العامل في الأصل • فاذا قلت (ضربت فلاناً ضرب زيد أخاه) أي ضرباً مثل ضرب زيد أخاه ، كما جاء في حاشية الصبان على الأشموني (٣/١٠٣) فقد صح عمل المصدر (ضَرْب) المضاف الى زيد رفعاً في فاعله المضاف اليه ونصباً في مفعوله ، لأنه لم يأت مؤكداً لعامله ، وانما أتى مبيناً لنوعه •

☐ اعمال المصدر المجموع :

والأئمة على خلاف في اعمال المصدر المجموع ، فمنهم من حكم بمنعه واختاره أبو حيان • ذلك ان المصدر لا يجمع حتى يكون قد فقد مصدريته فعدم جنسه أو حدثه ومتى افتقد مصدريته امتنع عمله • ومنهم من أجازه واختاره ابن مالك اذ ذهب الى أن المصدر يجمع حيناً فيقصد به مجرد تكرير الفعل ويبقى على حدثه وجنسه فيعمل • قال صاحب الهمع (٢/٩٢) : « وجوّزه قوم ــ أي عمل المصدر ــ في الجمع المكسر واختاره ابن مالك ، قال لأنه وان زالت معه الصيغة الأصلية فالمعنى معها باق ، ويتضاعف بالجمعية لأن جمع الشيء بمنزلة ذكره متكررا بعطف ، وقد سُمع •• قال أبو حيان والمختار المنع وتأويل ما ورد من ذلك على النصب بمضمر •• » • وهكذا أقر ابن مالك جمع المصدر الذي لم يعر من حدثه وجنسه واعماله ، وهو نادر في الاستعمال ، ومما جاء على ذلك قول

كم جرّبوه فما زادت تجاربهم … أبا قدامة الا المجد والفَنَعا

والفنَع زيادة المال ، ومسك ذو فنَع ذكيّ الرائحة . وقد جاء (أبا) منصوبا بتجارب وحاول ابن جني أن يجعله مفعولا ل (زادت) لكنه قال : « والوجه أنه انتصب بتجاربهم لأنها العامل الأقرب » . وقد حكى ذلك السيوطي في (الأشباه والنظائر) فقال: « وقد يجوز أن يكون أبا قدامة منصوبا بزادت ، أي فما زادت أبا قدامة تجاربهم اياه الا المجد . والوجه أن تنصبه بتجاربهم لأنها العامل الأقرب ، ولأنه لو أراد اعمال الأول لكان حريا أن يعمل الثاني أيضا ... » . على أن في اعمال (التجارب) نظرا على كل حال . ذلك أن العرب قد جرت على استعمال (التجربة) اسما . ففي المصباح : « قال الأزهري جربت الشيء تجريبا اختبرته مرة بعد أخرى والاسم التجربة والجمع التجارب» . فالتجربة في الأصل مصدر كالتجريب لكنه قد عُدل به عن مصدريته فأنزل منزلة الأسماء فجمع على (تجارب) ، فقولك (فلان ذو تجربة) كقولك (فلان ذو خبرة) . وفي الأساس « ورجل مجرّب : ذو تجارب » . ولا يمنع هذا من استعمال (التجربة) بمعنى (التجريب) مصدرا على الأصل ، كقولك (ان تجربتك فلانا قد كشفت خصاله) . فالتجربة هنا مصدر باق على مصدريته عامل عمل فعله . ويبقى الاشكال ، على كل حال، في جواز جمعه على هذا الحد . ومما نحن فيه قول الشاعر :

وعدت وكان الخلف منك سجية مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

فقد انتصب فيه (أخاه) بمواعيد ، جمع المصدر . فمواعيد مفعول مطلق لوعد وعرقوب مضاف اليه ، ومحله الرفع بالفاعلية لمواعيد ، وأخاه مفعول مواعيد .

السماع والقياس في مصادر الثلاثي

الأكثرون على أن مصادر الثلاثي موقوفة على السماع . وقد ذهب جماعة الى امتناع القياس فيها ، ولو لم يكن سماع . فقد حكى السيوطي في الهمع : « لا تدرك مصادر الأفعال الثلاثية الا بالسماع ، فلا يقاس على فعل ولو عدم السماع » . وأجاز آخرون القياس حين يفتقد السماع . فقد قال الأشموني في شرحه على الألفية (٣/١٢٢): «والمراد بالقياس هنا أنه اذا ورد شيء ولم يعلم كيف تكلموا بمصدره فانك تقيسه على هذا .. » . على أن من الأئمة من أخذ فيها بالقياس ولو كان ثمة سماع كالفراء والزمخشري . قال الصبان في حاشيته على الأشموني (٣/١٢٢):ومذهب الفراء الى أنه يجوز القياس عليه وان سُمع غيره » . وجاء في (المطلوب شرح المقصود / ١ ـ ٢١ و ٢٢) : « مصادر الثلاثي سماعية عند سيبويه ، وأما الزمخشري فيرى أنها قياسية لكثرتها » . وقال أبو البقاء في الكليات : « القول بأن مصادر الثلاثي غير المزيد لا تنقاس ليس بصحيح ، بل لها مصادر منقاسة ذكرها النحويون » .

أما القياس الذي ذكره النحويون لمصادر الثلاثي فقد أوجزه محمد بن ابي بكر الرازي في خطبة معجمه (مختار الصحاح) فقال : « اعلم أن الأصل والقياس الغالب في أوزان مصادر الأفعال الثلاثية أن فعَلَ متى كان مفتوح العين كان مصدره على وزن فعل

بسكون العين ان كان متعدياً ، وعلى وزن فُعول بضمتين ان كان الفعل لازماً : مثاله من الباب الأول : نصَرَ نصراً ، قعد قعوداً • ومن الباب الثاني : ضرب ضرباً ، جلس جلوساً • ومن الباب الثالث : قطع قطعاً ،خضع خضوعاً • ومتى كان فَعِلَ مكسور العين ويفعل مفتوح العين كان مصدره على وزن فعل بسكون العين أيضاً ، ان كان الفعل متعدياً ، وعلى وزن فعل بفتحتين ، ان كان لازماً • مثاله • فَهِمَ فَهماً ، طَرِبَ طرباً. ومتى كان فعُل مضموم العين كان مصدره على وزن فعالة بالفتح أو فُعولة بالضم أو فِعَل بكسر الفاء وفتح العين ، وفعالة بالفتح هي الغالب • مثاله ظرُف ظرافة ، سهُل سُهولة، عظُمَ عِظَماً ، ، هذا هو القياس في الكل •».

خلاف النقاد في مصادر بعض الأفعال ومعانيها

أنكر كثير من النقاد أن يكون (الصمود) مصدراً لـ (صَمَدَ) لازماً ، وأن يكون (الثبات) معنى لـه • ومن هؤلاء الدكتور مصطفى جواد ، عضو المجمع العلمي العراقي، رحمه الله ، اذ قال في كتابه (المباحث اللغوية في العراق) : « فهذا الصمود الذي استعمل• بمعنى الثبات والمقاومة لا يزال على سوء استعماله ، لأنـه حركة وتقـدم ، لا ثبـات واستقرار • ثم ان العرب لم تعرف الصمود مصدراً ، وانما المصدر الصَمد كالقصد وزناً ومعنى •• فالصمد ان كان قد استعمـل في حروب العرب للقصد والسير الى العدو ،فكيف يستعمـل للثبات والقرار ، هـذا استعمال للكلم في عكس معانيه ، وهـو خطأ محض لا يسوغه مرور الزمان أبداً » • وقد عاد جواد الى بحثه هذا في كتابه (قل ولا تقل) ولم يخرج في الجملة عما ذكره في كتابه الأول•

وتقصّي البحث في هذا الأستاذ محمد العدناني أيضاً وبسط في معجمه (الأخطاء اللغوية الشائعة) رأي جواد، وأكثر من الأدلة واستفرغ ما أتت به المعاجم في (صمد) ومصدره ، وخلص الى مخالفة جواد فأنكر أن يكون معنى (الصمد) مقصوراً على (الحركة) ، والى مشايعته فأنكر أن يكون (الصمود) مصدراً للفعل لانفراد المعجم الوسيط بذكـره ، فما صواب المسألة ؟

الراي عندي أن (الصمد) قد انطوى على معان متجاذبة متداعية • فهو التوجه والطلب ، وهو العزم والتحفز للوثوب ، وقد يخص بالمضي في استقامة واستواء دون ميل، والقرينـة كفيلة بابراز المعنى الغالب الذي أريد بالفعل، والمسرى الذي سلكه فنزع اليه.

□ معنى (صمد) :

ففي المعاجم صمَد كقصَد وزناً ومعنى، تقول صَمَدته كقصدته متعدياً، وصَمدت له واليه كقصدت له واليه لازماً ، فاذا صَمَدت فلاناً فقد يممته وطلبته، واذا صمَدت له واليه فقد توجهت نحوه وتقدمت اليه تبتغيه ، هذا هو الأصل• فاذا كان المصمود أو المصمود اليه (الله تعالى) وهو ذو القوة ومحل الثقة والاعتماد ، وقد طلبه الصامد ليستعين بـه

ويفوض أمره اليه ، فـ (الصمد) هو التوجه والاعتزام • ذلك أن الصامد يتوجه الى الله يبتغيه ويلوذ به ويعتزم تسليم الأمر اليـه • يقول الجوهري في الصحاح : « وصمده يصمده صمداً أي قصده ، والصمَد السيد لأنه يُصمد اليـه في الحوائج » • ويشف (القصد) عما عنيناه بالصمد ، كما ستراه • ويقول ابـن القوطية في كتابه الأفعال : « صمدتُ الى الله صَمداً وصموداً ، وأصمدت ، لجأتُ » • وفي معنى اللجوء توجه الى المصمود اليه ، واعتزام تسليم الأمـر اليـه • ويقول الزمخشري في الأساس : « صمَده قصَده ، وصمَد صمـد هذا الأمر اعتمده ، وسيدٌ صمَد ومصمود ، والله الصمَد ، عن الحسن : أصمدت اليـه الأمور فلا يقضي فيها غيره » • ونحـو ذلك في المصباح والابدال والكليات • فأنت تصمد الى الله بحاجتـك وتعتمده فهو السيـد المصمود المقصود بالحوائج •

واذا قلت (صمدت للعدو) ، وهو ما نحن بسبيل الكشف عن معناه ، فليس (الصمد) فيه التوجه والمضي الى العدو وحسب ، وانما هو اعتزام قتاله والتحفز للوثوب عليه أيضاً • ففي حديث معاذ بن الجموح في قتل أبي جهل ، وقد رواه ابن الأثير في النهاية : « فصمدت له حتى أمكنتني منه غرة » قال ابن الأثير : أي ثبتُّ له وقصدته وانتظرت غفلته » • وفي القصد الذي فُسر به الصمد ما أشرنا اليه من معاني التوجه والطلب ، ومن العزم على القتال • والتهيؤ للوثوب كما سنبسطه لك • وأنت اذا قلت في تفسير (فصمدت لـه حتى أمكنتني منه غرة): مضيت اليه حتى أمكنتني منه غفلة ، ضعف المعنى وتخلف ، واذا قلت في تفسيره : مضيت الى العدو أبتغيـه معتزماً قتاله متحفزاً للوثوب عليـه ، حتى أمكنتني منه غفلة فرميته ، وضح المعنى وحسن ودق . قال الدكتور جواد: « فكيف يثبت له ويقصده بفعل واحد ، وكيف تجمع الحركة والسكون أو الركون والحركة في فعل واحد ؟ » •

أقول ان ابن الأثير قد أضاف (ثَبَتُّ لـه) ليزيد في ايضاح المعنـى • فان نص الحديث « فصمدت له حتى أمكنتني منـه غرة » أي استمر صمدي له حتى كان ذلك • كأن تقول (وطئت الوعثاء حتى ذللت الصعاب) أفكنت تخطىء لو قلت في تفسيره (استمر وطئي للوعثاء حتى ذلّلت الصعاب ؟ فالثبات الذي أضافه ابن الأثير تأكيد لهذا الاستمرار الذي دلت عليه القرينة •

أما قول الدكتور جواد (كيف تجتمع الحركة والسكون) فعجب حقاً ! فمن قال له ان الثبات أو الاستمرار الذي شفّت عنه العبارة هو السكون ؟ وهل يعني قولك (ثبت فلان في الحرب) أو (ثبت فلان قبالة خصمه) أنه سكن وجمـد فلم يتزحزح أو يُبدِ حراكا ؟ فالثبات في هذا الموضع هو ثبـات القلب في القتال ومداومته العزم على المواثبة • أفليست الحرب جولات من كر وفر ؟ فكيف يسكـن الشجاع فيها والجولان حركة مستمرة ، أفيصبح ان يكون ثبات الشجاع سكون جسمه وجمود حركته ، أو ثبوت أصله في الأرض كرسـو السفينة في سيف البحر ؟

والغريب أن الأستاذ عزالدين علم الدين، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ،محقق كتاب الابدال لأبي الطيب اللغوي قد أخذبرأي جواد في المسألة ، وذيّل قول أبي الطيب (صمدت فلاناً أصمده صمداً ٠٠) ، فقال:« ومن أغلاط الكتاب استعمال صمد بمعنى ثبت والصمد حركة والثبات سكون فهماضدان » ٠ أقول : الصمد في المعركة حركة بلا شك والثبات الذي شف عنه تأكيد لاستمرار الصمد ومواصلة النضال ، لا دعوةلسكون الجسم وجمود الحركة ٠

وهكذا القول في حديث علي (رض) :« فصمداً صمداً حتى ينجلي عمود الحق »فان معناه كما يتضح : استمروا في الصمدواثبتوا عليه حتى يتبين عمود الحق ٠ وقد أورد الأستاذ جواد في هذا تفسير الأستاذ ابن أبي الحديد اذ قال : « صمدت لفلان قصدت له » وهو صحيح مستقيم لكنه شرح مقتضب معجمي ونحن نورد فيه شرح الأستاذ محمد محيي الدين عبدالحميد اذ قال : «الصمد القصد ٠وتقول صمده وصمد له وصمد اليه من باب ضرب ونصر ، أي فاثبتوا على قصدكم » ٠ فقول علي (رض) (صمداً صمداً) دعوة الى استمرار الصمد والثبات عليه ، وتفسيره :اثبتوا على الصمد واستمروا فيه حتى ينجلي عمود الحق ويسطع نوره ٠

وقد حكى اللسان والتاج رواية أخرى لتفسير ابن الأثير في حديث معاذ ٠ قال ابن منظور : « أي وثَبت له وقصدته فانتظرت غفلته » بدلا من « أي ثبتّ له » ، أفلا يعني هذا أن في الصمد للعدو معنى الوثوب عليه والتحفز لقتاله٠ وذكر التاج ماذكره اللسان، وقال في موضع آخر « الصماد بالكسر الجلادوالضراب من صامده » ٠ وفي التهذيب للأزهري : « ويقال ناقة مصماد وهي الباقية على القُرّ والجدب الدائمة الرسل ، ونوق مصامد ومصاميد » ٠ أفليس في هذا ما يشير الى أن (الصمد) يعني المجالدة والمصابرة ، فالناقة المصماد هي التي امتحنت بالبرد والجدب فكان بها طاقة بملاقاتهما ، فهي تمضي في اعطاء لبنها ، على ما تلقاه وتعانيه من برد ومحل ويبس ٠ وتقول (الصَّمَد من من الرجال الذي لا يعطش ولا يجوع في الحرب) أي يثبت ويصابر ، وتقول (انه لصماد من الميامين المصاميد) على معنى المجاهدة والمغالبة ٠

ومن معاني (الصمد) الصلابة كما ذكر ابن فارس في المقاييس اذ قال : « الصاد والميم والدال أصلان أحدهما القصد والآخر الصلابة في الشيء » ٠ والذي عناه ابن فارس بالصلابة ، في الأصل ، صلابة المكان ، اذقال:« الاصل الآخر الصمد ، وهو كل مكان صلب»، وفي التاج « الصمد : المكان المرتفع الغليظ من الأرض » ، ولا يبعد هذا من معنى المصامدة التي تعني المجالدة ٠

☐ **مصدر (صمَد) :**

ولكن ما القول في مصدر الفعل أهو الصمد أم الصمود ؟ أقول أنكر الدكتور جواد أن يكون (الصمود) مصدراً للفعل ، بل سخر ممن رأى هذا الرأي٠ والصحيح ان (الصمود)

مصدر للفعل اللازم كالصمد . قال ابن القوطية في كتابه الأفعال ، وهو الامام المحقق : « صمدت الى الله صمداً وصموداً ، واصمدت،لجأت» وأردف « وصمدتالشيءصمد اقصدته» فخص (الصمود) بالفعل اللازم ، وجعل (الصمد) للازم والمتعدّي . والغريب أن جواداً قد جعل (الصمد) هو المصدر دونالصمود ، لأمر يتصل بدلالته ، فذهب الى أن ما كان معناه الحركة دون السكون فمصدره(الفَعْل) بسكون العين . قال جواد : « والظاهر أن هذا الذي ابتدع الصمودحسِبه بمعنى الثبات ،فأطال مصدرهكالجلوس والقعود .. وفي قِصَر مصدر الفعل صمد ،دليل على أنه يعني الحركة لا السكون ، والتقدم لا الوقوف » .

والذي ذكره الأئمة كالرازي أن الأصلفيما جاء على (فعَل) بالفتح من الأفعال أن يكون مصدره (فَعْلاً) بسكون العين اذاكانمتعدياً ، و (فعولا) اذا كان لازماً . وفصّل الامام الرضي فتطرق في شرح الشافية (١٥٣/١) الى دلالة الفعل فقال : « قوله الغالب في فعَل ، بفتح العين ، اللازم ، على فعول،ليس على اطلاقه ، بل اذا لم يكن للمعاني التي نذكرها بعد ، من الأصوات والأدواءوالاضطراب » ، وأردف « ثم نقول : الأغلب الأكثر في غير المعاني المذكورة أن يكونالمتعديعلى فعل بسكون العين ، من أي باب كان ، نحو قتل قتلا وضرب ضرباً وحمد حمداً ،وفعل بفتح العين اللازم على فعول نحو دخل دخولا » . وليس (الصمد) الذي نحن فيسبيله منأفعال الأصواتوالأدواء والاضطراب لينفرد بوزن مصدري خاص ، فالأغلب اذاً أنيكون (الفعول) مصدراً للازم منه و(الفَعْل) مصدراً لمتعدّيه .

وهذه (نهض ودلف ونهد) فهي من افعال (الحركة) على حد تعبير جواد مثل (صمَد) وهي لازمة ، ومصادرها النهوضوالدلوف والنهود وهكذا (ذهب) تقول : ذهب ذهاباً وذهوباً . فقد جاء في النوادر(٢ / ٢٢٦) لأبي مسحل الأعرابي : «ويقال في ثلاثةمن المصادر : ذهب ذهاباً وذهوباًوكسدكساداً وكسوداً وفسد فساداً وفسوداً ، وزاد ابن خالويه : صلح صلاحاً وصلوحاً » فثبت بذلك أن لا صلة بين مصدر الفعل فعلا أو فُعولا ، وبين دلالته على الحركة أو السكون.ولو أتى جواد المسألة منوجهها ومأتاهالاتضح له الأمر واستبصر الطريق .

□ مصدر نضج :

ومما نحن فيه قول الكتاب (النضوج)وهو مستقيم لو صح ما تصوروه من أن فعله (نضَج) بالفتح ، ولم يسمع ، فالذيحكتهالمعاجم (نضِج) بالكسر . فلا سند اذاًلصحة قولهم (النضوج) قياساً ، لأن القياس هو(النضَج) بالتحريك للزوم الفعل . أما المحكيّ من مصادره فهو (النضج) بفتحفسكون وضم فسكون و (النضَج) بفتح النون والضاد . ففي المصباح : « نضج اللحموالفاكهة بالكسر نضجاً بفتحتين ، من باب تعب ، والاسم النضج بالضم ، والفتحلغة ».

وعندي أن (النضج) بالضم هو الاسم، أما (النضج) بالفتح فهو المصدر ،وليس الاسم • وقد رأى سيبويه وابن جني مثل هذا حين اعتدا (الحرد) بفتح فسكون مصدراً لـ (حَرِدَ) بالكسر • ذلك أن الصفة قد أتت على (ناضج) و (نضيج) ، ومجيء ناضج من نضج بالكسر ، كما قيل حارد من حَرِدَ بالكسر ، ومصدره (الحرْد) بفتح فسكون • وقد جاء على التحريك فقيل (الحَرَد) بفتحتين ، كما قيل (النضَج) بفتحتين• وقد نص التهذيب واللسان والتاج على أن (النُضج) بالضم ، هو الاسم •

وقد عرض الأب أنستاس ماري الكرملي لهذا ، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق لشهري آذار ونيسان من عام ١٩٤٥، فقال : « •• ويقال أيضاً النضج بفتح فسكون والنضج بضم فسكون ، وهما اسما مصدر »أقول ان الاسم هو (النُضج) بالضم ، دون (النضج) بالفتح • وقد ذكرنا أن مجيء الصفة على (ناضج) يؤكد اتفاق مصدر لنضج بالكسر على (النضج) بفتح فسكون• وهكذا توائم (ناضج) صفة و (نضج) مصدراً بفتح فسكون ، فاقتضى كل منهما الآخر ، و (فاعل) من (فعل) بالكسر انما هو صفة للمتعدّي في الأصل، كما أن (الفَعل) بفتح فسكون مصدر له ، وكلاهما قياس • وبيان ذلك أن الأصل في (فَعِل)بالكسر اذا كان لازماً الاّ يكون منه (فاعل) ، فاذا سمع منه (فاعل) فقد شبه بالمتعدي وحمل عليه،وكذلك (فعل) بفتح فسكون فالأصل أن يكون مصدراً للمتعدي دون اللازم، فاذا سمع مصدر الفعل لازم فقد حُمل على المتعدي وشُبه به أيضاً ، فمجيء ناضج صفة من نضج اللازم قد وائم مجيء النضج بفتح فسكون مصدراً له واقتضاه • قال ابن سيده في المخصص (١٣/ ١٢٢) : « فأما سيبويه فقال :حَرِد بالكسر حرْداً بسكون الراء ورجل حرِدبفتح فكسر وحارد ، أدخله في باب العمل وقولهم حارد دال على ذلك » وأردف : « يعني أنهم جعلوه بمنزلة المتعدي كحمده بالكسر حمداً بفتح فسكون ، والا كان حكمه حرِد بالكسر حَرَداً بفتحتين، لأنه غير متعد كغضب غضباً• وقوله حارد دليل على ذلك يعني أنه لو كان على باب ما لا يتعدى لكان جَرِداً أو حردان كضجر بفتح فكسر وغضبان » ، وقال أيضاً (١٤/ ١٣٤) : « وقوّى حملهم ذلك على ما يتعدى أنهم قالوا حارد ، وكان القياس في مثله أن يكون حرِدَ حرَداً فهو حردان ، كما قالوا غضب غضباً فهو غضبان ، فأخرجوه من باب غضبان بتخفيف الحرّد وبقولهم حارد • وتخفيف (الحرد) بفتحتين معناه تسكين الراء فيه ، وفي المخصص أيضاً (١٤/ ١٣٤): « ومثل الحارد بسكون الراء قولهم حميت الشمس تحمى حمياً بفتح فسكون ، وهي حامية » • وقد حكاه عن سيبويه بلفظه (الكتاب ٢/ ٢١٦) •

☐ المسّ والمساس :

منع الشيخ ابراهيم اليازجي قول القائل (فعلت كذا لمساس الحاجة) بكسر الميم، وقال : « والصواب لمسّ الحاجة أو لمسيسها »وأردف : « وأما المساس بالكسر فهو مصدر ماسّه على فاعل مثل القتال من قاتل » ،وتابعه كثيرون • قال الأستاذ محمد العدناني في معجمه (الأخطاء الشائعة) : « ويقولون مَساس الحاجة بالفتح والصواب مسّ الحاجة ومسيسها •• » •

ويفهم مما تقدم أن اليازجي قد قصر الصواب في (مس الحاجة) على المسّ والمسيس، ومنع قول القائل (مساس الحاجة)بالكسر،وطابقه العدناني ، وأشار كذلك الى منع (مساس الحاجة) بالفتح .

أقول في الجواب عن ذلك : لا شك أن (المساس) بالكسر هو مصدر (ماسّه) بالتشديد ، تقول (ماسّه مماسّة ومساساً)كقاتله مقاتلة وقتالا ، ولكن (ماسّه)بمعنى (مسّه) ، وعلى ذلك تقول (مساس الحاجة)بالكسر لمسّها ومسيسها . قال الزمخشري في الأساس : « ماسّه مسًّا ومسيساً ، وماسّه مماسّة ومساساً » فقرن هذا الى ذلك ولم يفرّق. وقال صاحب المصباح « وماسّه مماسّة ومِساساً من باب قاتل بمعنى مسّه » .

وجاء في التنزيل : « قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول : لا مِساسَ ــ طه /٩٧ » بكسر الميم وفتح السين . قال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط: « وقرأ الجمهور لامِساسَ بفتح السين والميم المكسورة ، ومِساس مصدرماسّ كقتال من قاتل .. أي لا تمسّني ولا أمسّك » ففسّر (لا مِساسَ) بالقول (لاتمسّني ولا أمسّك) . وقال المرزوقي في شرح الحماسة (١٤١٥) : « مثلي ومثلك من مَساس حاجتي اليك وتناهي رغبتي في وصلك والنيل منك .. » فجاء بما أنكره اليازجي والعدناني وكثيرون ، وتكرر ذلك منه (ص/ ٣٣٠ و ٩٠٧) .

وفي قوله تعالى « لا مِساسَ ــ طه /٩٧» قال الامام البيضاوي في تفسيره : « لا مساس بكسر الميم . وقرىء لا مَساس بفتح الميم كفجار ، وهو علَم للمسّة » فمساس بفتح الميم اسم يدل على ما يدل عليه المصدر ويجري عليه من الأحكام ما يجري على بعض الأعلام من البناء أو المنع من الصرف نحو برّة غير مصروف بمعنى المبرّة وفَجارِ مبنياً على الكسر بمعنى الفجور» . وقال الزمخشري في الأساس : « ويقال لا مِساسَ بكسر الميم ولا مَساس بفتحها » . وفي اللسان : « ولامَساس بفتح الميم أي لا تمسّني » . وفي شرح الحماسة للمرزوقي (٢٣٣) في شرح قول يزيد بن الحكم . :

مَسِسنا من الآباء شيئا وكلّنا   الى حسَب في قومه غير واضع

« وقول مسسنا يجوز أن يكون : أصبنا واختبرنا ، لأن المس باليد قد يقصد به الاختبار . ويجوز أن يكون بمعنى طلبنا . وقد قال بعض الناس في قوله تعالى : لا يمسّه الا المطهّرون ، ان المعنى : لا يطلبه .. فمن الأول قولهم مسّه الكبر ، وأفضى الرجل الى امرأته افضاء : مسيس ، ومن الثاني : مَساس الحاجة . فأما قولهم : به مسّ من جنون فيصحّ أن يكون من الأول ومن الثاني جميعا» فأتى بمَساس بفتح الميم في قوله : (مَساس الحاجة) . وجاء في خطبة شرح الشافية ،قال الامام الرضي: « فان الشراح قد اقتصروا على شرح مقدمة الاعراب ، وهذا مع قرب التصريف من الاعراب ، في مَساس الحاجة اليه » . فأتى بمساس بفتح الميم أيضاً .

المصادر واشتقاق الفعل

الأصل في الافعال أن تنتزع من أسماء الأعيان • قال ابن مالك في التسهيل: «ويطّرد صوغ فعّل من أسماء الأعيان لاصابتها :نحوجلّده ورأسه ، أو انالتها : نحو شحمهولحمه اي أطعمه ذلك ، أو عمل بها : نحو رمّحه وسهّمه اي اصابه بالرمح والسهم » • فقد قال العرب جلّده اذا أصاب جلدهورأسهاذا أصاب رأسه ، وكبده ودمغه وأذنه وأنفه ونابه ومعده ، اذا أصاب ما سُمي بهذهالأحرف من الأعضاء ، ومن ذلك رآه اذا أصاب رئته ، فاشتقوا بذلك من اسم العينالثلاثي • وقالوا حصاه اذا ضربه بالحصى ، ودبّره اذا تلا دبره ، وحنك الدابة اذا جعل الرسن في حنكها ، وأسد الرجل اذا أشبه الأسد ، وتاس الجدي اذا صار كالتيس •

وقالوا عسّله اذا جعل فيه العسل فعلاأو مجازاً • ففي الحديث « اذا أراد الله بعبد خيراً عسّله » ، قال صاحب النهاية «العسلبسكون السين طيب الثناء مأخوذ من العسل بفتحتين » •

ويقال بدر الغلام اذا تم واستدار تشبيهاً بالبدر في تمامه وكماله، كما فيالنهاية وقال الراغب في مفرداته « •• والأقربعنديأن يجعل البدر أصلا في الباب ، ثم تعتبر معانيه التي تظهر منه ، فيقال تارة بدر كذااي طلع طلوع البدر » • وقال الأموي : « سمعتهم يقولون ما أحب أن تشوكك شوكة"وقال الكسائي : ما أحبّ أن تشيكك شوكة ، ، وهما لغتان » • (النوادر لأبي مسحل ــ١١٦/٢) • وتقول عصوته بالعصا وسطته بالسوط وهروته بالهراوة ورمحته بالرمحونبلته بالنبل اذا طعنه ورماه (١٧٢/٢) •

واشتقوا من الثلاثي المزيد بحذف الزائد فقالوا : حنأ لحيته اذا خضبها بالحناء ، لكنهم قالوا حنّأها بالتشديد أيضاً • وقالواأركت الابل تأرك اذا لزمت الأراك ،والأراك شجر من الحمض يُستاك بقضبانه ، والواحدة أراكة •

واشتقوا الثلاثي المزيد من اسم العين الثلاثي فقالوا : تأبّل اذا اتخذ الابل،وتأرض اذا لصق بالأرض وتخشب صار كالخشب ،وهكذا تحجر من الحجر • وقالوا تأسّد واستأسد ، من الأسد ، كما قالوا تليّث اذاأشبه الليث في جرأته واقدامه ، وقالوا تمزّن على قومه اذا تفضّل عليهم من المزن أيالسحاب •

ويقال أرض مخلة فيها خُلّة •• ومُروضة كثيرة الرياض ومُعشبة كثيرة العشب وعاشبة ذات عشب مثل لابن وتامر •• وآهلهالله لهذا الأمر أي جعله له أهلا ، وأهّله •• وفلان يعتصي على عصاه أي يتوكأ ، وقالوا استفيل واستنوق واستتيس واستنسر واستذأب واستجمل، منالفيل والناقةوالتيس والنسر والذئب •

واشتقوا من الرباعي فقالوا ثعلب الرجل اذا راغ ، وطحلب الماء اذا علاه الطحلب

واشتقوا من الرباعي المزيد فقالوا قرطس الرامي اذا أصاب القرطاس أيالغرض•

وقالوا تنكّب القوس اذا ألقاها على منكبه فاشتقوا بذلك من اسم العين المشتق ، ومن هذا القبيل قولهم : تمنطق وتمدرع وتمسلم وتمسكن ..

وكثُرَ (أفعَلَ) في اشتقاقهم من أسماء الأمكنة فقالوا أهضب اذا دخل الهضبة وهكذا أصحر وأسهل وأبحر وأبرّ وأغرب وأعرق وأيمن وأعمن وأحرم اذا دخل الحرم وأساف اذا أتى السيف بالكسر ، وهو ساحل البحر .

وكثر (أفعل) كذلك في اشتقاقهم من أسماء الأزمنة فقالوا أربعَ وأصاف وأخرف وأشتى وأفجر وأظهر وأعصر وآصل ...

واشتقوا من أسماء الأصوات فقالوا من النميق والخرير والصهيل والحسيس والأزيز والصرير والأنين والزئير والفحيح والطنين والهزيم والعواء والنباح والخوار والثغاء . نمق وخرّ وصهل وحسّ وأزّ .... وليست هذه مصادر الأفعال في الأصل وانما هي أسماء للأصوات حاكوا بها أصداء الطبيعة مذ كانت اللغة في طراءة سنها وحداثة نشأتها ، وكان اتصال الانسان بالطبيعة اتصالا لا انفصام له ، تنبثق أداته في التعبير من أصدائها وأحداثها ، يرعى أذنه فيتسقط حركاتها ويذكي الخاطر فيترصد سكناتها .

ولكن اذا صح أن الأفعال في الأصل انما انتزعت من أسماء الأعيان ، وكان الأمر على هذا جارياً ، فما تأويل قول ابن جني في الخصائص (٢/ ٤٣٣) : « اشتقاق العرب من الجواهر قليل جداً ، والأكثر من المصدر » ، وقول السيوطي في المزهر (١/ ٢٠٣ — ط . المكتبة الأزهرية) : « والتاسع كون الأصل جوهراً والآخر عرضاً لا يصلح للمصدرية ، ولا شأنه أن يشتق منه ، فان الرد الى الجوهر حينئذ أولى لأنه الأسبق ، فان كان مصدراً تعيّن الردّ اليه ، لأن اشتقاق العرب من الجوهر قليل جداً والأكثر من المصادر » .

اقول لا شك أنه اذا نظر الى الاشتقاق لفعل بملحظ (نشوئي) فان أسماء المحسوسات كالجواهر او أسماء الاعيان ، هي الأصل في هذا الاشتقاق فهي الأشياء التي تتناولها الحواس قبل أن تنتهي مدلولاتها الى آفاق النفس . لكنك اذا اعتبرت كلام الائمة وجدت انهم قد نحوا في اشتقاق الفعل منحى آخر ، ذلك انهم لحظوا أن المصدر ألصق بالفعل من حيث بناؤه وما يعتري هذا البناء وما يعترضه من الاتباع والابدال والقلب والاعلال ، فقرنوا هذا الى ذاك ، لأن كلاً أشبه بصاحبه من حيث كيانه وما يمكن أن يتعرض له في التصريف . وملحظهم هذا ملحظ (صرفي) لا (نشوئي) .

وقد ذهب الدكتور صبحي الصالح في كتابه (دراسات في فقه اللغة / ١٩٩) الى أن الأئمة قد بنوا مذهبهم في رد الأفعال الى المصادر ، على اعتقاد وجود أسماء المعاني قبل أسماء الأعيان ، وهو محال ، ومن ثم وجب رد الأفعال في نشأتها الى أسماء الأعيان . قال الدكتور الصالح « ان البداهة تقضي بوجود أسماء الأعيان المشاهدة المرئية التي تناولتها الحواس ، قبل أسماء المعاني . لذلك كانت الأعيان ، هي أصل الاشتقاق دون المصادر .. كيف وقد امتلأت معاجمنا وكتبنا اللغوية بما لا يُحصى من الجواهر التي تفرعت عنها الصفات والأحوال والمصادر والأفعال » . أقول لم يسبق الى اعتقاد الأئمة

أن المصادر قد وضعت قبل أسماء الجواهر البتة ، وهذا حالهم حين قالوا الاسم قبل الفعل، فانظر الى ما قاله ابن جني في الخصائص(١/٤٢٩ ـ ٤٣٢ ٠ ط ـ ١٩١٣) :« وانما يعني القوم بقولهم ان الاسم أسبق من الفعل أنه أقوى في النفس ، وأسبق في الاعتقاد من الفعل ، لا في الزمان ٠٠ فأما الزمان فيجوز أن يكونوا عند التواضع قدموا الاسم قبل الفعل ، ويجوز أن يكونوا قدموا الفعل في الوضع قبل الاسم ٠٠ » وأردف « فاذا رأيت بعض الأسماء مشتقاً من الفعل ، فكيف يجوز أن يعتقد سبق الاسم للفعل في الزمان ،وقد رأيت الاسم مشتقاً منه ، ورتبة المشتق منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه » وانتهى من ذلك الى القول « وأيضا فان المصدر مشتق من الجوهر كالنبات من النبت وكالاستحجار من الحجر ، وكلاهما اسم ٠٠ » ٠

وهكذا ذهب ابن جني الى أن المصدر ، وهو الأصل في اشتقاق الفعل عند البصريين قد انتزع من الجوهر ٠ وحين بحث الأئمة أسماء الأعيان وأسماء المعاني أيهما أسبق في النشأة وأوغل في القدم قدروا أن الأعيان في الموازنة هي المتقدمة ، والمعاني هي المتخلفة حقيقة وأصلا ٠ فانظر الى ما ذهب اليه السكاكي في كتابه مفتاح العلوم ، فقد جعل الكلم المستقرأة نوعين : الأول ما « يشهد التأمل بتقدمه في باب الاعتبار والثاني ماجاء بخلاف ذلك » وهو المتخلف ، فسلك في المتقدم (الجوامد) أي الجواهر ، وفي المتخلف (الأفعال وما يتصل بها من الأسماء) أسماء المعاني والصفات ٠ بل أكد أن أكثر ما يتصل بالأفعال من الأسماء هو فرع من الأفعال ،وأردف « الا المصدر عند أصحابنا البصريين ، رحمهم الله/١٤ » فانهم يعتدون الفعل فرعاً عليه ٠ وهو لم يشايعهم فيما انتحوه وقرروه ، بل جاز مجاز الكوفيين في مخالفة البصريين ، وذهب مذهبهم وجرى مجراهم فاعتد المصدر فرعاً على الفعل ٠

لم يكن كلام الأئمة أقل وضوحاً وأدنى دقة وجلاء حين بحثوا الجوهر والعرض فلم تنم عليهم معرفة في ذلك ، أو تستتر حقيقة ٠ فانظر الى ما حكاه السيوطي في (الأشباه والنظائر / ١٦٨) عن (الايضاح في علل النحو للزجاجي) : « قد عرفناك أن الأشياء تستحق المرتبة والتقديم والتأخير على ضروب فنحكم لكل واحد منها بما يستحقه، وان كانت لم توجد الا مجتمعة ٠ ألا ترى أنا نقول ان السواد عرض في الأسود ، والجسم أقدم من العرض بالطبع والاستحقاق ٠ وان العرض قد يجوز أن يتوهم زائلا ، والجسم باق ا فنقول ان الجسم الأسود قبل السواد ، ونحن لم نر الجسم خالياً من السواد الذي هو فيه ، ولا رأينا السواد قط عارياً عن الجسم ، بل لا يجوز رؤيته لأن المرئيات انما هي الأجسام الملونة ، ولا تدرك الألوان خالية من الأجسام ولا الأجسام غير ملونة » ٠

المصدر والفعل

البصريون والكوفيون على خلاف في أصل الاشتقاق ٠ فقد أكد البصريون أن الفعل فرع على المصدر في الاشتقاق ، على أن من هؤلاء من رد الصفات الى المصدر أيضاً ، ومنهم من ردها الى الفعل ٠ وخالفهم الكوفيون فأكدوا أن الفعل هو الأصل والمصدر هو الفرع ٠ قال سيبويه في الكتاب : (١/١) : « وأما الفعل فأمثلته أخذت من لفظ أحداث الأسماء ٠

والأحداث نحو الضرب والقتل والحمد ٠٠ »فجعل أحداث الأسماء وهي المصادر الأصل في الاشتقاق وقال ابن جني في الخصائص (١/١٢٧) : « واذا ثبت أمر المصدر الذي هو الأصل ، لم يتخالج شك في الفعل الذي هو الفرع » فاعتد المصدر هو الأصل والفعل هو الفرع ٠ على أنه رد الصفات الى الفعل فقال (١/٤٣٢) : « ٠٠ قيل يمنع من هذا أشياء ، منها وجودك أسماء مشتقة من الأفعال، نحو قائم من قام ، ومنطلق من انطلق ، ألا تراه يصح لصحته ويعتل لاعتلاله نحو ضرب فهو ضارب وقام فهو قائم وناوم فهو مناوم ٠ ».

ولكن ما حجة البصريين في أصلية المصدر وفرعية الفعل ؟ ٠

الاشتقاق عند البصريين هو اقتطاع فرع من أصل يدور في تصاريفه الأصل ٠ ويراد بالأصل هنا الحروف الموضوعة على المعنى وضعاً أولياً ٠ فالفرع لفظ فيه تلك الحروف مع نوع تغيير ، ينضم اليه معنى زائد على الأصل ٠ فالضرب يدل بلفظه على الحركة المعلومة المسماة بهذا الاسم وحدها فهو الأصل، أما ضرب ويضرب وضارب ومضروب فهو الفرع ، ذلك أن فيه حروف الأصل وهي الضاد والراء والباء ، وزيادات لفظية ،وهو ينطوي بهذه الحروف والزيادات على معنى الأصل وهو الضرب ومعنى آخر ، وهكذا بنى البصريون رأيهم على أن الفرع ما كان فيه معنى الأصل مع زيادة هي غرض الاشتقاق ٠

وقد أيد البصريين فيما ذهبوا اليه ،واقتاس بهم ، وجرى على منهاجهم كثير من الأئمة ، وفي مقدمة هؤلاء أبو البركات ابن الأنباري (ت ٥٥٧٧هـ) في كتابه (الانصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين)وأبو البقاء عبدالله بن الحسن بن عبدالله العكبري (ت ٦١٦ هـ) في كتابه (التبيين في مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين) ولم يبق من هذا الكتاب الا نقول جاءت في بعض كتب الخلف ، ومنها كتاب (الأشباه والنظائر) للسيوطي اذ جاء فيه (١/١٢٨): « قال أبو البقاء في التبيين : الدليل على أن الفعل مشتق من المصدر طرق ، منها : وجود حد الاشتقاق في الفعل ، وذلك أن الفعل يدل على حدث وزمان مخصوص فكان مشتقاً وفرعاً على المصدر ٠٠ وتحقيق هذه الطريقة أن الاشتقاق يراد لتكثير المعاني ، وهذا المعنى لا يتحقق الا في الفرع الذي هو الفعل ،وذلك أن المصدر له معنى واحد ، وهو دلالته على الحدث فقط ، ولا يدل على الزمان بلفظه ، والفعل يدل على الحدث والزمان المخصوص فهو بمنزلة اللفظ المركب فانه يدل على أكثر مما يدل عليه المفرد، ولا تركيب الا بعد الافراد، كما أنه لا دلالة على الحدث والزمان المخصوص الا بعد الدلالة على الحدث وحده ٠٠٠ » وأردف: « وطريقة أخرى وهي أن تقول : الفعل يشتمل لفظه على حروف زائدة على حروف المصدر، تدل تلك الزيادة على معان زائدة على معنى المصدر ، فكان مشتقاً من المصدر ٠٠ ومعلوم أن ما لا زيادة فيه أصل لما فيه الزيادة ٠٠ » ٠

وقال بقول البصريين كثير من المحدثين ومنهم الأستاذ عبدالله أمين ، كما جاء في مجلة مجمع اللغة العربية القاهري (١/٣٨٢) ،وقد استند في ذلك الى أن الأنباري صاحب الانصاف قد ساق في المسألة آراء كل من الجانبين ووازن بينها فلم يدع مقالا لقائل ،وقد خلص الى الأخذ بمقالة البصريين ٠ قال الأستاذ أمين : « المبحث الأول في أن أصل

المشتقات المصدر ، كما قال البصريون ،لا الفعل ، كما قال الكوفيون • واذ كان الامام الجليل كمال الدين أبو البركات ابن الأنباري النحوي ، رضي الله عنه ، قد ساق في المسألة الثامنة والعشرين ، في الصفحة الثانية بعد المائة ، من كتابه المسمى «الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين والكوفيين ، آراء البصريين والكوفيين في أصل المشتقات ووازن بينها ولم يدع فيما جاء به مقالا لقائل ، فانني أكتفي في هذا المبحث بما كتب ونقلت عنه وعولت عليه •• » • ومن هؤلاء الدكتور صبحي الصالح، اذ رأى في ذلك رأي البصريين ونزع منزعهم واستن بسننهم• فقد استشهد بما جاء في (أصول النحو) للاستاذ سعيد الأفغاني • قال الأفغاني :« المصدر يدل على حدث وزمن ، والأسماء المشتقة تدل على حدث وزمن وزيادة ثالثة كالدلالة على الفاعل والمفعول » •

أقول لم يزد الأفغاني على أن جاء بمقالة البصريين القائمة على أن الفرع ما كان فيه الأصل مع زيادة هي غرض الاشتقاق • فالمصدر هو الأصل لأنه يدل على الحدث مطلقاً والفعل هو الفرع ففيه ما في المصدر من الحدث وزيادة هي الدلالة على الزمن المعين • وكذلك الوصف فالوصف فرع على المصدر كالفعل • وقيل بل الوصف منطو على ما في الفعل من حدث وزمن وزيادة هي الدلالة على الموصوف ، فهو فرع على الفعل ، فالفعل فرع وأصل ، وعليه السيرافي وأبو علي الفارسي وابن جني •

وقصارى ما هناك أننا اذا جرينا مجرى البصريين في قضية الاشتقاق من حيث تعريف (الفرع) المشتق منسوباً الى (الأصل) المشتق منه بأنه (مادل على ما دل عليه الأصل وزيادة) انتهينا الى ما انتهوا اليه ، فعلى هذا مدار الكلام ومتصرفه ، ولكن هل ثمة ما يوجب اعتبار هذا التعريف الحقيقي بالضرورة ، والاقتداء به والانتصار له ، أليس هناك موقف فسحة وسعة أخلق بالايثار وأحرى بالاختيار !

قال الأستاذ الشيخ حسين والي عضو المجمع (٢/٢٠٢) : « رجحوا ما رأى أهل البصرة من أن المصدر هو الأصل ، بحجة أن شأن الفرع أن يكون فيه ما في الأصل وزيادة، وهي أقوى ما عندهم من الحجج ، مع أنه لا يقوم برهان يؤيدها ، ولو قام برهان كذلك لأكره عقول أهل الكوفة على قبوله ، حتى يرجعوا عن جعلهم المصدر ، الذي لا يدل الا على الحدث فرعاً من الفعل ، الذي يدل على الحدث والزمان المعين • فان في ذلك زيادة الأصل على الفرع • فالمسألة ظن واجتهاد ،وبعض الظن والاجتهاد أولى من بعض » •

وجاء في شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٢/٢٥١) : « وكونه أي المصدر أصلا في الاشتقاق لهذين أي للفعل والوصف •••هو مذهب البصريين ، وخالف بعضهم فجعل الوصف مشتقاً من الفعل فهو فرع الفرع ،وذهب الكوفيون الى أن الفعل أصل لهما ، وزعم ابن طلحة أن كلا من المصدر والفعل أصل برأسه ، ليس أحدهما مشتقاً من الآخر » ، وأردف : « والصحيح مذهب البصريين لأن شأن الفرع أن يكون فيه ما في الأصل

وزيادة ، والفعل والوصف مع المصدر بهـذه المثابة ، اذ المصدر انما يدل على مجرد الحدث وكل منهما يدل على الحدث وزيادة » ٠

وقد عقب على ذلك الامام الصبان فقال: « قوله لأن من شان الفرع أن يكـون فيـه الأصل وزيادة ٠٠ ما هنا ليس كذلك ، أفاده الدنوشري ٠٠ وقد ناقش قولهم ان من شـان الفرع الزيادة على اصـل بأنـه لا برهـان يقتضي ذلك » ٠

فاذا نحن لم نخلد الى التعريف اللفظي للفرع والأصل ، في مقالة البصريين ، وفزعنا الى تعريف حقيقي يكون للماهية فيه تحقق وثبوت ، كأن تقول « الأصل ما سبق تصوره وقيامه في الذهن » كان التعريف أليق بالواقع اللغوي ٠ واذا كان المدرك الحسي أسبق الى الذهن من المدرك المعنوي ، وأجناس الأعيان أسبق من أجناس المعاني ومنها المصادر ،كان المصدر الدال على العموم والجنس والمطلق متخلفا عما يمكن تصوره من أسماء الأعيان وما انتزع منها من أفعال واشتق من هذه من صفات ، وما صح أنه الأسبق هو الأصل ٠

قال ابن جني في الخصـائص : « ورتبـة المشتق منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه » ٠

وأشار الكوفيون الى نحو من هذا فقالوا ان المصدر لا يتصور معناه ما لم يكن فعل فاعل ، والفعل وضع له ، فعل يفعل ،فينبغي أن يكون الفعل الذي يعرف به المصدر أصلا للمصدر ٠ أما احتجاجهم بأن المصدر يعتـل باعتلال الفعل ، والاعتلال حكم تسبقه علته، فاذا كان الاعتلال في الفعل أولا ، وجب أن يكون أصلا ، وكذا قولهم بأن الفعل يعمل في المصدر كقولك ضربته ضرباً ، والمؤثر أقوى من المؤثر فيه ، والقوة تجعـل القوي أصلاً لغيره ٠٠ أقول احتجاجهم بهذا وذاك احتجاج اعتباري لا يكاد يقف فيه الجدل على وجـه يخلد اليه بيقين ٠

وقد بحث المسألة الدكتور مصطفى جواد عضو المجمع العلمي العراقي ، رحمه الله، في كتابه (دراسات في فلسفة اللغـة والنحو والصرف) فناقش ووازن وكايل وأدلى بحججه وانتهى من بحثه الى الأخذ بمذهب الكوفيين،واستدل على صحة دعواه بثلاثة عشر دليـلا فقال « هذه ثلاثة عشر دليلا تنتقض دعـوى سيبويه أن الفعل صادر عن المصدر ، وهـي أدلة نحن اهتدينا اليها ولم يقف عليها الكوفيون وغيرهم » ٠

أقول اني لأستسرف دعوى جواد هذه ،فاذا كان قد أصاب في ذهابه مذهب الكوفيين وقياسه قياسهم فان جل ما جاء به من الأدلة على سداده واستقامته ، اصطلاحي اعتباري٠ ويكاد يكون أظهر هذه الأدلة أن الفعل تجسيد والمصدر تجريد والمجسد أسبق الى الذهن من المجرد ، وليس هذا جديداً كما أوضحناه ،وكذلك قولـه انك تكتب ثم تسمي فعلـك الكتابة وهو ما صرح به الكوفيون حين ذكروا أن المصدر لا يتصور معناه ما لم يكن فعـل فاعل ٠ فليس صحيحاً أنه قد تفرد بما ساق من الأدلة فأتى مبتكرا ، بما لم تفتح العـين على مثله ، أو نزع مقترحاً ، الى ما لم يسبق اليه سابق أو ينازعه فيه منازع ٠

وتابع السكاكي أبو يعقوب (ت ٦٢٦هـ) في (مفتاح العلوم) الكوفيين فاقتاس بهم

ووطىء مواقع أقدامهم واعتل لأصالة الفعل بأن المصدر يتبع الفعل في اعلاله وتصحيحه، ودليل السكاكي هذا اعتباري اصطلاحي ·

على أن ثمة منحى يوضح الأمر ويجلوه ويكشف عن مكنونه ، ذلك ان اللغات السامية قد اعتدت الفعل أصلا للاشتقاق دون المصدر، كما أوضح ذلك الدكتور اسرائيل ولفنسون في كتابه (تاريخ اللغات السامية /١٤) اذ قال « تتميز اللغات السامية في بعض احوالها عن أنواع اللغات الأخرى بمميزات وخصائص تجعل من كل من هذه اللغات كتلة واحدة · وأهم تلك المميزات تنحصر : ١ ـ في أن هذه اللغات تعتمد على الحروف الصامتة وحدها ولا تلتفت الى الحروف الصوتية كما هي الحال في اللغات الآرية ·· ٢ ـ وأن أغلب الكلمات يرجع في اشتقاقه الى أصل ذي ثلاثة أحرف ·· ٣ ـ واشتقاق الكلمات من أصل هو الفعل ··· » وأردف : « وقد رأى بعض علماء اللغة العربية أن المصدر الاسمي هو الأصل الذي يشتق منه أصل الكلمات والصيغ ، لكن هذا الرأي خطأ في رأينا لأنه يجعل أصل الاشتقاق مخالفاً لأصله في جميع أخواتها السامية » ·

عزا ولفنسون مذهب الأئمة في اعتداد المصدر أصلا في الاشتقاق ، الى مجاراتهم الفرس فقال : « وقد تسرب هذا الرأي الى هؤلاء العلماء من الفرس الذين بحثوا في اللغة العربية بعقليتهم الآرية ، والأصل في الاشتقاق عند الآريين أن يكون من مصدر اسمي · أما في اللغات السامية فالفعل هو كل شيء فمنه تتكون الجملة ، ولم يخضع الفعل للاسم والضمير بل نجد الضمير مسنداً الى الفعل ومرتبطاً به ارتباطاً وثيقاً » ·

وقد عالج الأستاذ الأفغاني هذا الرأي فقال : « ثم ذكر هذا المستشرق اليهودي أن هذه نظريته الخاصة ، اذ لم يشر اليها أحد من علماء الافرنج · ومع رغبته في أن يعم بنظريته هذه اللغة العربية ولغته العبرية ، يجدر بالمتأمل الوقوف وعدم القطع ، ما لم يقم عليه البرهان الساطع، فما أكثر الظواهر التي خالفت فيها العربية أخواتها الساميات»

أقول لا بد للغات عامة أن تتغاير فيعزى ما تقارب منها في أصوله الى فصيلة واحدة، فالذي يقع فيه التغاير بين فصيلة وأخرى انما هو القواعد والأصول الأخرى كالبنية اللغوية والاشتقاق ، دون الأشكال والمفردات· فالذي ذكروه أن العربية خالفت بعض أخواتها في أداة التعريف وعلامة الجمع ،كما أورده الدكتور علي عبدالواحد وافي في كتابه (فقه اللغة) والأستاذ محمد عطية الابراشي في كتابه (الآداب السامية) ، ولكنها لم تخالفها في البنية اللغوية وطريقة الاشتقاق ، كاعتمادها على الحروف الصامتة دون الصوتية ، ورد الكلم الى أصل ثلاثي ، ووحدة الأصل في بنيتها وعدم تعدده كما يتعدد في اللغات الآرية · قال الدكتور علي عبدالواحد وافي في كتابه (علم اللغة /١٣٣) : « وقد اعتمدنا في التفرقة بين هاتين الفصيلتين ـ أي السامية والآرية ـ على أمور تتصل بالقواعد لا بالمفردات ، وذلك لأن ناحية القواعد هي أهم ما تمتاز به الفصائل بعضها عن بعض ،فمنها تتكون شخصية اللغات واليها ترجع مقوماتها، وهي التي تمثل المظهر الثابت المستقر في

اللغات ، فهي لاتكاد تتغير .. فتشابه لغتين في القواعد يدل اذن على انتمائهما الى فصيلة واحدة ، واختلافهما فيها يدل على اختلاف فصيلتيهما .. »

فاذا استقر الأمر على ما بيناه ، صح معه أن مغايرة العربية لأخواتها السامية انما كانت في الأشكال والفروع ، لا في القواعد والأصول ، واعتماد اللغات السامية في اشتقاقها على الفعل ، انما هو من هذه القواعد والأصول .

هذا ما رأينا أن نعرض له من مذاهب النحاة وآرائهم في مصادر الأفعال والكشف عن دلالاتها وطرائق جمعها وصوغها وقياسها واشتقاقها واعمالها ، فيما صدقت نيات الأوائل في تحري صوابه وابتغاء حقائقه بأفصح لسان وأبلغ بيان .

وقد استعنا في البحث بما استقر في هذا الباب من ضوابط وقواعد ، ليقطع في الأمر برأي لا يعوزه تدبر ، ويقين لا خفاء به ولا ارتياب ، هذا وجه مطلبه والوقوع عليه .

ونحن نعتذر مما بسطنا القول فيه ليقف القارىء في كل مسألة على ما استبهم من وجوهها واستغلق من أحنائها ، فتخف الكلفة عليه في تحصيلها ، ويكون على ثقة من اصابة الرأي فيما تشعبت مذاهب القول في قبوله ورده ، واشتدت الحاجة اليه في التعبير والاصطلاح ومست في تحقيق المعاني وضبط دقائقها .

ولا بد في مسالك البحث هذه من انعام الفكر وانعام الروية ليخلص الرأي من كل شائبة ويصفو من كدر أو معابة ، فليس القائل بعلمه واجتهاده كالقائل بظنه وتقليده لا يخالف في رأي أو ينازع في حكم وأرجو أن أكون قد ادركت من بحثي ما أردت فلم أخطىء القصد .

* * *

الساحل السوري بين البرّ والبحر
أو
من الأسطورة إلى التاريخ

د. محمد حرب فرزات

١ ـ مبدأ أساطير الاولين :

تروي أسطورة اجاريتية(١) ان الرب (بعل) إله الأرض والبر توجه الى (إل) رأس مجمع الأرباب ليحاول أن يثنيه عن عزمه على الموافقة على بناء (بيت) قصر يكرس ملكية (يم) ، إله البحر • وربما كان (إثتار) هو الذي توجه الى (إل) ليعلن استنكاره الموافقة على بناء هذا القصر • وكان إل قد أعلن ارادته ودعا (كوثر) الى القدوم اليه وكلفه بناء قصر ليم •

نقلت الأسطورة الأجاريتية تطورات هذه المرحلة الحرجة من مراحل النزاع على السيادة في أجاريت بين قوتي البر = بعل ، والبحر = يم • وفيما يلي نقدم ترجمة لبعض مقاطع هذه الأسطورة :

بعل والبحر ١
يمضي بعل (أو إثتار) الى إل ،
الى منبع الأنهار ،
الى وسط مجرى المحيط ،
بلغ أجنحة إل ،
ونفذ الى المقر الملكي لأبي السنين ، (القديم)
على أقدام إل انحنى وخرّ ساجداً ••

* * *

ومضى كوثر ـ حسيس ليبني مقراً ليم ،
لينشيء قصراً للقاضي نَهَر ،
وكوثر حسيس يبني مقراً للأمير يم ،
يبني قصراً للقاضي نَهر ،

* * *

لم يرد ذكر يم في أي نص آخر من نصوص اجاريت • ورغم الاختلاف بين الباحثين في تفسير معنى الاسم ، فالارجح أن المعنى يرتبط بما ورد في اللغات القديمة (السامية) حول معنى الكلمة فمعنى اليم = البحر في العربية هو نفسه في الكنعانية ، وفي المصرية ترد كلمة يم بمعنى البحر أيضاً•

ويُدعى الرب الأجاريتي يم في الأسطورة باسم (شوتط نَهَر) أي القاضي النهر ، وهو الماء المحيط • اما في الاكدية فاننا نجد كلمة

تـمتو ، وتيـمت هي الميـاه المالحة ، ميـاه البحـر] .

وتتابـع الأسطورة :

بعـل والبحـر ٢
بعـل شديد القـدرة يخاطب يـم :
لتُطرد من عرشك الملكي، من مقر سلطانك ،
[الا ان يم يتجاهل (بعل)ويمضي الى هدفه ،
ويرسل يم سفارة الى مجمع الأرباب ويأمر أعضاءها أن ينقلوا الى إل رسالته] :
« امضـوا ولا تتباطـأوا ،
الى المجلس المجتمـع توجهـوا ، الى وسط جبـل لولي (الجبـل الاقـرع)
لا تخـرّوا على أقـدام إل !
ولا تسجدوا أمام مجمع الأرباب !
انقلوا الى إل والى مجمع الأرباب رسالتي :
مـن سيدك القاضي نَهَـر :
سلّم يا إل مـن تحميـه !
سلّم مـن ينتظره المـلأ ،
سلّم (بعـل) وأتبـاعـه !
ابـن دجـن الذي استوليت على ذهبـه ! »

[ثم عرض مبعوثو يـم على مجمـع الارباب مطالب يـم] :

« مضى مبعوثو يـم دون ابطاء ،
توجهوا الى وسط جبـل لولي ،
الى المجلس الملتئـم .
كانالأبناء المقدسونجالسين الىمائدة الطعام،
بعـل يقف بمواجهـة إل .
ما أن تنبـه الأرباب الى قدوم مبعوثي يم ،
سفارة القاضي نَهَـر ،
حتى تركوا رؤوسهم تنحني على ركبهـم ،
وعلى عروشهم الاميريـة .
ونهض بعـل يحثهـم قائـلاً :

لماذا ، أيها الأرباب تركتم رؤوسكم تنخفض حتى ركبـكم ؟

وعلى عروشكم الأميرية ؟».
كـان على أحـد الأرباب أن يرد على الواح (رسالة) مبعوثي يـم ،
على رسـالة القاضي نَهَـر .

قـال :

« ارفعوا أيها الارباب رؤوسكم فوق ركبكم ،
فوق عروشكم الأميرية ،
وأنا سأرد على مبعوثي يـم ،
على سفارة القاضي نَهَـر .

وبعـد أن تقـدم موفدو يـم بمطالب سيدهم بتسليم بعـل ، رفض بعل الرضوخ ، رغـم رضوخ إل وتنـازله ،

[وتكلم إل مستجيبـاً للمطالب التي حملهـا مبعوثو يـم قائلاً] :

« سيكون بعـل عبـداً لـكم !
ابن دجـن سيكون أسيركم !

سيحمل بنفسه اليكم الجزية كما يحملها سائر الاربـاب .
سيحمل اليكم الهـدايا كالأبنـاء المقدسين .
لكـن (بعـل) يثـور غاضبـاً ،
يحمـل سلاحه القاتل بيـد ،
وسلاحـه المدمّر بيـده اليمنى ،
ليقتـل المبعوثـين .
ولكـن عنـات تمسكه بيـدها اليمنى ،
وعشتارت تمسكه بيـدها اليسرى قائلتـين :
« كيف تجرؤ على ضرب مبعوثي يـم ؟
سـفارة القاضي نَهَـر » .

* * *

[ثم في الجزء الثالث من الأسطورة يظهر بعـل أسيراً وهو يفكر بالانتقام ، ويتقـدم كوثر ـ حسيس الحكيم الذي يحتل في مجمـع أرباب اجاريت مكانة تعادل مكانة هيفا يستوس

في الميثولوجية الافريقية ، بوصفه إله الفنون والصناعة والخير .. يشجع كوثر ـ حسيس (بعل) على الثأر ويقدم له السلاح قائلاً] : وكوثر ـ حسيس يجيب :

« أقول لك أيا الأمير بعل ، أيها الفارس فوق السحب ،

هوذا عـدوك يا بعـل ،
هوذا عـدوك فاضـربـه !
هوذا خصـمك فاذبحـه !
ستسترد ملكـوتك الخـالد !
سـيادتـك الدائمـة » .

واخـيراً ينجح كوثر في صنـع السلاح الذي يقـدمـه الى بعـل ،
لـكي يحـارب بـه يـم ،

ليطـرد يـم عـن عرشـه !

وليسقط نَهَـر عـن كرسيه !

[ويأمر كوثر السلاح الجديد أن يكـون فعالاً بين يدي بعـل ، وهنا تصف القصيدة الأجاريتية هذه المعركة الحاسمة بين الخصمين قبـل إلياذة هوميروس بهـذه الكلمـات] :

« لتنطلق مـن يـدي بعـل !
كالعصفور المنفلت من بين أصابعه .
أضرب الأمير يـم على رأسه !
أضرب الأمير يـم على جبهتـه ،
ينهـار يـم ،
يسقط على الأرض ،
تضعف مفاصلـه ،
وتتغيـر صـورة وجهـه ،

ويجرد بعل خصمه الصريع ويقطع أوصاله ،
هكـذا يجهز بعـل على القاضي نَهَـر » .

[بعد هذا الانتصار الحاسم تعلن ملكية بعـل وتنـادي عشتارت (بعـل) باسمه] :

اجعله بددا يا بعـل القـوي ،
اجعله بددا يافارس السحب!، الأمير يم أسيرنا!
مات يـم وعاش بعـل ،

أقـول حقـا » !

هـذه مقاطع مـن بعض ما رواه كتّاب اجاريت قبل حوالي أربعة وثلاثين قرناً ، مما كان عندهم من الحق وهو عندنا في أيامنا من الأساطير . فما الحق ؟ وأين الحقيقة ؟ انهـا حقيقتهم الصارخة ، فأين منها حقيقتنا نحن ؟ الحقيقة التي ينبغي أن نتوصل اليها بالبحث الدقيق والتحقيق العلمي المسجل المكتوب ؟. كيف يمكن أن نعرف ماذا حدث بالفعل ومتى وأين ؟ في أية ظروف وفي أية مرحلة من تاريخ اجاريت ؟ كيف يمكـن أن نستقرىء هـذه القصيـدة الميثولوجيـة ، وكيف يمكـن لنـا الاهتداء الى معناها الحقيقي بين التفسيرات العـديـدة المطروحـة على بسـاط البحث والدراسة ؟ هذه سلسلة من التساؤلات التي يمكـن أن تجـر الى سلسلة مـن التساؤلات الأخـرى ...

هل كان (يم) رمزاً لقوة معتدية خارجية بحـرية واجهت مقاومـة (بعـل) ، ودفاعـه الباسل عـن البر ، عـن الأرض حتى استرد ملكوته بعد فترة عصيبة مرت بهـا البلاد ؟.

أم هل نجـد في انتصار بعـل على يـم طقساً سحرياً معبراً عن الدعاء بانتصار الملاحين الجسورين في مغامراتهـم البحـرية ، وهـم يقتحمون عُباب البحر المتوسط ، البحر الكبير، عندما كانوا من أوائل من مخر لججه وطوّع أمواجـه ؟.

هذا مثال على ما خلفته الأجيال الماضية البعيدة مـن آثار مكتوبة هي بعض أساطيـر الأولـين . فكيف السبيل الى الانتقال مـن الأسطورة الى التاريخ ؟

٢ ـ رصد الماضي واعادة تكوينه :

بعد أن اتسع نطاق التنقيبات الأثرية في سورية وبخاصة في العقود الأخيرة من السنين، بات من الضروري محاولة البحث عن محصلة جديدة للمعلومات التي يمكن استخلاصها من نتائج حملات التنقيب التي تقوم بها كل عام البعثات الأجنبية والوطنية في عدد كبير من المراكز التاريخية والمواقع الأثرية في البلاد ، ومن الدراسات اللغوية للوثائق والنصوص المكتشفة منذ أكثر من نصف قرن وحتى اليوم·

انه لا تاريخ بلا وثائق ، والتاريخ يبنى على الوثيقة؛ فلا يمكن البحث في تاريخ سورية ولا تفسير هذا التاريخ دون اتباع المنهج العلمي أي بالرجوع الى المصادر والوثائق الغزيرة المحلية والخارجية المتصلة بتاريخ المنطقة وبالمرحلة الزمنية المعنية منه ·

وان الكشوف الاثرية الضخمة التي تمت على أرض سورية خلال خمسين السنة الماضية لم تؤد الى تغيير الفكرة التقليدية عن دور سورية في التاريخ بوصفها التقليدي ، أي بكونها جسراً بين مهود الحضارات الرئيسية في بلاد المشرق القديم وحسب ، جزيرة الرافدين ووادي النيل والأناضول ، وواجهة آسية على أوربة عبر المتوسط وجزيرتي قبرص وكريت وغيرهما ··· بل ان هذه الكشوف ، وضحت للباحثين المختصين حجم هذا الدور الهام في تلاقي الحضارات وحوارها وتفاعلها وتطورها ··· وغدت سورية بين أقطار المشرق العربي موطناً لأقدم مراكز الاستيطان والاستقرار الحضري منذ العصر الحجري القديم وفي العصور التالية (النهر الكبير الشمالي)، وأرضاً لاتصال جهود المجتمعات الانسانية وتجاربها في سبيل التقدم التقني المادي والفكري ، في كل ما يتصل بفعاليات مجتمعاتها اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً· ولذا فان سورية القديمة تحتل من هذا المنظور في تاريخ الحضارة العام مكاناً يتجاوز حدود منطقة الشرق القديم ليصبح حلقة أساسية في تاريخ الانسانية كلها· ولذا فانه ليس من المستغرب أن يعنى بتاريخ سورية القديم في كل بلاد الشرق والغرب ، كما يعنى بدراسة تاريخ اليونان والرومان وحضارتهم ·

منذ أكثر من قرن خرجت الى النور وثائق فنية وأثرية وشواهد مادية ومكتوبة عن حياة تلك الأجيال القديمة من سكان هذه البلاد · وقد قام في بلاد الغرب عدد كبير من العلماء والباحثين في ميادين الآثار واللغات والآداب والقانون والتاريخ بتطبيق مناهج البحث المتطورة الخاصة بكل علم من العلوم : شاهدوا ولاحظوا ووصفوا ونظموا وصنفوا وفكروا وفسروا وقدموا تقارير عن جهودهم ومحصلات لأعمالهم العلمية · وقد قلبت هذه الدراسات والبحوث الصورة المتداولة عن تاريخ المنطقة من قبل · وملئت ثغرات وفجوات كبيرة · الا أن ما تم انجازه حتى اليوم ما يزال قليلاً ، وانه من العبث التصور أن كل شيء أضحى واضحاً الآن ، وانه من الممكن اعادة صياغة الماضي كله بالاستناد الى ما تم كشفه أو العثور عليه ···

فالماضي، التاريخ، عميق ، عريق تتعمق بداياته بالكشوف والبحوث كل يوم وتتباعد حدوده وتتسع ميادينه دون أن يكون باستطاعة الباحثين المختصين في المؤسسات العلمية ومراكز البحوث الجامعية في داخل البلاد وخارجها الاحاطة بكل شيء ·· لأن الاقدمين الذين نبحث عنهم ونريد أن نتعرفهم ونتصل بهم لم يتركوا لنا كل شيء ، تركوا الكثير الجليل، ولكن هذا الذي تركوه وما وصل الينا منه حتى اليوم لا يعدو أن يكون كحجارة مبعثرة ملونة وجميلة من آثار لوحة عظيمة رائعة من

الفسيفساء تبدو ملامح منها في بعض زواياها وجوانبها • ان اعادة تكوينها ورصفها واخراجها من جديد الى الوجود تحتاج الى عبقرية العديد من الدارسين والباحثين التقنيين القديرين الصناع •

ان عملية التاريخ ليست هواية وليست أدباً وحسب ، انها علم وصنعة ، صنعة لها فنونها كما أراد ابن خلدون أن يقول ، وهو لو كان في عصرنا هذا لقال بطريقة تعبيرنا : أن التاريخ علم بل جملة من العلوم ، له مناهجه وطرائقه المميزة ، وبكلمة قديمة حديثة له تقنياته التي يتحدد دورها العلمي في تصنيف كل ما خلفه الماضي من بقايا مادية وآثار مكتوبة وتحليل هذه الآثار للنفاذ الى الشواهد أي الى الوثائق ، لكي يكتشف فيها، ومن خلالها وحسب ، الزمن الذي انحدرت منه وكيف وصلت الينا •• وبعد هذا التحليل الدقيق الطويل للشواهد واستنطاقها ليفهم منها ، يمكن حينئذ استخلاص النتائج في ضوء المعطيات ، وهي الحقائق المتوفرة في حينه ، عندها ، وعندها وحسب يمكن صياغة محصلة البحث ، دون أن يغيب عن المؤرخ الحصيف دائماً عنصر الزمن •• اننا نقترب من الماضي لكي نفهمه ، وننأى بذاتيتنا عنه لكي نصوغه في حدود الموضوعية التي لا يقوم تاريخ بدونها •

بهذه الطريقة يمكن أن نعرف أكثر عن حياة أولئك الناس ، عن أشخاصهم ومشكلاتهم الصغيرة والكبيرة وأفكارهم وطرائق تفكيرهم ونظراتهم الى الحياة فنعرف عندئذ صلة الأجيال بالاجيال لنحمل بجدارة ووعي عبء حفظ التراث القديم ومسؤولية حمايته ونقله ونشره •

هذا هو ميدان هذا التاريخ الذي نود التحدث عنه ، وهكذا ينبغي أن يكون ، فمن يكتب التاريخ ، والتاريخ شهادة رصيدها الصدق ، دون أن يمتلك أدوات الصنعة ومتطلبات الطريقة قد يرتكب ودون أن يدري من الأخطاء الفادحة ما لا يمكن التعويض عنه أو تصحيحه ، شأنه في عمله وفي رسالته كشأن القاضي أمام الحق ، والطبيب أمام قضية الحياة والموت ، وكالمهندس أمام ضميره ، والصيدلاني امام ميزانه الدقيق •

وبدون وضع هذه الاعتبارات كلها في الحسبان سنجد تاريخنا بعد صياغته في قوالب الغرباء من بعض المستشرقين ووفق نظراتهم ومتطلبات ثقافاتهم هم ، وقد أعيدت كتابته مرة أخرى بلغة أقرب الى لغة الأساطير منها الى لغة العلم وقواعده المعروفة •

٣ ـ مشكلات منهجية :

لنر الآن الى بعض المشكلات المنهجية التي أساءت الى البحث في تاريخ بلادنا ، والمنطقة الساحلية هي جزء منها بطبيعة الحال ولا يمكن البحث في تاريخها دون الغوض في تاريخ البلاد كلها •

لقد درس تاريخ المنطقة على أيدي المستشرقين في الغرب كما هو معروف وأدى بعض هذه الدراسات على أيدي بعضهم الى نتائج مدهشة ورائعة ، وهذه حقيقة يجب أن تذكر جهاراً • ولكن البعض الآخر من هذه الدراسات أضاف الى مهمة البحث في تاريخنا مشكلات جديدة لا بد من أخذها بالحسبان ، أهمها ما يتعلق بمصادر هذه الدراسات وتوجهاتها •

١ ـ يربط معظم الباحثين الغربيين دراسة تاريخ بلادنا بالمصادر التوراتية •

٢ ـ أدى استخدام بعض المصادر الاغريقية ـ الرومانية غير الموثوقة في تأريخ

بلادنا الى مقارنات تعسفية عند تفسير الوثائق والنصوص القديمـة ٠

وتتمثل المسالة الاولى في ثقل الدراسات التوراتية التي تشكل عبئاً مبالغاً فيـه على توجه الدراسات المتعلقة بتاريخ سورية كلها وبخاصة المنطقة الغربية الساحلية في الشمال وفي فلسطين ٠ وقـد نشأت هـذه الدراسات وتطورت في اطار المؤسسات الدينية التوراتية واللغويـة العبرية في الغـرب ٠ فمعظم الذين بدأوا بهذه الدراسات هم بالأساس توراتيون لاهوتيون يعتبرون هذه الدراسات التاريخية مساعدة للدراسات التوراتية موضوع بحوثهم واهتمامهم ٠ هذه هي ثقافتهم ، وهـذا هو موضوع دراستهم ، هم يبحثـون في موضوع يهمهم هم في اطار البحث في تاريخهم وفي تاريخ الحضارات المتصلة بـه ، وليس ما يكتبونه تاريخاً لنـا فليس منوطاً بالغرباء كتابة هذا التاريخ ٠ هذه هي الاشكالية الكبيرة في موقف بعض البـاحثـين العرب مـن أعمـال بعض المستشرقين المهتمين بتاريخ سورية وحضارتها ٠

لقد أوجـد أولبرايت مثلاً ، مدرسـة لدراسة تاريخ الشرق القديم من وجهة نظر توراتية دينية ٠ فالاديان القديمة في هـذه المدرسة تدرس بالمقارنة مع التوحيد اليهودي ، ولتفسير الظروف التاريخية التي ظهر فيها ٠ حتى الأساطير تدرس من هـذا المنظور ، كما نجـد في أعمـال كـروس Cross ، تلميـذ أولبرايت الذي درس الأسـاطـير الكنعانيـة بالمقارنة مع الملاحم العبرية(٢) ٠

ومن الامثلة الصارخة على هذا الربط واحد من أهم المراجع المعتمدة في تاريخ الشرق القديم هو مؤلف بريتشارد الذي ضم دراسات لمنتخبات هامة من النصوص والشواهد التاريخية قدمت في اطـار دراسة العهـد القديم(٣) ٠

وعلى هـذا النهج نجـد أعمال أيسفلد ويبركو ودوفو ونوت ٠ انه لمن المؤسف حقـاً أن هذه الدراسات لم تهتم بدراسة الحضارات بحـد ذاتهـا ، وانما شغلت بشرح وتفسير موضوعات تهم الباحثـين في التـوراة بكونه الموضوع المركزي ٠ فقد ادى هذا التوجه في البحث الى طبـع الدراسات المتعلقـة بتاريخ سورية وفلسطين بهـذا الطابـع المقصـود ، ووظفت نتائجـه فيما بعـد لتحقيـق مآرب الصهيونية السياسية ٠

الا أن باحثين آخرين مرموقـين يقفون اليوم مواقف علمية مغايرة ومنصفة ويعملون باصـرار على بلورة تصور جديـد للبحث في تاريخ سورية وفلسطين وحضارة هذه البلاد في كل وجوههـا :

قال الأستاذ أ. كاكـو في محاضـرتـه الافتتاحية في الكوليج دو فرانس في الخامس من كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٢ : « التوراة ينبغي الا تبهرنا وتصدنا عن مهمتنا ، انهـا ليست الا أدب شعب واحد من شعوب المنطقة ، نجده بفضل هـذا الأدب ممروناً بشكل أقـل سوءاً وتشويهاً مـن آداب جيرانه ، وبالتالي فهـذا لا يعطي أحـداً أي حق يسوّغ الادعاء بالتفوق أو التفضيل ٠ جميع هذه الشعوب ، هي على قدم المساواة أمام البحث العلمي ٠٠

ويتابع الأستاذ كاكو :

« ان الساميين ، (يعني سكان سورية) ، من عصر البرونز الذين تركوا لنـا نصوص رأس شمرة/اجاريت ليسوا في نظرنا أسلاف بني اسرائيل ! ان تاريخهم ، تاريخ ثقافتهم ينبغي أن يدرس وينظر اليه بحد ذاته لا بما يمكن أن يقدمه لفهم التوراة ٠

ان فضل هذه الشعوب علينا كبير ، ندين لهم بالأبجدية ، وقـد كان اشعاعهم عظيماً ،

على الرغم من أنه لم يصل الينا منه الا قبس ضئيل . لقد حمل الفينيقيون حضارتهم الى اسبانية ، أما الآرامية فقد فرضت نفسها في الشرق لغة امبراطورية ، (الامبراطورية الفارسية) ، في الوقت الذي بقيت فيه العبرية لغة كانتون صغير »(٤) .

ويقول الاستاذ جان بوتيرو ، استاذ الآشوريات والأدب البابلي في باريس بلا لبس ولا جمجمة عند حديثه عن تاريخ فلسطين في الألف الاول ق.م : « ان الاسرائيليين ، ويعني بهم أسباط بني اسرائيل التي استقرت في أرض كنعان ، حلوا محل الكنعانيين في اطار الحياة الذي لم يتغير عند هؤلاء في ميادين التقدم المادي والفكري . لقد تلقوا من الكنعانيين كل شيء وتعلموا منهم كل شيء حتى لغتهم .. »(٥) .

أمام هذه المعطيات المسلّم بها ، يقرر بوتيرو هذه الحقيقة : « في ٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٧٢ فقدت التوراة الى الأبد ميزتها الخالدة بكونها أقدم كتاب معروف ، كتاباً لا غيره من الكتب . في ذلك اليوم وقف جورج سميث ، وهو واحد من أوائل علماء المسماريات ليعلن أمام جمعية الآثار التوراتية في لندن، بعد خمسين سنة من البحث والدراسة لقراء النصوص المسمارية أنه وجد في نصوص منقوشة بالمسمارية نصاً لقصة الطوفان قريباً جداً حتى في التفاصيل من النص التوراتي ، وهو أسبق منه ، وأثر فيه .. » .

والنص المعني هو اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش ويعود هذا النص الى أواخر الألف الثاني ، وهو منسوخ عن نص أقدم يعود الى ما يعرف بقصة الحكيم أتراحسيس التي قد تعود الى القرن السابع عشر ق.م » .

لقد أخذت التوجهات العلمية الموضوعية تفرض نفسها في العقود الأخيرة في الأوساط العلمية الغربية المعنية بدراسة آثار المنطقة وتاريخها ، فبعد توجهات پارو الدينية في ماري ، يهتم الجيل الجديد من الباحثين الأوربيين وفي طليعته مار جرون ودوران وشاربان بالآثار المادية واللغويات للكشف عن الحقائق ولجمع المعطيات من النصوص لتقديم المادة العلمية المجردة بموضوعية دون التقيد بافكار مرسومة ومسبقة ويماثل هذا الموقف موقف الباحثين من المدرسة الايطالية وفي طليعتهم ماريو ليفراني وأركي بعد التوجه المتسرع والتقليدي لقارىء نصوص إبلا الاول جيوفاني بتناتو .

ألا نرى ، اذن ، أن القافلة قد أخذت تعود الى طريقها الصحيح ، وأن من العبث الخوض في جدال حول الاستشراق ومواقف المستشرقين من التاريخ العربي القديم ، بعد أن اغلقت أبوابه في العديد من الأوساط العلمية منذ سنين .

أما **المسألة الثانية** ، فتدور حول ربط دراسة تاريخ الشرق القديم عامة بالدراسات الكلاسيكية . ويؤكد ليو أوبنهايم أن حضارة بلاد الرافدين درست لتخدم موضوعات تخص الحضارة الغربية من خلال النظرة الى التاريخ القديم الكلاسيكي ، مثل: الطبيعة ، النبات ، الفكر قبل المنطقي ، القرابة ، العائلة ، التابو(٦) ..

لقد أدى استخدام مصادر الاغريقية لاتينية لدراسة الفينيقيين (الكنعانيين) والبونيين (القرطاجيين) وتأريخ طرق معاشهم وحياتهم وتفكيرهم الى تشويه الحقائق وتحريفها ، لان هذا التاريخ كتب على الأغلب بأيدي مؤلفين نظروا اليه آنذاك ، على أنه تاريخ برابرة ، حسب المفهوم الكلاسيكي ، اعتبروا

بأنظارهم أعداء، وأحياناً أعداء خطرين ينبغي تجاههم الحذر ومجابهتهم .

وتعتبر مشكلة مطابقة أسماء الأرباب في اللغات المشرقية القديمة مع الارباب في البانتيون الاغريقي والروماني ، نتيجة لموقف يمثل رفض المؤلفين الكلاسيكيين الاعتراف للحضارة المشرقية القديمة بالأصالة والخصوصية .

ولكن اكتشاف نصوص اجاريت فرض واقعاً جديداً في ميدان البحث العلمي . وقبل اجاريت ثم إبلا كان من الصعب التعرف على خصوصية تاريخ هذه المنطقة القديم وثقافتها وميثولوجيتها .

فأجاريت هي الشاهد الامين الصادق ، الذي اعلن كما رأينا في أسطورة بعل و يم أنه يقول الحق ؛ يعلن هزيمة العدو المتدخل القادم من البحر وانتصار بعل بن دجن رمز أرض البلاد وسمائها .

ولكن لكي نسجل شهادة هذا الشاهد الصادق أليس علينا أن نفهمه ؟ أن نفهم ما أراد أن يقول ، لا أن نحمّل أقواله ما نريد نحن أن نقول . كما أنه لا يجوز أن نحمّل الوثائق التوراتية فوق مضمونها . « فعند دراسة الميثولوجية وتاريخ الاديان عدا الديانة الاسرائيلية ـ اليهودية لا يمكن ، كما يقول الأستاذ موريس سنيسر ، اعتبار النصوص التوراتية الا كالنصوص الخارجية وليس أكثر من ذلك ! » .

فالنصوص ـ الوثائق هي الأساس ، وهنا تكون النصوص الأجاريتية هي الأساس في أي بحث علمي في تاريخ الساحل السوري . فأمام هذه الشواهد البيّنة ألا يتضح لنا أن الواجب الملقى على عاتق دارسي تاريخ هذه المنطقة وحضارتها هو الابتعاد عن التركيز التوراتي، والتوجه الى دراسة حضارة المنطقة لذاتها ونشر نصوصها ووثائقها ولغاتها وكشف مفاصل الاتصال فيما بينها وبين تاريخ الوطن في عصوره المتعاقبة ؟ فمند ابراز وجه التاريخ الحق يتصاغر أمامه كل باطل .

فلننظر الآن في أثر الأرض والموقع على تاريخ الساحل السوري :

٤ ـ الموقع والتاريخ :

يشكل الساحل السوري جبهة عريضة للمشرق العربي على البحر المتوسط ، وانه على الرغم من الحواجز الجبلية التي قد يخيل لأول وهلة أنها تحجز بين الداخل والساحل فان الطرق الطبيعية التي تخترق سلسلة الجبال الممتدة من الشمال الى الجنوب بموازاة الشريط الساحلي كانت خلال مراحل التاريخ تصل ما بين مناطق الحضارة والانتاج في اقطار جنوب غربي آسية والمشرق القديم بخاصة من جهة وبين أقطار حوض البحر المتوسط وحضاراته من جهة أخرى ، ليغدو الشريط الساحلي العربي السوري على هذا الشكل محل تجاذب متناوب ومتبادل ما بين البر والبحر .

اننا نستطيع ملاحظة هذين العاملين في دراسة حركات الشعوب وتوجهها نحو الساحل، سواء عن طريق القوافل السلمية: الكنعانيون والأموريون ، أو عن طريق الجيوش المحاربة: الأكديون والآشوريون من الشرق، والحوريون والحثيون من الشمال، والمصريون من الجنوب، والايجيون والأخائيون والمقدونيون والرومان من الغرب .

على أنه وراء هذا الجسر الحضاري الساحلي ، جسر آخر استراتيجي بري . هو الشريط الساحلي الممتد على خليج ايسوس الى مصب نهر العاصي على خليج الاسكندرونة .

وان أقرب منطقة ساحلية الى الفرات تبعد عنه أقل من مائتي كيلو متر ، وهي تشكل الجسر الذي يصل ما بين الحوض الشرقي للبحر المتوسط من جهة والعالم الأكدي ـ البابلي ، عالم الثقافة المكتوبة والمسجلة بالمسمارية وهو العالم الذي ينفتح عبر الخليج وجنوب الجزيرة العربية (ديلمون وماجان وملوخا) على حضارة الشرق ، بلاد اللآلىء والجواهر والتوابل والحجارة الكريمة والأقمشة الجميلة الملونة والصموغ والعطور واللبان من جهة أخرى • ويشكل هذا الجسر البري السوري أهم مراحل الاتصال بين مصب العاصي على المتوسط (البحر الأعلى) ومصب دجلة والفرات في الخليج العربي الشرقي (البحر الأدنى) وبالتالي بين حضارات البر والبحر •

كانت الممرات الطبيعية التي اكتشفها أهل البلاد وهم يخترقون الجبال المكسوة بالغابات منذ أيام جلجامش ، معابر للاتصال بين عالم البحر من جهة وعالم البر من جهة أخرى • ففي الشمال تقع الممرات الكيليكية في وادي نهر بيراموس (نهر سيحون) ، وهي ممرات (حمانو) = (أمانوس) المؤدية الى سهول حلب عبر المدينة الحثية ـ الكنعانية ـ الآرامية شمأل ، الواقعة في أقصى الشمال ، وهي موقع زنجرلي اليوم • وما يزال هذا الممر يحتفظ بأهميته الاستراتيجية حتى أيامنا هذه، فيمر فيه الخط الحديدي لقطار الشرق • وفي هذا المكان الذي كان يخترقه الانسان سيراً على الاقدام ليؤكد بحركته ووجوده اتصال الأرض ووحدتها حفر نفق بطول خمسة كيلو مترات في جوف الجبال لخدمة المواصلات في عالمنا المعاصر(٧) •

أما الممر الثاني عبر جبال الأمانوس فهو ممر بيلان ، ويعرف تاريخياً باسم الممرات السورية وهو يؤدي كذلك الى السهول السورية الشمالية ، سهول حلب • كان هذا الممر نفسه هو الطريق الذي سار فيه الاسكندر المقدوني بقواته المنتصرة بعد معركة ايسوس عام ٣٣٢ ق•م وهو الطريق المباشر الرئيسي بين البحر المتوسط والمنطقة الشمالية الداخلية كلها • والى الجنوب نجد معبراً ثالثاً في هذه المنطقة الجبلية الشمالية هو مجرى العاصي الأسفل ، وهو أسهل هذه الطرق حيث لا يبعد السهل عن الساحل أكثر من خمسة وعشرين كيلو متر من حوض العمق الى البحر •

في هذه المنطقة قامت مجموعة من المستوطنات الأولى السابقة للعصر الكنعاني وقد عرفت هذه المستوطنات قبل اكتشاف مستوطنات حوض النهر الكبير الشمالي • وربما كانت هذه التجمعات الأولى معاصرة للتجمعات البشرية ومحاولات الاستقرار الأولى في المنطقة الساحلية السورية •

على أن الارتباط بين البر والبحر عبر ممرات هذه المنطقة تتجلى في عصور لاحقة بانشاء آلالاخ واجاريت ، ثم في عصور أحدث بتأسيس انطاكية وسلوقية واللاذقية •••

والى الجنوب من جبال الأمانوس تقع سلسلة الجبال الساحلية التي عرفت في المصادر الكلاسيكية باسم برجيلوس • وربما يكون اسم الفرنلق تعريباً لهذه التسمية • كما عرفت هذه الجبال في المصادر العربية باسم جبال البَهْراء نسبة الى قبائل عربية يمنية الأصل استقرت على هذه الجبال في مطلع العصر الاموي وتصدت لهجمات البيزنطيين على المنطقة(٨) •

ويقع المنفذ الطبيعي من الساحل الى الداخل جنوب هذه الجبال عند مجرى النهر الكبير الجنوبي الفاصل بين الجبال الساحلية السورية الشمالية وجبال لبنان • وهو يصل

ما بين مدن أرواد وعمريت وسيميرا وعرقة/طرابلس بقادش/حمص وهي المدن الهامة في سورية في الألف الثاني ق٠م في فترة الصراع المصري ـ الحثي ٠ وقد أثبت هذا الممر أهميته الاستراتيجية عندما شقت فيه الطريق البرية ومدت السكك الحديدية ٠

وقد تعاقبت في السيطرة على هذه الجسور الواصلة بين العالمين الحضاريين، عالم الحضارة الداخلية ، البر وعالم الحضارات الخارجية، عالم البحر المتوسط، خلال ما يزيد عن الفي عام ٠ اقتحمت هذه القوى المنطقة في أدوار مختلفة بقوة وعنف وحملت اليها في كثير من الأحيان الخراب والدمار وعطلت فيها سير الحضارة والتقدم ٠ و شكل كل من هذه القوى في حينه عامل تغيير جذري لخارطة المنطقة ولصورتها وطابعها السياسي والاقتصادي والثقافي باحتوائها في اطار الدول الشاملة الكبرى احيانا كما في امبراطوريات حوض الرافدين وآسية الصغرى ومصر أو في اطار حضارة واسعة كالحضارة الهلنستية ثم الامبراطورية الرومانية ٠

وقبل المضي في استعراض نتائج هذه التطورات التاريخية الكبيرة نتوقف عند أسماء بعض الشعوب البارزة التي ارتبطت بتاريخ المنطقة الساحلية لكي نحاول التعرف عليها وعلىدورها في تاريخالمنطقة الساحليةالقديم: الكنعانيون والفينيقيون ٠

٥ ـ الكنعانيون والحضارة الكنعانية :

ما يزال أصل السكان الذين كانوا يتكلمون في سورية القديمة لغات تنتمي الى مجموعة اللغات التي جرى التعارف على تسميتها باللغات السامية ما يزال حتى الآن محل نقاش وكذلك تاريخ قدومهم ومدى امتداد الأرض التي شغلوها ٠ أما اسم (كنعان) فقد ورد في أسفار التوراة التي تتحدث عن التطورات السكانية والجغرافية البشرية ، اي توزع عناصر السكان في العصر الذي دخل فيه العبريون من بني اسرائيل الى أرض كنعان ، وهو الاسم الذي كان يطلق على فلسطين القديمة ٠

هذه الرقعة من الأرض التي دعيت في أسفار التوراة نفسها كما كانت تدعى في حينه ليست هي أرض كنعان كلها ، ولكن الارض المعنية هي الواقعة على يمين نهر الأردن من ينابيع الاردن شمالاً الى النقب جنوباً ٠ في هذه المنطقة اقتطعت قبائل بني اسرائيل التي كانت تتكلم اللغة العبرية القريبة من اللغة الكنعانية التي كان يتكلمها الكنعانيون المنتشرون آنذاك على الساحل السوري ـ الفلسطيني القديم ، أرضاً لها في كنعان على حساب السكان الأصليين في الأرض التي عرفت بعدئذ باسم فلسطين ، وذلك في ظروف تاريخية سياسية أدت الى تشكل فراغ شجع على تحرك السكا نوانتقالهم في ذلك العصر ٠

انه على الرغم من اعلان الأسفار الاخبارية من التوراة (سفر يوشع مثلاً) عن ابادة السكان والأحياء (الحرم) على أيدي الغزاة كما هو الشأن في أريحا أو في عي ، فان العديد من الكنعانين تجاوزوا المحنة وبقوا على قيد الحياة بعد الغزو ولكنهم دون شك اندمجوا بالنظام الاجتماعي ـ الثقافي للدولة الجديدة التي اقامها الغزاة ٠

والواقع ان أرض الكنعانيين في عصر البرونز المتوسط، وفي بداية البرونز الحديث امتدت الى اجاريت في شمال سورية وامتدت قبل وصول الآراميين شرقاً حتى الفرات ٠ ان لغة تل مرديخ = إبلا التي تدعى الابلائية ،

ترتبط بفرع اللغات السامية الشمالية الغربية، التي ربما يمكن ان ندعوها لاعتبارات جغرافية وحسب الفرع الاموري اي الغربي ، بمقابل الفرع الاكدي (البابلي-الاشوري) اي الشرقي · والى الفرع الغربي من اللغات (الساميه) تنتمي اللغه الاجاريتية التي ينبغي ان يبحث عن العلاقة فيما بينها وبين الابلائية، واللغتان الفينيقية والعبريه ، اللتان ليستا بالواقع الا لهجتين من الكنعانية · وهكذا فان دراسة الواقع الاجتماعي اللغوي هو الذي يساعدنا على التعرف على الانتشار الكنعاني والعلاقات بين المجتمعات التي كانت تتحدث بلهجات كنعانية ·

ظهر اسم الكنعانيين في نصوص آكدية من النصف الثاني من الالف الثاني ق·م· ونجده لاول مرة بصيغة بلاد كنعاني في نص للملك الالاخ ادريمي (في بداية القرن الخامس عشر) وفي منتصف القرن التالي (الرابع عشر) يرد هذا الاسم في نصوص تل العمارنة بصيغة كناخني ، كناختي ، ونجده بهذه الصيغة الأخيرة في اجاريت ·

اما في النصوص المصرية (أواسط القرن الخامس عشر) فنجد الاسم بصيغة كنانا كما في نص يعود الى زمن آمنحوتب الثاني (١٤٥٠-١٤٢٥) ·

فبالاستناد الى هذه المعطيات جعل بعض المؤلفين ظهور الكنعانيين في منطقة الشرق العربي القديم بكونهم شعباً له اسم في مطالع الألف الثاني ق·م· وهو ما يقابل أثرياً عصر البرونز الأوسط · وقد ربطهم بعضهم بالهكسوس الذين اختلطوا بالكنعانيين وتأثروا بحضارتهم وتبنوا عباداتهم وحملوا أسماء كنعانية ولكن يبدو أن السكان الذين أطلق عليهم بعدئذ اسم الكنعانيين كانوا موجودين في المنطقة منذ بدايات الألف الثالث كما توضح لنا شواهد تل مرديخ/إبلا · ولكن علماء الآثار والمؤرخون لا يملكون أي شاهد مادي على حركة هجرة لشعب ما تكلم اية لغة سامية في مرحلة ما قبل الكتابة في سورية وفلسطين أي قبل إبلا (الالف الثالث ق·م) ·

ويميل بعض الباحثين الى تأييد الرأي القائل بأن الكنعانيين هم بالأصل من السكان المحليين في سورية تطورت أجيالهم فيها عبر العصور · ومن جهة اخرى فانه من الصعب البت بالأصل اللغوي لكلمة (كنئاخو) التي نقرأها في نصوص نوزي، وهي كلمة تدل على الصباغ الأرجواني ، ولذا قربت الكلمة من كلمة (فينيقي) ووجد أن للكلمتين (كنعان) و(فينيقية)، معنى واحداً وهو بلاد الأرجوان· واقترح كذلك تفسير آخر الكلمة كنعان هو بلاد التجار ، فقد وصف الكنعاني بالتاجر في العهد القديم ، لكننا لا نجد لكلمة كنعان أي أصل في اللغات المشرقية (السامية) القديمة ، الا أننا نجد في العربية الجذر (كنع) بمعنى الانحناء ، وربما يتصل هذا المعنى بانحناء مسار الشمس وغروبها فيكون معنى كنعان بلاد الغرب بالقياس الى بلاد الرافدين ، كما أضحى فيما بعد اسم أمورو دالاً على الغرب وبلاد الغرب · فأمام هذا التشتت في الآراء وتعددها أليس من الأفضل الانصراف ، كما كنا قد دعونا سابقاً ، الى دراسة الحضارة نفسها بمؤسساتها ونظمها وتاريخها وعلاقاتها وآثارها ؟

اما الحضارة الكنعانية :

لقد أنشأ الكنعانيون حضارة الساحل السوري كله ، وفي فلسطين التي وصفت أسفار التوراة حياتهم فيها قبل دخول العبريين أقاموا قواعد وأسس حضارة غنية ومفتوحة على

العلاقات مع الشعوب والحضارات المجاورة ٠ زرعوا الأرض مسلحين بخبرة قرون عديدة ترقى الى العصر الحجري الحديث ، وعالجوا قلة المحصول بالتبادل والتجارة ، حتى أصبحت الطرائق التي اعتمدوها فيهما من تقاليد البلاد وتراثها الموروث ٠

عرفوا أنظمة اقتصادية ـ اجتماعية ـ سياسية بلغت درجات مختلفة من التشابك والتعقيد بتنامي الحياة المدنية في عشرات المدن التي بنيت وأحيطت بالأسوار : اريحا ومجدو وبيبوس اوريشلم وعكّي وغيرها ٠ وشيدت فيها المعابد والدور والقصور التي برع في هندستها المهندسون وزينها باعمالهم فنانون مبدعون ٠

وعلى غرار ما كان قائماً في اقطار المشرق القديم تشكل حول الملوك والأمراء جهاز اداري من الموظفين والكتاب كان من ابرز أعمالهم تنظيم السجلات الرسمية والمراسلات الدبلوماسية التي نجد في مراسلات تل العمارنة أخيت ـ آتون نماذج بينة منها ٠

لقد عرف الكنعانيون على اختلاف مواطنهم الكتابة تعلموها وعلّموها ونشروها ٠ فاستخدموا النظام المسماري في شمال البلاد المتصل بوادي الفرات ، وكتبوا في جنوبي البلاد ، أي من جبيل حتى سيناء وهي المناطق التي كانت أكثر اتصالاً بمصر ، بنظام للكتابة فيه ملامح تأثيرات المصرية والعربية الجنوبية ٠ وعلى أيديهم أوجدت ، على كل حال ، هذه الطريقة البديعة البارعة للكتابة المعروفة بالأبجدية التي انتقلت بالفكرة والتطبيق الى أنحاء العالم في الشرق والغرب من حوض السند الى حوض المتوسط ، فأحدث هذا الاختراع أكبر تأثير في نشر الثقافة وتعميمها في أنحاء العالم كله

٦ ـ من هم الفينيقيون ؟

الفينيقيون اسم اصطلاحي أطلقه الاغريق في الالف الاول ق٠م٠ على سكان الساحل السوري القديم الذين كانوا يدعون أنفسهم كنعانيين٠ وكان يعني بهذا الاصطلاح شريط من الأرض بين جبال لبنان والبحر ويمتد من منطقة أرواد شمالاً الى الكرمل جنوباً ٠ وأهم المدن على هذا الشريط جبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا ودور ٠

ويرتبط أصل الكلمة Phenikê = فينيقيه بكلمة Phoinix = أحمر ، فالكلمة ترتبط بما اشتهرت به من مدن الساحل القديم وبخاصة صيدا وصور من صناعة للقماش الأرجواني الأحمر والتجارة به ٠ وترد كلمة Ponikija (بونيقية) في كنوسوس (كريت) للدلالة على اللون الأحمر ٠

الا أن كلمة فينيقية وردت لأول مرة بصورة ما عند هوميروس ثم عند هيكاتيوس من ميليتوس للدلالة على سكان صور وصيدا الذين كانوا يدعون أنفسهم كنعانيين كما ذكرنا من قبل رغم أن المصادر اللغوية تذكر أن الكلمة غير اغريقية، وهي مشتقة من أصل أجنبي فان الشائع هو أن الاغريق هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان مدن الساحل القديمة ٠

ان ألواحا من كريت/كنوسوس (ما بين القرنين الخامس عشر والثالث عشر) تشير الى وجود هذا الاسم الذي ربما انتقل عن هذا الطريق الى اليونان ٠

ويرد اسم فنخو/فنخ في المصرية ليدل على الذين يقطعون الأخشاب في جبال لبنان ، ثم في قصة سنوحي من عصر الدولة الفرعونية الوسطى ليدل على شعب تقع بلاده حول جبيل في وسط لبنان ٠

وهنا يمكن أن يطرح السؤال عما اذا كان الاسم (فنخو) اسما محليا لسكان المنطقة، وكنعان هو الاسم العام ؟٠٠ قد يتراءى لنا أن العلاقة بين الاسمين كنعان وفنخو كالعلاقة بين أخلامو وارامو ، فاخلامو اسم عام لقبائل عديدة برز منها الاراميون حتى طغى اسمهم على الاخرين ٠ كما طغى اسم (عبيرو) على (خبيرو) ٠ فالعبريون ليسوا وحدهم الخبيرو بل انهم جماعات منهم ٠

أما أصل الفينيقيين فهو الاصل الذي ينحدر منه الكنعانيون ما دام الفينيقيون فرعا من الكنعانين ينحدرون منهم ويندمجون بهم ٠ ويدل اسمهم على منتجي وصناع الارجوان من صدفة الموريكس وقد انتقل هذا الاسم الى الميكانيين في البحر المتوسط بصيغة بونيقي Phoinix = Po-ni-ki = كما انتقل الى سكان نوزي بصيغة Kinnaku كيناخو ٠ وربما كان هذا الازدواج بالتسمية المشتقة من مصدرين ، البحر والبر ، أصل هذا الالتباس في العلاقة بين التسميتين ودلالة كل منهما ، فهما بالواقع اسمان على مسمى واحد ٠

كان للفينيقيين/الكنعانيين دور كبير في النشاط الملاحي في البحر المتوسط خلال الألف الثاني ، لكن هذه الفعالية الحقيقية لم تبدأ فعلاً الا في أواخر الألف الثاني وفي بدايات الألف الأول ق٠م٠ كان ذلك نتيجة لتغيرات وقعت خلال هذه الفترة ؛ فانهيار الحضارة الكريتية والميكانية في حوض بحر إيجه وسقوط دور الأخائيين الايجابي عند قدوم الدوريين الذين لم يستطيعوا أن يحلوا محلهم أفسح المجال أمام تعاظم دور المدن الفينيقية التي استطاعت تجاوز الأزمة التي مرت بها المنطقة عند الانتقال من عصر البرونز الاخير الى عصر الحديد ٠ وهو ما حصل للآراميين الذين تحركوا في داخل البلاد لسد الفراغ الذي خلفه تدهور الحثيين وانهيارهم وتراجع المصريين وانكفاؤهم في وادي النيل ٠

لقد تراءى لبعض المؤلفين أن فينيقية والفينيقيين اصطلاحان يتصلان بالانعزالية، والحقيقة أن الفينيقيين هم من الكنعانين ، كانوا عامل اتصال بين المشرق القديم والمغرب القديم منذ نشأتهم على سواحل البحر الأحمر أو سواحل الجزيرة العربية الى انتشارهم على الواجهة البحرية للمشرق والمغرب على البحر المتوسط فانتشرت قوافلهم براً الى آشور وبابل بينما تحركت أساطيلهم بحراً الى المتوسط والأطلسي وسيطروا على معظم جزر حوض المتوسط وسواحل افريقية الغربية وجاء دورهم في نقل ونشر حضارة الشرق العربي مكملاً لدور الآراميين عندما تغلغلوا وامتدوا على كل الأرض من الفرات الى النيل ٠

اننا لا نجد في التاريخ مثالاً واحداً على نزاع حربي بين الآراميين والفينيقيين/الكنعانيين ولكننا نجد تنافساً حاداً وصراعاً مريراً بين الكنعانيين عامة وبين أسباط بني اسرائيل الذين انشأوا مملكة طارئة في تاريخ فلسطين القديم ٠ فقد كان على الدول الفينيقية أن تتابع التصدي للتوسع العبراني نحو الشمال كما تصدت ممالك آرام وبخاصة وبنجاح أحياناً وبتفوق أحياناً كثيرة لهذا التوسع منذ مراحله الأولى (أيام برهدد وحزائيل) ، وكموقف مؤاب في شرقي الأردن (أيام الملك ميشع) ٠

على أن للفينيقيين دوراً تاريخياً مشهوراً ومتميزاً ، فلم يكونوا محاربين فاتحين في البر لكنهم كانوا مغامرين مستكشفين وملاحين عظاماً على متون البحر ٠ فقد أنشأوا المحطات وشيدوا الموانىء والمدن في أنحاء حوض المتوسط وعلى طول سواحله العربية وفي جزره:

في قبرص وفي سورية ولبنان وفلسطين وعلى سواحل ليبيـة وتونس والجزائر وفي مالطـة وصقلية وسردينية والباليار وعلى شواطىء المغرب والافريقية واسبانية ومنها شقثوا طرقاً تجارية الى شواطىء فرنسـة وانكلترة عبر خطوط الأطلسي. لقد مضى التجار الفينيقيون ليبحثوا في الأراضي القصية عـن الفضـة والنحاس والقصدير ، وهي المعادن التي كانت تشكل عماد ثروة قرطاجة ، بعـد أن تمكنوا من بناء وتجهيز مراكبهم التي أضحت مشهورة والمعروفة باسم ترشيش والتي كانت قادرة على مخر أعالي البحـار خـلال الالف الأول ق.م.

لقـد كان تاريخ المـدن الفينيقية على الساحل السوري ـ الفلسطيني ملحمة رائعـة مـن ملاحم التاريخ الانساني . فبينما كـان الصراع محتدماً على أرض المشرق غرقت فيه المدن المدافعة عن استقلالها وانغمست فيـه شعوب فلسطين وآرام وآشور في القرن التاسع ق.م كانت مراكب من صور تتجه الى الغرب لتبحث عن موطىء قدم عند مغيب الشمس . هناك بنيت القرية/المدينة الحديثة = قرت حـدش وهي قرطاجة وقـدس = المقدسـة وغيرهمـا .

ـ المطامع الصهيونية وجذورها القديمة :

تعكس الأسفار الأخبارية في التوراة بعض ملامح من ذلك الصراع الذي دار على أرض فلسطين بين السكان الأصليين للبلاد والقادمين الوافـدين بشكل نكـاد نرى بعض أشكاله في عصرنا الراهـن .

لقد فرض الواقع الجغرافي ـ التاريخي الكنعاني نفسه كما فرضت المصادر الكنعانية نفسـها على كاتب سفر التكوين (الاصحـاح العاشر ١٥ ـ ١٨) فبالاستناد الى هذا النص يميز الأستاذ رينـه دوسو (في الطبوغرافيـة التاريخية لسورية القديمة ...) ثلاث مناطق يدعوها فينيقية وفيها المجموعات التالية :

١ ـ الفينيقيون الجنوبيون ويضمون صـور وصيـدا .

٢ ـ فينيقيو الوسط ، في منطقة جبيل التي كانت تدعى في مصادر مصـرية نيجـو Negau / نيحا ويرد ذكرها في المصدر التوراتي العرقي والسيني .

٣ ـ الفينيقيون الشـماليون ويشار اليهـم باسم الأروادين والصحاريين أي أرواد وسيميرا(٩) .

ويستخلص دوسو من مقطع هام في سفر يشوع ، ١٣:٤ـ٦ جذور المطامع الصهيونية المسندة الى مصادر توراتية بأراض فينيقية، هي الأراضي الواقعـة جنوبي المجرى لأدنى لليطاني (نهر القاسمية) . ويعلق العـالم الفرنسي على ذلك في كتابه المنشور عام ١٩٢٧ بعبارات نفّاذة بقوله :

« ان المفاوضات التي جرت مؤخراً (في العشرينات)، والتي انتهت الى تحديد الحدود بين منطقة الانتداب الفرنسي ومنطقة الانتداب البريطاني منحت الادعاءات الصهيونية صفة المعاصـرة » .

وفي الاصحاح التاسع عشر من سفر يشوع وهو السفر الذي يتحدث عن توسع بني اسرائيل في أراضي كنعـان/فلسطين ، قائمـة بأسماء المواقع التي أضحت موضوع مفاوضات بـين لجـان تحديد الحدود آنذاك مـن سـلطات الانتـداب الفرنسي وسـلطـات الانتـداب البريطاني وفيها ما يلي :

١ ـ حلتقـه : برقـه ، وتقع شمال عكا ٠
٢ ـ حلـي : عاليـة او حوبي شمال قادش الواقعـة شرقي تبنـين ٠
٣ ـ باطـن : بيت بطن ، شرقي عكـا ٠
٤ ـ اكشـاف : جنوب نهر القاسمية ، ورد ذكرها في نصوص العمارنه في مصـر ، اكسابو ٠ وسنتحـدث عنهـ بتفصيـل فيما بعد ٠ وهي قرية الذيب العربيه ٠
٥ ـ ألتملك : أو إليملك ، هي الملكيـة ٠
٦ ـ عمعـاد : ؟
٧ ـ مشال: هي مشارة Meshaara في الوثائق المصـريـة
٨ ـ بيت جدين : بيت دجن ، بيت دجون ٠
٩ ـ بيت عمق : بيت العمق ، عمقة، شمال شرقي عكـا ٠
١٠ـ نعيئيـل ، بثانيـا : شرقي قيسارية ٠
١١ـ كابول : يشير دوسو عند ذكرها الى أن الكاتب التوراتي يقلل مـن أهميتها ، ويشير الى تنازل الملك سليمان عنها الى حيرام ملك صور بـين عشرين مدينة في أرض الجليـل (الملوك ١ ، ٩:١٣) أما الجغرافي العربي المقدسي فيتحدث عن أهميتها الزراعية في أيامـه ٠
١٢ـ عبدون : خربة عبده شمال عكا ٠
١٣ـ رحـوب ٠
١٤ـ حامون/حمون : عـين حامول ، ويقـع وادي حامـول ما بـين رأس الناقـورة والرأس الأبيض ٠
١٥ـ قانـة : قريـة قانـة ، خربة قانـة ٠
١٦ـ رامـة :
١٧ـ عكا ، عكـة على الساحـل ٠
١٨ـ أفيـق ، أفـق ٠

كانت هذه القرى والمواقع العربية بـين المواقع الجغرافية التي جرى التفاوض عليها بين لجان تابعة لسلطتي الانتداب البريطاني والفرنسي وبمتابعـة مندوبين مـن الوكالة اليهودية التي كانت تراقب المفاوضات عـن كثب للتوصل الى تحديد حدود بـين سورية ولبنان مـن جهة وفلسطين مـن جهة أخرى بالاستناد الى ادعاءات ومقـولات قديمـة ٠

كان ذلك ضمن مطامـع بني اسرائيـل بأراض كنعانية في مطالع الالف الاول ق٠م٠ وقـد انعكست هـذه المطامع في سفر يشوع مثلاً ، وقد ورد فيه تفصيل برنامج التوسع التوراتي في المنطقة الشمالية ، وهو البرنامج الذي طلب متـابعـه تنفيـذه بعـدع يشوع :

يقـول النص(١٠) :

« بقيت أرض كبيرة جداً للامتلاك ، هذه هي الأرض الباقيـة : كل أرض الكنعانيين ومُغارة التي للصيدونيين الى أفيق الى تخم الاموريين وأرض الجبليين وكـل لبنان نحو شروق الشمس (يعني لبنـان الشرقي) مـن سفوح حرمون الى مدخل حماة » (سفر يشوع، الاصحاح ١٣) فكما برزت هـذه المطامـع في السابق تبرز اليوم وفي المناطق نفسها في جنوب لبنان وسفوح حرمون دون لجلجة أو مواربة٠

والحقيقة أن الانتـداب البريطـاني ، الذي كان أقـوى نفوذاً في حلبـة المؤامرات والمناورات بين القوى المتصارعة على المنطقة، استطاع بالتحالف مع الصهيونية النشطة منذ ذلك الحـين أن يوسع دائرة سيطرته ونفوذه لمصلحة الوعـد البريطاني باقامة وطن قومي لليهود في فلسطـين في مناطـق هي تاريخيـاً كنعانية فينيقية ولا ارتباط لها أبداً بادعاءات تاريخيـة صهيونيـة قديمـة ٠

لناخذ مثالاً على ذلك أحد المواقع الأثرية المذكورة آنفاً لنرى مال الادعاءات الصهيونيه :

اكشاف : وهي قرية الذيب العربية ، تقع على مسافه خمسه عشر كيلو مترا الى الشمال من عكا على ساحل المنطقه المحتله من فلسطين ·

تقول المصادر العلمية (أنظر : Guy Rachet, Dict. de l'Arch.) انقرية العربيه التي كانت قائمة على مقربه من التل تدعى الذيب· اما التل الاثري فيدعى باللفظ المحلي (اشذيب) وهو تحريف للاسم القديم أكشاف · وبعد استطلاعات اولية جرت تنقيبات منظمة ما بين ١٩٥٩ و ١٩٦٤ ، أدت الى النتائج التالية :

فخاريات من عصر البرونز القديم (الالف الثالث ق·م) ،

مساكن كنعانية من البرونز المتوسط (النصف الأول من الألف الثاني) ،

مقابر فينيقية (بين القرنين ١٠ـ٧) ،

احتلها الآشوريون حوالي ٧٠٠ ق·م ، ثم البابليون ·

آثار من العصر الفارسي ·

ثم ضمت الى المملكة السورية السلوقية، وكانت محطة هامة على الطريق الى أنطاكية· واحتفظت بهذا الدور حتى العصر الروماني · وقد عثر على آثار فخارية وبرونزية من ذلك العصر ·

هكذا يتضح أن الأدوار الأثرية التاريخية التي مرت على الموقع تؤكد أنه كان موقعاً كنعانياً على الساحل السوري ـ الفلسطيني القديم وتاريخه هو تاريخ الأرض كلها ·

٧ ـ الساحل السوري أمام الامبراطوريات الشاملة :

في واخر الألف الثاني ومطالع الألف الأول ق·م دخل تاريخ البلاد في منعطف خطير· فقد بدأت تتشكل قوة سياسية ـ بشرية منحت كل المنطقة الواقعة غربي الفرات وهي بلاد أمورو هوية جغرافية ـ تاريخية خاصة خلال الألف الأول ق·م فصارت تعرف باسم آرام ·

ان التبسيط الشديد لمجريات الأحداث قد يقود الى تكوين رؤى مبهمة عن التطورات التاريخية التي وقعت فعلاً كما حدث في الفترة الانتقالية الغامضة عند انهيار الحكومات الحثية في شمال سورية وتاسيس بيوتات آرامية حاكمة في الجزيرة وبلاد الشام ، وعند تدهور الممالك الكنعانية وسقوطها أمام الانتصارات التي حققها التحالف القبلي الذي قاده الملك داود · لقد استغرقت هذه الفترة الانتقالية الخطيرة ما لا يقل عن قرنين ، أي الى القرن العاشر · ومن المألوف أن يجري الحديث عنها باجمال وبصورة عابرة على الرغم من الأهمية البالغة للأحداث التي مرت آنذاك وطبعت تاريخ المنطقة بعدئذ بطابعها مدة طويلة ·

كيف كان مصير الدول الكنعانية في تلك الفترة المتأزمة ما بين القرنين الثالث عشر والعاشر · وهي فترة انهار فيها النظام الدولي بسقوط أركانه السياسية والاقتصادية : انهيار الامبراطورية الحثية ، وتراجع مصر الفرعونية عن فلسطين ودمار المدن الكنعانية التجارية : اجاريت وجبيل وصور وعسقلان·

ولكن كيف تبلور الوضع الدولي في المنطقة بعد دخول القوى الفاعلة الجديدة : « شعوب البحر » من الغرب، والتحرك العيلامي نحو بابل من الشرق ، والانتشار الآرامي من

البادية العربية ـ السورية على امتداد جبهة من الجبال التدمرية الى جبل بشري نحو كل أنحاء الهلال الخصيب .

ما هو وضع الدول الساحلية الكنعانية ـ الفينيقية بعد استقرار الدول الآرامية في الداخل وانطلاق حركة التوسع الآشوري بعد أن برزت مملكة آشور بنزعاتها العسكرية وباستراتيجيتها التوسعية الموروثة من عصر الفاتحين الأكديين شروكين ونرام سين قبل ذلك باكثر من ألف عام ؟ كيف كان بالواقع وضع الدول التي كانت قائمة في ما كان يدعى بسورية على سفوح طوروس والأمانوس عند انتشار القبائل الآرامية التي تحركت لشغل الفراغ في منطقة الجسر السوري الاستراتيجي بين الفرات والبحر وهو الفراغ الذي أوجدته حركات الشعوب وتبدل مواقع الدول وأدوارها في المنطقة ؟

ان وثائق المحفوظات الآشورية التي تتضمن سجلات الحوليات الرسمية من أيام تكلات بلاصر الأول (توكولتي أبيل ايسار) = (١١١٥ ـ ١٠٧٧) ق.م تعترف بالواقع السياسي للتحالف السوري الشمالي بزعامة ما دعي ببلاد حاتي الكبرى(١١) .

لقد أوضح الأستاذ بول جاريللي أن هذا التحالف بزعامة ملك كركميش الواقعة في شمال سورية والذي امتد الى حماه في وسط البلاد لم يكن مجرد بقية الامبراطورية الحثية المنهارة بل كان قوة دولية حقيقية استطاعت أن تثبت وجودها أمام التوسع الآرامي من جهة ثم أمام التوسع الآشوري في شمال سورية ونحو المدن الساحلية على المتوسط .

لقد رافق هذا التغيير الجيوسياسي في سورية تغيير نوعي حضاري بطيء . ان حضارة عصر البرونز هي الحضارة التي بدأت بالانهيار منذ القرن الثاني عشر عند اصطدامها بحضارة عصر الحديد في ظروف لما يتم جلاؤها بعد (دمار اجاريت ومدن ساحلية أخرى) . وفي هذا التغيير كان مصير الدول الفينيقية شبيهاً بمصير الدول والممالك الآرامية بمواجهة زحف الدول الامبراطورية الشاملة المتعاقبة : آشور ثم بابل ثم فارس .

لقد أوجدت وحدة المشرق القديم تحت زعامة ملوك آشور وبابل سوقاً تجارية مشرقية واسعة ، ودفع التجار السوريون الفينيقيون بخاصة التجار اليونانيين أمامهم في شرقي البحر المتوسط ، فاضطر هؤلاء الى الابتعاد عن الساحل السوري ليتخذوا مراكز لهم في جزر رودس وديلوس وأرخبيل السيكلاد بينما تقدم التجار البابليون والآشوريون والكنعانيون والآراميون نحو كيليكية وسواحل آسية الصغرى الجنوبية ، واستمر هذا التفوق المشرقي عدة قرون الى العصر الكلاسيكي الهيليني في القرنين الخامس والرابع ق.م الى ان تصاعد التنافس التجاري الى الصراع الحربي ، وبلغ هذا الصراع ذروته في الحروب الفارسية ـ الهلينية ثم في الاجتياح الذي قاده الاسكندر المقدوني نحو بلاد الشرق .

وفي خضم الظروف الدولية التي تعرضت لها دول الساحل الكنعاني في العصرين الفارسي والهلنستي ضعف الاتصال بين صور وقرطاجة والمراكز الفينيقية الأخرى في الحوض الغربي للمتوسط . ولكن مصير الساحل السوري بقي مرتبطاً بمصير المنطقة كلها وبما مر عليها من تغيرات وتطورات . فبعد حلول الامبراطورية الفارسية الشاملة محل عروش الممالك القديمة ثم توحيد الادارة ولغتها رسمياً وادارياً لأول مرة في مناطق واسعة من العالم القديم . وبين

اللغـات العديدة التي كانت متداولة آنـذاك فرضت اللغة الآرامية ، وهي لغة سورية ومعظم المشرق القديم في ذلك العصر ، نفسها لغة عامة ومشتركة لتلك الامبراطورية الكبرى المتعددة الالسن واللغـات ، واحتـل التجار السوريون الآراميون والفينيقيون في البر والبحر في بنية الدولة الاقتصاديـة فحملوا معهـم العطـور والخمور والزيوت والعقاقير والثمار المجففة والأخشـاب والأقمشة ، واستوردوا الحـرير والتوابل والبخور وتحركت أسرات وجاليات بين بلدان الدولة وأقطارها حاملة معتقداتها وثقـافاتهـا وعـاداتهـا فتـأثروا بالبيئـات الاجتماعية والأوساط الثقافية التي انتقلوا اليهـا كما أثروا هم فيها وتركوا بصماتهم عليهـا ٠

وفي حـين اقتصر نجـاح امبراطوريـة الفرس الأخمينيين على ضم الممالك والدول في المشرق القديم مـن برقة الى الهنـد ومن البحر الأسود وبحر ايجة وحوض المتوسط الى بحر العرب في دولة واحدة شاملة فان الحضارة بقيت متعددة الألوان ٠ فلم تكـن الجيوش المظفرة قادرة على محو الثقافات العريقة في عقائـدها وأساطيرها وتقاليـدها وتراثهـا الثقـافي ، اللغـوي والأدبي والفني ٠ ففي أدوار سابقة كانت مجتمعات الساحل السوري قادرة على التصدي لمحاولات سيطرة الفاتحين بما تملكه من قدرات على تحريك المؤسسات الاقتصادية وخاصة التجارة والنقـل وتسيير القوافل وتأسيس الوكالات والمحطات في نقاط ومراكز بعيدة ، مما أدى الى خلـق شبكات منتجـة ومتحركة وفعـالة فرضت وجودها في اطار الدولة الشاملة نفسها ٠

هكـذا كان للكنعانيـين ولدول المـدن الساحلية ، مثـلاً ، الدور الأول في التصدي والاقتحام والدفاع في مراحل الحروب الميدية ـ الهلينية ٠ وكان من هذه المدن قادة الأساطيل وبحارتها كمـا كـان منها التجـار والكتاب والصناع ٠ لكن انتصارات الاسكندر المقدوني الصاعقة قلبت هذا الوضع رأسا على عقب ٠ لقد نجم عن الانتصار المقدوني الهلّيني في الشرق هزيمـة عسكرية وسياسية حاسـمة للامبراطورية الفارسية الاخمينية ، وهزيمة اقتصادية حضارية ماحقـة للعالم الأرامي ـ الكنعاني (الفينيقي) كان من مؤشراته البارزة: أولاً، سقوط المدن التجارية الكبرى وتهديمها صيدا وصور وغزة وغيرها ٠ وثانيا ، الغزو الاستعماري الاستيطاني الهليني الذي تمثـل بانشاء وعمارة المدن الهلنستية مثل : انطاكية وأسكندرونة وسلوقية وأفامية واللاذقية ٠٠ وأضحت هـذه المدن على شواطىء المتوسط الميدان الذي تلاقت فيه الحضارات والثقافات وتفاعلت وأنتجت من تفاعلها فيها وفي الشرق الأدنى القديم كلـه الحضارة الهلنستية التي طبعت البلاد بطابعها حتى العصر الروماني ٠

* * *

هـذه بعض ملامح هذا التاريخ القديم الغني الحافل في الساحل السوري الذي بقي على مرّ الزمن بـين البر والبحـر جسـراً للحضارة الانسانيـة المتجددة ومنـارة مشعة لابتكاراتهـا ومنجزاتهـا ٠

☐ الحواشـي :

١ ـ اسطورة بعل ويم ، عن كاكو وسينسر ، نصوص اجاريتية(بالفرنسية) • نقلنا الى العربية بعض مقاطع الاسطورة •

2 — F. M. Cross, Canaanite Myth. and Hebrew Epic. Harvard - Cambridge, 1973.

3 — J. B. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts relating to the O. T. Princeton, 3ème éd.

٤ ـ ا • كاكو ، الكوليج دوفرانس ، المحاضرة الافتتاحية ص ١٣ •

5 — J. Bottéro, La naissance du Dieu, Paris, p. 53.

6 — L. Oppenheim, La Mésopotamie, Portrait d'une civilisation, Paris. p 1970, p. 193. (الطبعة الفرنسية) •

7 — E. G. Simple, The Geography of The Mediter. Region, its relation to the Ancient History, London, 1932.

٨ ـ انظر موسوعة الاسلام (بالفرنسية) الجزء الاول ص٩٦٧ ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب •

٩ ـ انظـر :
Cham et Canaan dans Revue de l'Histoire des Religions 1909, 1, p. 225; Syria p. 314; R. Dussaud, La Top. Hist., p. 5.

١٠ ـ انظر دوسو ، المرجع المذكور ص ٥ ـ ١٤ •

١١ ـ انظر : P. Garelli, Le Proche-Orient Asiatique II, p. 62 .

* * *

☐ اهـم المراجـع :

1 — A. Caquot et M. Seznycer, Textes Ugaritiques, Paris.

2 — J. B. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts relating to the O. T Princeton, 3ème éd.

3 — J. Bottéro, la naissance du Dieu, Paris.

4 — L. Oppenheim, La Mésopotamie, Portrait d'une civilisation, Paris (traduit de l'Anglais), 1970.

5 — E. G. Simple, The Geography of the Mediter. Region, its relation to the Ancient History, London 1932.

6 — Encyclopedie de l'Islam.

7 — R. Dussaud, la Topographie historique de la Syrie antique et medievale. Paris, 1927.

8 — P. Garelli, le Proche-Orient Asiatiqes II, Paris.

9 — S. Moscati et M. Chehab, les phéniciens, Paris.

أضواء على أوغاريت والكنعانيين

من خلال مكتشفات رأس ابن هاني

د. عدنان البني

ليس التنقيب الأثري ترفاً علمياً ولا هواية للترويح عن النفس • وليس هو ، كما يزعم البعض، نبش تراب ونقل حجارة • ان التنقيب الاثري الحديث ، المجرد من هوس الكنوز وتاويل الرموز ، هو قبل كل شيء عملية حضارية منهجية بالغة الاهمية ، همها الأساسي بناء التاريخ وترميم أحداثه وجلاء فعالية الانسان والجماهير ، عبر التاريخ ، في خلق التركيبة الحضارية التي وصلتنا ناضجة دانية القطوف •

ان هذه التركيبية العظيمة التعقيد الكثيرة الوجوه هي موروثة ومورثة ، ومهمة الآثاري ، المنقب أن يفكك عناصرها ويضعها في موضعها الصحيح من الزمان والمكان • وبقدر ما هي مهمة الآثاري المنقب انسانية كونية بقدر ما هي قومية ووطنية • فمن جلاء الاحداث والمكونات يعرف الآثاري عملية الأخذ والعطاء بين الأمم والشعوب • ويعرف بالتالي نصيب أمته ووطنه في تكوين الحضارة ، ويعرف المدخرات الوفيرة التي تركها السلف في صرح البنية الحضارية الشاملة •

اننا ننبش الأرض ونثير الغبار حقاً ونعفّر به • ولكن لهدف جليل وأمر نبيل ويسعد الآثاري بأن يكون أول من يرى وأول من يسمع أحاديث الارض الحميمة •••

ومنذ قرابة خمسة عشر عاماً نتحادث مع الأرض الطيبة في رأس ابن هاني الجميل، وقد ملأنا من ذلك الحديث حتى الآن صفحات وصفحات بلغة أثرية أكثر الأحيان ، وفات البعض أن يصغي • واصغى البعض الآخر فاستغلق الحديث عليه • ونحن نود هنا أن نحاول ، أقول نحاول ، أن نلقي أضواء جديدة على عطاء رأس ابن هاني في جلاء التاريخ الاوغاريتي خاصة والكنعاني عامة وما وراء هذا وذاك احياناً •

رأس ابن هاني بقعة من ارض هذا الوطن تبدأ قصتها في الزمن الجيولوجي الميوسيني أو الايوسيني قبل الدور الرابع الطبقي . غاصت هذه البقعة تحت الماء وقطعت عن اليابسة ثم اتصلت مرة إثر مرة وتحولت مراراً من جزيرة لشبه جزيرة . ان الأحداث الجيولوجية والجيومورفولوجية قد لا تعنينا كثيراً في هذا المقام ، الا أننا نقول ان مسرح الأحداث هذا قد تركت فيه عصور ما قبل التاريخ ما جُرف بعيداً أو غاص تحت الرسوبيات ، وآخره ما جاء في مخلفات العصر الحجري الحديث مع مجلوبات الانسان من بيئة نهرية قريبة . وقد حدث هذا في أزمنة لاحقة لا يمكن تحديدها بدقة .

ومما جلبه الانسان الى هذا الرأس من جهات الشاطىء فخاريات من النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد ، قادت بعثتنا الى تتبع آثارها حول خليج القبان ، بعدة أسبار في جهات الشاطىء الأزرق نفذ اهمها الأستاذ ميشيل مقدسي في ١٩٨٧ ، حيث ظهرت معالم سكن على خط الشاطىء الاقدم ، معاصرة لأوغاريت الثالثة وإبلا . وتدل هذه المعالم على اعمار هذا الساحل في ذلك العصر ، الأمر المؤيد للعلاقات المبكرة ، ليس مع الرافدين فحسب ، بل مع بحر إيجه ومصر ، فسكان الساحل الكنعانيون كانوا رواداً في ركوب البحر ومرافئهم كانت ناشطة منذ ذلك الحين في التصدير والاستيراد . وذلك يعزز التفكير بريموتا مرفأ في موقع اللاذقية وورود اسمها في أيام سرجون الاكادي(١) . وفي هذه الفترة التي تقع في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م (أي القسم الأخير من عصر البرونز القديم) نشأت العلاقات بين الساحل السوري وبحر إيجه . ويرى البعض ان المبادرة أتت من كريت الناشئة(٢) ، لحاجتها لبعض المستوردات من بلاد الهلال الخصيب . وقد كانت المبادلات مع بحر إيجه ومع كريت بالذات تتم عن طريق الساحل الشمالي . ثم ان تجارة مصر الخارجية أيضاً كانت متركزة على سورية لغنى أرضها وأهمية دورها كمنطقة تلاق(٣) . وفي اعتقادنا أن التجارة المصرية الايجية بدورها كانت تتم عن طريق الموانىء الكنعانية الشمالية لصعوبة اجتياز البحر مباشرة ، ولضرورة الاقتراب أكثر ما يمكن من بحر إيجه مع عدم المخاطرة بالابتعاد عن الشاطىء كثيراً وفي هذا المعنى يقول البعض : « ان الممر الشرقي الغربي من سورية الى قبرص وكريت وصقلية هو على الراجح قديم جداً(٤) » . ان هذا الزمن المعاصر لابلا وآكاد فترة هامة في تطور سورية وامتداد علاقاتها مع الرافدين والاناضول وبحر إيجه وازدهار التمدين فيها وصناعة النحاس والبرونز والمعادن الثمينة وصناعة الأسلحة والأدوات وعناصر الزينة(٥) .

ولكن المرء يتساءل لِمَ تأخر النشاط الاستيطاني في رأس ابن هاني نفسه حتى أواخر عصر سلالة أوغاريت ، أي حتى القرن الثالث عشر ق.م بالتحديد . والجواب مرتبط بمعرفة مورفولوجية الشاطىء في تلك الارجاء . فمن المرجح أن خليج القبان كان يتصل بخليج الخضر في قوس واسعة ، وان الرأس كان خلال عصر البرونز الوسيط ، جزيرة منقطعة عن اليابسة أو حتى أنها غائصة كلياً تحت الماء .

وفيما نعلم ، لم يشهد رأس ابن هاني شيئاً من أحداث الشطر الأكبر من الألف الثاني ق.م ، فكانت مراكز أخرى في مملكة أوغاريت شواهد على علاقات مملكة أوغاريت بمصر تارة ، وبالحثيين تارة أخرى ، وبسورية الأمورية وبالحوريين الميتانيين بين هذا وذاك ،

الى أن يبدأ الاستقرار النسبي الذي عرفتـه سورية وشرقي المتوسط بسبب التوازن الذي حصل بين القوتين المصرية والحثية إثر انتهاء عصر الاصلاح الديني في مصر ، فخلال فترة الاصلاح الديني (القرن الرابع عشـر ق.م) وقع قسم هام من سورية في يد الحثيين • ثم حصلت بعـد ذلك معركة قادش غير الحاسمة بين الحثيين والمصريين • وتوطد السلم بتقاسم النفوذ فعرف الساحل الكنعاني فترة ازدهار وقامت المبادلات التجارية مع مصر ومع الدولة البحرية الميسينية ، حيث نجـد الأثر المصري والميسيني في الفـن الأوغاريتي وفي عمـارة المدافن والتحصين، كما أن السوريين والمنتجات السورية قد غزت مصر مع المعتقدات السورية والمصطلحات الفنية ، خاصة في الحرف الخشبية، وكان من الحرفيين السوريين « صناع العربات والاثاث ، والنجارون »(٦) •

وفجـأة • وفي بحر القرن الثالث عشر قبـل الميلاد (أواخر عصر البرونز الحديث) تنهض في رأس ابن هاني على مرمى البصـر مـن وأغاريت ، مدينـة أوغاريتية الريازة والتحصين والتقاليد الدفنية، كنعانية اللسان، تمتد على الجانب الأكبر من القسم الصخري الحالي مـن الرأس تحمـل في الأرجـح اسم **أوغاريتيم** (أوغاريت البحر)(٧) أو اسم **ألفو** (وتعني الانف) ، ولربما اسم **بيروتي** (وتعني الآبـار)(٧) ينشئهـا أحـد ملـوك أوغاريت **أمشتمرو الثاني** وتقيم فيهـا ، أو في أحـد قصورها ، أمـه الملكة الأمورية الأصل **أحت ملكي** • انه والحـق لمشروع ضخم استهدف اقامة مدينـة ملكية فسيحة الارجاء منيعـة الجانب ، بعد أن ضاقت أوغاريت بما رحبت وتكاكت بيوتهـا وتراكبت •

واذا كان قد حصل في الرأس ، طبيعيا ، ما يسهّل السكن فيه ، فان ثمة أسبابا كثيرة أخرى ، غير ضيق المساحة ، اقتضت الابتعاد عن العاصمة • وهي قد تكون من طبيعة سياسية (نزاع بـين مختلف الولاءات) واجتمـاعيـة (تتعلـق بالتشـكيلـة الطبقيـة والطـابـع الكوزموبوليتي للعاصمة) واقتصادية (أعقبت فترة الحـد الأقصى مـن الجهـد الاقتصادي والسياسي فترة أزمة لها أسباب داخلية ودولية) وذلك كلـه ، فضلاً عـن النزاع الحاد داخل البلاط ونزاع الأخوة(٨) • ومهما كان مـن أمر السبب أو الاسباب لانتقـال البلاط أو جزء منه الى رأس أو جزيرة على البحر ، فان الوجود على تماس مباشر به، في مملكة تعتمد أساسا على التجارة البحـرية ، لأمر منطقي ومعقـول •

ان القصرين اللذين عرفناهما حتى الآن في ابن هاني مشيدان بأسلوب السطوح المتدرجة نحو البحر والقائمة على الجدران المرتكزة على الجروف الصخرية • وهما موجهان بالزوايا الى الجهات الأربـع وفـق الأسلوب البابلي • وفيما عـدا ذلك لهما كـل تفاصيل العمارة الأوغاريتية في الجدران والباحات والفسقيات والابـواب والأعمـدة والتـدعيـم بالخشب والتحصين بالميول وبانشاء شبكات المياه أخذا وصـرفا •

القصر الأول : (الجنوبي) :

ذو العمارة الأضخم مفرغ من أثاثه او مهجور أو غير مكتمل وله سور شرقي ويقابل سور أوغاريت الغربي ويماثله تماما وهـو يمتـد حتى يشمل الحد الشـرقي للبلـدة الاوغاريتية ، كلهـا •

القصر الثـاني :

بدلالة المحفوظات التي عثرنا عليهـا فيه ، وبدلالات أثرية أخرى كان يخص ، كما ذكرنا مـن قبـل ، الملكة أحتت ملكي أم الملك أشتمرو الثاني وما كانت تقيم فيـه فحسب بل وتشرف فيه أيضاً على صناعات شتى عرفنامنهـا معالجة النحاس وصهره وصبه وحـك وتهيئة الحجارة الكريمة ونقش العاج والمعظم · ولربما استخراج الأرجوان ·

كان لهذه الملكة الصناع التاجرة مجمع صناعي يستخدم تقنيـات ما كنـا نعرفها في أوغاريت مما قبل منها استخدام الكورندون المسحوق (إيمري) في حـك الحجارة الكريمـة وثقبهـا ، ففي الحجرة رقم (٤٥) وحـدهاوجدنا كمية من هذه الحجارة الصلبة الثقيلة تقترب من ثلاثمائة كيلو غرام· وهناك صدى لاستخدام هـذا الحجر في قصيدة مـن بـلاد الرافدين تعود للألف الثالث ق.م وكان يسمى شـامو(٩) · ومـن هـذه التقنيات استخدام الرصاص في تخليص النحاس من الشوائب ·وكانت هذه الطريقة تعتمد على مزج النحاس بالرصاص على نار هادئة ليذوب الرصاص أولا' ويتسرب حاملا معه كـل الشوائب · وكان الظن من قبل أن هذه الطريقة لم تعرف قبل العصر الروماني(١٠) ·

كان النحاس بعد التصفية يصب سبائك على شكل جلـد ثور لتكون وسيلة للدفـع في المبادلات التجارية الدولية ، ولقد عثرنا في الجناح (رقم ١٧) على أحد القوالب الحجرية المخصصة لصنع سبائك النحاس (طول الحجر ١٥٤,٦ عـرض ٧٩,٥ ، فـراغ القـالب ٦٧,٢ × ٣٥,٩ × ٥;٩ سـم ويمكـن أن يصنع سبيكة تزن بـين ٢٠ـ٣٠ كغ) وهـذا القالب هو الوحيد المعروف في العالم حتى الآن· كمـا عثرنا في الغرف المجـاورة (رقـم ١٨ ورقم ٢٦) على أجزاء من كير النفخ والبوتقة ومـن نفايات تصفيـة النحـاس · وفي أيام أوغاريت ، بداهـة ، لم يكن هذا القالب هو الوحيد في رأس ابن هاني وأوغاريت نفسها ومملكتها وفيه على أية حال دلالة قاطعة على دور أوغاريت في تجـارة المعادن وانا لنعرف مثـل هـذه السبائك بـين هدايا الكنعانيين لفراعنة(١١) مصر الذين كانوا يعتمدون على قبرص وعلى منطقتنا في الحصول عليه حـين كان النحاس آنـذ بعـد مزجه مع القصدير وغيره المادة الأساسية لاستصناع السلاح وكل اللوازم المعدنية للعمل والعيش فضلاً عـن قيمته كنوع من النقد · ونظراً لأهمية النحاس فان معالجته وصبـه كانت مهنـة نبيلة على جانب كبير مـن الأهمية حـتى انها في قبرص كانت تتم في المعابد وبحماية رب خاص(١٢)·

ان قبرص جزيرة النحاس ومناجمه ، ومنها اشتق اسمه Kyprus . ولكـن في القرن الثالث عشر ق·م كانت صناعة صب قوالب النحاس فيها تعاني من أزمة تعطل تام ، ونجد ملك مصر رعمسيس الثاني (١٢٩٠ـ١٢٢٤) يطلب كمية غير محدودة من النحاس من ملك قبرص ، الذي يجيبه « لا تستأ من قلة النحاس فمنذ قضـى الطاعون في بلادي على الناس لم يعد هناك من يصب النحاس(١٣) » ·

كانت مملكة أوغاريت وقتئذ ، وبخاصة مدينتها البحرية الجديدة ، في طليعة مزودي النحاس في شرقي البحر الأبيض المتوسط واننا نرى الملك الأوغاريتي أمشتمرو الثاني يذكر

هودة أحد مراكبه من بلاد لا يمكن أن تكون إلا كابتوري او كفتور (كريت)(١٤) • وان المرء ليستنتج أن مثل هذه المراكب كانت تحمل ، فيما تحمل ، النحاس • وكانت العلاقات متينة مع قبرص في هذا الوقت بالذات • وذلك يعكس مصالح أساسية تتعلق بتأمين الفلزات الخام للنحاس منها بالاضافة للأمانوس(١٥) ثم ان قبرص كانت من ناحية ثانية تقوم بدور مركز تبادل ففيها تفرغ أحيانا المحمولات القادمة من مرافىء كنعان في مراكب قبرصية أو إيجية وبالعكس • على أن المركبين الغارقين المكتشفين في السواحل التركية (رأس جيليدونيا ورأس كاش) اللذين كانا يحملان سبائك النحاس كانت سبائكهما كنعانية (فينيقية) اذ ان شكلها يختلف عن المعروف في قبرص واليونان وكريت •

ان المركب الغارق في جيليدونيا على الشاطىء الجنوبي لتركيا فيه ٣٩ سبيكة نحاس على شكل جلد ثور و ٣٠ على شكل عدسي و ١٩ بشكل مستطيل فضلاً عن سبائك القصدير ومحتويات محترف كامل ومختلف الأدوات والوزنات • وهذا المركب هو مركب كنعاني غرق حوالي ١٢٠٠ ق•م ، وانتشل محتوياته ج• باس و ب• ثروكمورتون(١٦) في الستينات ، وقد بين الفحص الجديد لنحاس السبائك في هذا المركب الغارق أن النحاس المستخدم مستورد من مناجم شتى فالسبائك عرفت في كل المتوسط الشرقي ، من اليونان بل حتى من صقلية وسردينيا حتى فلسطين • ومن المحتمل أن هذا المركب الكنعاني كان يحمل سبائك من مصادر مختلفة • والبعض يرى أن ثمة متعهدين كانوا يشترون النحاس ويبيعونه في موانىء البحر المتوسط الشرقي(١٧) •

والمركب الغارق في أولوبورون (قرب رأس كاش على شواطىء تركيا الجنوبية) هو من القرن الرابع عشر ق•م ويحمل أكثر من مائة سبيكة نحاس وسبائك من القصدير وعشرين قرصاً زجاجياً وستاً وثلاثين جرة كنعانية فضلاً عن أشياء اوغاريتية كثيرة منها حاملة سراج ويرجح أن المركب كان ذاهباً من أوغاريت بالذات أو من مرفأ مماثل(١٨) •

وطالما نحن بصدد المراكب نذكر أن مملكة أوغاريت كانت من أقوى الدول البحرية وأسطولها البحري كان يضم حوالي ١٥٠ مركباً (ينقل بعضها ٥٠٠ طن؟)(١٩) هذا وقد عثرنا في حجرة المحفوظات (رقم ٢٩) في القصر الشمالي برأس ابن هاني على الرقيم ٢٢/١٩٨٣ الذي يدور موضوعه حول صرف مبلغ من المال لتحرير مركب أوغاريتي محتجز في كركميش (جرابلس على الفرات) • كان لأوغاريت اذن علاوة عن المراكب البحرية مراكب على الفرات • والفرات طريق الرافدين وسورية الداخلية وفي هذه الطريق ينقل اللازورد والأختام (الكاشية) والعاج المنقوش والحلي وتتجمع في مستودعات أوغاريت وتسير مع سبائك النحاس باتجاه بلاد اليونان فتعود محملة بالخزفيات الميسينية والقبرصية الفارغة والملأى لتباع في أوغاريت والمرافىء الكنعانية الاخرى وتلج داخل البلاد عن طريق الفرات أو الطرق البرية(٢٠) •

هذا هو حديث أحد الرقم في محفوظات القصر الشمالي بابن هاني ولكن لدينا حتى الآن مائة رقيم ورقيم مسماري أوغاريتي من مدرسة الكتاب الأوغاريتيين نفسها وعدد آخر من الرقم المحررة بالأكادية ــ البابلية أحدثت ثورة في علم الأوغاريتيات • وبعضها في رأي

حجـة الاوغاريتيات الأستاذ كاكو جدير بأن يبقى دوما تحت وسـادة الاختصـاصـيين ٠ وهذه الرقم على فئات :

الفئـة الأولى :

مراسلات بين سكان القصر وسلالة أوغاريت ومن ذلك رسالة **أمشتمرو الثاني** الى أمه **أحت ملكي** زوجة **نقمبا الثاني**(٢١) ٠ وهنـا نذكر تواتر اسم الملكة فثمة ذكر لكاتب الملكة وقرابـين الملكة وأرباب الملكـة ٠ وفي هـذا السياق نشـير للمثور على طبعـة ختم للملك **أمشتمرو الثاني** نعرفه من قبـل أوغاريت نفسهـا(٢٢) ٠

الفئـة الثـانيـة :

مراسلات مـع حكام بلاد خارج مملكـة أوغاريت (ملك مصر وملك الحثيين مثلاً)(٢٣) ٠

الفئـة الثالثـة :

نصوص دينية فيها معلومات جديدة عن عوالم الارباب الكنعانية القـديمـة ، أسماء أرباب جدد(٢٤) ٠ وطقوس جديدة وشيء من الأساطير التي كانت من مصادر الفكر الديني في المنطقة وفي العالم ٠ ونعرف في هذا المجال أن الرفاييم هم الملوك القدامى المؤلهون(٢٥) ٠

الفئـة الرابعـة :

نصوص معجمية سومرية بابليـة فيها قـوائم مواقع جغرافيـة وأسماء كواكب ٠ وثمـة نصوص أوغاريتية فيها أسماء اسر وقرى وحصص السخرة الملكية وقوائم صناع بينهـم ملقحو النخيـل وحراس الرجـال الرسميين ٠

الفئـة الخامسة :

وهـي أكثر ما في حجرتي المحفـوظات(رقـم ٣٥) و (رقـم ٢٩) وهي محفوظـات الديوان التجاري في القصـر ويستشف منـه أسلوب العقود ٠ وكان هـذا الديوان فيمـا يظهر بادارة موظف كبير يسمى **ماتينو** ولعله الشخص المعروف في أوغاريت باسم كبير خدم الملكة ٠ وكان البيع يشهد عليه الماتينو وهو شاهد البائع أي المؤسسة التجارية **والصوري** وهو شاهد المشترين يمثـل **بعلي مشلمي** أي سيد الدفـع (التسليم) وثمـة عربون يدفع (عربون في الاوغاريتيـة) ٠

وعند هذا الحد من المعلومات والاستنتاجات التي وقفنا عليها مبدئيـا نقف لنقـول وكيف كانت خاتمة هذه المدينة الأوغاريتية الجديـدة ؟ ان الخاتمـة هنـا واضحة بشكل لا يـدع مجالاً للأخذ والعطاء فلا زلازل ولا أحداث طبيعية ٠ والقصر الجنوبي أفرغ من محتوياتـه أو توقف إكماله أو تعديله ٠ وليس فيما تبقى منه ما يـدل على انهيار أو بوار ولا نظن شخصيا أنه أحرق ٠ ولعل هجرة تم بنصيحة ملك قبرص (الاشيا) الذي حذّر ملك أوغاريت مـن غزو شعوب البحر(٢٦) ٠ وإذا كان القصر الجنوبي قد أنقذ فان القصر الشمالي وقـع فريستهم فهاجمـوه ونهبـوه وأحرقوه ، وحفروا أرضيات غرفه بحثاً عن

الطمائر • وآثار الحريق واضحة في كسوة الجدران والارضيات وفي الخشب المتفحم والرصاص الذائب(٢٧) • فمن هم شعوب البحر ؟

ان اسم « شعوب البحر » أطلقه المصريون على جماعات تحركت من جهات بحرية (هي دولة ميكيني وما جاورها) وكانت تضم محاربين أشداء منظمين نسبياً أسقطوا مملكة الحثيين ومملكة كركميش ومملكة أوغاريت ومدائن الساحل السوري ووصلوا مصر في عهد رعمسيس الثالث فتباهى هذا الفرعون بردهم الى فلسطين ، وملأ بأخبارهم ، نقشاً وكتابة، معبده المعروف في مدينة حابو قرب طيبة وترك عنهم كذلك كتابة في معبد الكرنك • وقد ذكر من جماعاتهم البيليست « اي الفلسطينيين » والتييكر والشبكيليش والدنيين والويويش • وتتوضح أشكالهم من نقوش معبد مدينة حابو مع أسرهم وجماعات منهم قادمة براً في عربات تجرها الثيران • وثمة تفاصيل عن كل جماعة ، من حيث أزياؤها وسلاحها وعرباتها وقطعانها الخ •• لقد شكلت جماعات شعوب البحر في فلسطين اتحاداً له عواصم خمس وصدوا العبرانيين عن الساحل ، وكانوا مهرة في التمدين وفي ركوب البحر والقرصنة • ويصنعون نماذج متأخرة من الفخار الميسيني •

ان جماعة شعوب البحر هاجمت أوغاريت ودمرتها جزئيا او كليا • كما هاجمت عاصمتها الجديدة في ابن هاني • ولكن المهاجمين رحلوا عن أوغاريت فيما يظهر واستقروا في رأس ابن هاني في بيوت تختلف من حيث القياس والمخطط عن المألوف في مملكة أوغاريت ، ولا مثيل لها على الساحل السوري ، بينها طرق تتعامد بزوايا قائمة ويصنعون أو يصنع لهم فخار بخاصة من النوع المعروف باسم ما تحت الميسيني (III C 1) مما يعثر على أمثاله في اليونان وقبرص (أنكومي وكيتيون) وطرسوس (في الأناضول) وأشدود وعسقلان في فلسطين • هذا الفخار من مطلع القرن الثاني عشر ق•م (قد يكون الفخار غير مستورد ولكن الفخارين مستوردون) كما ان لدى السكان الجدد في ابن هاني نوعاً من الفخار ذي اللونين يشبه الفخار الفلسطيني المعاصر له وخاصة المزين بأنصاف الدوائر المشتركة في المركز •

أصبح من المؤكد أن بعض أفواج « شعوب البحر » القادمة بحراً وبراً والتي تركت في أوغاريت سحب الدخان استقرت بعد النهب والحرق في بعض أطلال المدينة الاوغاريتية في رأس ابن هاني ثم ابتنت فوقها بيوتها الخاصة • وهناك صنع « خزافوهم » او كلفوا صناع الفخار الكنعانيين المحليين صنع فخار على ذوقهم من النوع المعروف بالميسيني (LH III C 1) .. ان منطقة سورية الشمالية الساحلية وقبرص وفلسطين تأثرت بشكل متماثل تقريباً وتولدت فيهما فئتان جديدتان من الفخار ان لم تكونا متماثلتين فانهما متشابهتان جداً ومتأثر كل منهما بالوسط الكنعاني الموجودة فيه • ان هذا الوسط الكنعاني أذاب شعوب البحر تماماً واستمر في سيره الحضاري وازدهر من جديد في أرواد وصيدا وصور وفي قرطاج وعالم المتوسط حتى اسبانيا وعلم كل البحر المتوسط الأسس الرئيسة لحضارة اليوم ، وظل يحمل اسم كنعان حتى العصر الروماني •

واخيراً ان رأس ابن هاني ، كما يبدو لنا هو في المكان الاول من حيث الأهمية لتعميق المعرفة باوغاريت ودولتها ولتصور أثري وتاريخي صحيح للساحل الكنعاني ولمنطقة البحر المتوسط ٠

ومن النادر أن نصادف في آسيا الغربية موقعاً يمكن أن يتابع الآثاري فيه شريحة متماسكة وكاملة وموثقة تبدأ من النصف الثاني للألف الثاني ق٠م على الاقل) وتستمر حتى القرن السادس الميلادي ويضم بعض السويات المجهولة تماماً في أكثر المواقع المعروفة حتى الآن في بلادنا ٠

★ ★ ★

☐ الحواشي :

١ ـ راجع : G. SAADE, Histoire de Lattaquieh, Ramitha, Damas (1964) .

2 — H. KLENGEL, Near Eastern Trade and the Emergence of Interaction with Crete in the Third Millennium, in "Studi Micenied Egeo-Anatolici", Fasc. XXIV, Roma (1984), p. 17.

٣ ـ المرجع السابق ص ١١ ـ ١٢ ٠

4 — N. K. SANDARS, Les Peuples de la Mer, Paris (1981), p. 21.

وهو مترجم عن الانكليزية وقد صدر في لندن ١٩٧٨

5 — J. C. COURTOIS, Ugarit dans Supplément du Dictionnaire de la Bible, pp. 1147-1148.

6 — P. MONTET, Les Reliques de l'Art Syrien, dans l'Egypte du Nouvel Empire, Paris (1931),, pp. 163-164.

7 — D. ARNAUD, La Lettre Hani 1814 et l'identification du site de Ras Ibn Hani (Syrie), Syria, LXI (1984), p. 15-23.

٨ ـ صفية سعادة ، اوغاريت ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٨٨ ـ ٩٠ والمراجع التي استضفتها في الحواشي ٠

9 — P. BORDREUIL, J. & E. LAGARCE, A. BOUNNI, N. SALIBY, SRAI, avril-juin (1984), pp. 413-414.

١٠ ـ المرجع السابق ٠

١١ ـ في القبور المصرية مشاهد لسوريين وايجيين يحملون سبائك شكلها مثل جلد الثور ومن ذلك مشهد من قبر الوزير (ر ح مي رع) من عهد تحوتمس الثالث (القرن الخامس عشر ق٠م) ٠

١٢ ـ فقد وجد في تلك المعابد كثير من البواتق ومن الخبث والرماد المتخلف من صهر فلزات الرصاص راجع المرجع المذكور من قبل N. K. SANDARS, p. 40 .

وعن رب السبائك يراجع :

H. G. BUCHHOLZ & V. KARAGEORGHIS Altagais und Altkypros, Leipzig (1972), able. 1741

13— N. K. SANDARS, p. 46.

14— N. K. SANDARS, p. 38.

١٥ ـ ان التحاليل التي أجراها لنا غال من جامعـة اكسفوردوسفيكر من جامعة ارلنغن في المانيا الاتحادية تدفع للاعتقاد بان قبرص كانت المورد الأول للمواد الخام على ان قبرص ليست سوى امتداد لجبال الامانوس .

16— M. A. EDEY and the Editors of Time and Life Books, The Sea Traders. (بدون تاريخ)

17— R. MADDIN, J. D. MUHLY & T. STECH-WHEELER, Researche at the Center for Ancient Mettalurgy, "Paleorient" 6, (1980) 1981, p. 111.

١٩ ـ N. K. SANDARS, p. 38 ، على اننا نرى التحفظ في قبول هذا الرقم .

٢٠ ـ يقول كلنغل « ان العلاقات بين الشرق الادنى وبحر ايجه بلغت ذروتها في عصر البرونز الحديث ، عندما تسلمت ميكيني الدور القيادي الذي كان لكريت ، وعندمـا أصبح المتوسط الشرقي مركز الاحتكاك السياسي والنمـو الاقتصـادي والتبادل الثقافي » . H. KLENGEL, The Eastern Trade, p. 17.

٢١ ـ سنوية الكوليج دوفرانس (١٩٧٩) ص ٤٨٤ الرقيم رقم ١٩٨٧/١٢ وآخر شيء في هذا الصدد هو قيد الطبع في مجلـة سـوريـا .

22— P. BORDREUIL, Le Sceau nominatif de A MMIYIDTAMROU roi d'Ougarit Syria LXI (1984) 1-2, pp. 11-14.

٢٣ ـ الرقيم ١٩٧٨/٣ وفيه ذكر لاوغاريت البحر .

٢٤ ـ الرب شعلدش (الرقيم ١٩٧٧/٢١) والرب ال اب (الرقيم ١٩٧٧/٢٦) .

٢٥ ـ الرقيم ٨ آ ١٩٧٧ .

٢٦ ـ جان نوغايزول ، اوغاريتيكا ، ١٩٦٨ (مراسلات ملك قبرص) ص ١٩٥ . ومن أجل مزيد من المعلومات عـن غزو شعوب البحر يراجع تقريرنا عن التنقيب في ابن هاني ، سوريا ، العدد ٥٦ (١٩٧٩) ص ٢١٧ ـ ٢٩١ .

٢٧ ـ ونجد ملك اوغاريت يقول ان المراكب العدوة وصلت واشعلت النار في مدني والحقت اضرار كثيرة بالبلاد . اما كنت تعلم يا ابي ان كل قواتي معسكرة في بلاد الحثيين وان كل مراكبي في كيليكيا .. لقد تركت البلاد تلاقي مصيرها : تامل يا ابي سبعة مراكب عدوة رست وسببت اضرار فاحشة وهناك الآن مزيد من المراكب العدوة .. اعلمني ماذا اصنع أو على الأقل لا تدهش اذا حصل المزيد (لم تتم الرسالة ، وبالتالي حصل الهجوم العام وقضى الذي قضى) .

★ ★ ★

لمحات .. من أدب أواخر العهد العثماني في مدينة حمص

عبد الإله نبهان

هذه باقة من الحديث عن بعض شعراء حمص في نهاية العهد العثماني، لم اشا ان تتخذ طبيعة البحث في اتجاه واحد ، ولكني أردت لها ان تكون حسوة طائر ولمحة عابر ، انها المامة السائح العجلان يلاحقه نفير القطار والحاح المسافرين ·· فالى بعض المعالم لاكلها ·· ولعل المامة اخرى واخرى تتيح لنا الولوج الى الخبايا والزوايا ···

الحديث عن أدب القرن التاسع عشر فيحمص خاصة وبلاد الشام عامة حديث ذو خصوصية ، فليس موضوعه ذاك الموضوع الممتع المشوق ، ولا أفقه ذاك الأفق الرحيب المترامي الآفاق الذي يجذب اليه المتشوق الظامىء ، وليست فيه تلك الومضات الذكية الرائعة التي تعجب بها العقول ، ولا تلك العوطف الدافئة التي تستكين اليها النفوس ·

هذه الأحكام السلبية التي بدأت بها كلامي قد تكون صادقة على العموم ، ولكن أيضاً قد لا تكون شاملة على الرغم من صدقها، فالباحث لا يمكن أن يفتقد في خضم ذلك الأدب بصيص نور هنا وقبساً من النارهناك، وان من الصخر لما يتفجر منه الأنهار · واذا كنا لا ننتظر أنهاراً ولا سواقي تتفجر من شعر شعراء ذلك القرن ، ولا نتوقع بزوغ شموس منهم في سماوات الشعر وآفاقه ···فاننا لا نعدم لديهم بعض الدفء والاخلاص نلمسه ونحسه في مقطوعات من شعرهم وخاصة في شعر التوسليات والمدائح النبوية والقصائد ذات المنحى الصوفي ·

ونعود الى مدينة حمص والى تاريخ الأدب فيها : يخبرنا الأستاذ المرحوم رفيق فاخوري(١) في مقالة له أن النشاط الأدبيبدأ يدب في حمص منذ عام ١٩٣٠ أو قبله بقليل ، أما الزمن الذي سبق هذا التاريخفقد وجد فيه أدب لا يسمو على مستوىالأدب

العثماني الا بمقدار ٠٠٠ فالعقم والكلفة يسودانه ، وربما فضله أدب عصر الانحطاط من حيث الشكل وسلامة التعبير(٢) ٠٠ويمكن أن نضيف الى قول الأستاذ الفاخوري قولنا : ان تفاهة الموضوعات هي غالباً ما يتسم به شعر تلك المرحلة وأدبها الا ما نجا لسبب أو لآخر ٠

ومن الجدير بالذكر ههنا أن شعر شعراء حمص في تلك المرحلة من الصعب جمعه ، فباستثناء ديوان الشيخ أمين الجندي وديوان مصطفى زين الدين لا يوجد بين أيدينا أثر آخر مطبوع الا ما قام بنشره ميخائيل بطرس معماري من شعر بطرس كرامة(٣) وابراهيم الحوراني(٤) ولم أقف عليهما ، أما الآثار الأخرى فهناك ديوان تام حصلت على مصورة له من الظاهرية بدمشق وهو ديوان محمد درويش عجم(٥) ، وهناك ديوان عمر نبهان الموجود لدي مخطوطاً ٠٠ وأخبرني الأستاذ عبدالمعين الملوحي أن لديه مخطوطاً يشتمل على شعر الشيخ زكريا الملوحي ولم اره ٠٠ أما سائر القصائد لسائر الشعراء فهي موزعة في كناشات لدى الأسر ، وبعض الأسر ضنين بها حريص عليها ٠٠ ولكن ذلك الحرص لا يستمر في الأجيال الجديدة ولا ينتقل اليها ــ وقد يكون الحق الى جانبها ــ مما يؤدي الى ضياع كثير من آثار شعراء المدينة في ذلك العصر واندثار أخبارهم ٠

ومن الملاحظ التي يجب تقديمها أن أولئك الشعراء كان جمهورهم من فئة العلماء ، علماء الدين ، الذين لهم مشاركة في عدد من فنون العلم كالفقه والأصول والمنطق والقراءات ٠٠٠ وكان الشعر لديهم مظهراً من مظاهر البراعة والتميز من الآخرين ٠٠ فالشيخ العلامة خالد الأتاسي(٦) معروف في تاريخ الفقه والقانون بشرحه العظيم للمجلة(٧) ، ولكنه كان يقول الشعر ، والشهيد عبدالحميد الزهراوي معروف بعمق ثقافته الحكمية والفلسفية والفقهية والسياسية وكان يقول الشعر وقد يرتجله ، وعلمت من الشيوخ ان له ديواناً أتلف برميه في البئر لدى مداهمة الأتراك لبيته ٠٠ وقل مثل ذلك في سائر الشعراء في تلك المرحلة ، فقد كان معظمهم من حملة العلم ونقلته وملقنيه الى الأجيال التالية ، ولم يكونوا من الشعراء أصحاب الرؤية النفاذة الخلاقة ولا من أصحاب الريادة والابداع ٠٠ وأرى أن مثل هذا الحكم لا ينطبق على حمص وحدها وانما يمكن تعميمه على بلاد الشام ، فقد كان الشعر الحي الخلاّق مفقوداً الا من بعض الومضات ، وكانت سورية كما يقول الأستاذ أحمد الجندي(٨) : عالة في الثقافة الأدبية والانتاج الفني على مصر ، ومرتبطة بها ارتباطاً أدبياً وثيقاً ، ولم يكن لدينا شاعر يحسب حسابه ، وشعراؤنا آنذاك لم يتأثروا بأحد ولم يؤثروا في أحد ، بل كانوا ينضحون من ذاكرتهم ما وعت من المحفوظات ينظمونها مجدداً ٠٠ أو في قالب آخر دون أن يتكلفوا ايراد معنى نفيس أو خيال طريف ٠٠٠ لأن الهامهم الشعري كان مقصوص الجناح مهيضاً لا يستطيع الارتفاع والسمو الى الأجواء العالية ، فكلهم قد تعلموا النظم ، ولكنهم لم يلهموا الشعر ، لذلك يمكننا أن نعد عشرين واحداً منهم ممن يجيد النظم ، ومع ذلك قد لا نحظى بقصيدة واحدة لهم جميعاً تستحق تسميتها بالشعر ٠ ولكن اذا كانت هذه الأحكام صحيحة أو على قدر

محدود من الصحة فما فائدة تتبع أخبار هؤلاء الشعراء وما الغاية من الاهتمام بشعرهم أو الكتابة عنهم ؟ !

والجواب : ان ذلك الجيل يمثل حلقة من حلقات تاريخنا الأدبي قد تعجبنا أو لا تعجبنا ولكنها كانت حقيقة واقعة فهي تستحق التسجيل والحفظ والبحث والدرس ولها ما لها وعليها ما عليها ، وهي على كل حال كانت مرآة لعصرها ، واذا كان ذلك العصر يتصف بالخمود والخمول فمن أين التألق والصفاء ؟٠

ويجب أن نذكر أن شعراءنا في تلك المرحلة كانوا علماء شعراء في عصر يعز فيه وجود القارىء الكاتب ربما في حي بأكمله أو في أسرة بقضها وقضيضها ٠٠ فآثارهم اذن هي من أهم ما تبقى لنا من آثار عقلية لجيل كامل ٠ زد على ذلك أن كثيراً من الأحداث المحلية كاقامة بناء ما أو مجيء والٍ أو رحيل باشا أو حدوث شغب ٠٠٠ كل ذلك كان يسجل في الشعر ٠٠ فشعرهم بغض النظر عن قيمته الأدبية يتضمن فوائد تاريخية واجتماعية وأثرية ٠ هذا ولعل ولوجنا حرم أولئك الشعراء ومخالطتنا لشعرهم سيعدل من أحكامنا العامة القاسية تجاه بعضهم على الأقل ، وسأختار بعض شعراء ذلك العصر وأتحدث بايجاز عن كل واحد منهم ، وسأبدأ بأعرفهم وأكثرهم شهرة وشيوع ذكر ، أعني بالشيخ أمين الجندي ٠

□ الشيخ أمين الجندي :

ولد في حمص عام ١٧٦٦ م وبها تلقى علومه الأولى على الشيخ محمد الطيبي والشيخ يوسف الشمسي ، وتابع تحصيله في دمشق على يد عدد من علمائها كالشيخ أحمد العطار وعبد الرحمن الكزبري وغيرهم ، وله فيهم قصائد مديح رنانة ٠ وعرف الشيخ بتعلقه بآل الكيلاني ومديحه لهم ٠ ولما جاء ابراهيم باشا سنة ١٢٤٧ هـ قرّب الشيخ أميناً اليه وجعله نديمه ، وكان الشيخ ينظم القصائد مصوراً انتصارات ابراهيم باشا وهزائم الأتراك :(١٠)

هذا ولما فاض جور الترك في ... ظلم العباد وصار أمراً مشكلا
وتظاهرت أعمالهم بمقاصد ... ومظالم وحوادث لن تقبلا
سلبوا البلاد من العباد فلا ترى ... في حكمهم ذا نعمة متمولا
والملك ملك الله يؤتيه الذي ... قد شاء لا هو بالوراثة والولا
من يخبر الأتراك أن جيوشهم ... هزمت وأن « حسينهم » ولّى الى

وقد لا تكون لهذا الشعر أهمية فنية ،لكن الخطورة فيه آنذاك والأهمية الكبرى أنه أنكر حق الأتراك في الحكم وجعلهم من المتعصبين له ومن المحرّفين لكتاب الله ، وقرر أن الحكم انما هو للعرب ، لذلك شن حملة شعواء في هذه القصيدة على أنصار الأتراك

من العلماء السائرين في ركابهم ، والذين يزينون أعمالهم على أنها هي الحق ويشاركونهم في ارتكاب المظالم :

ومشايخ الاسلام أصبح جهلهم علمًا فلم تر قط منهم اجهلا
وقضاتهم للسحت قد أكلوا فهل أبصرت حيًا من مضرتهم خلا
زعموا أولي الأمر الولاة وغرهم في الآية الاصفا لمن قد أولا
نعم الخلافة في قريش أصلها وبها لقد جاء الحديث مسلسلا

ولا شك أن هذا صوت نادر آنذاك ، لقيمته القومية وان كان فجا من الناحية الفنية • وقد سافر الشيخ أمين الجندي الى القاهرة صحبة ابراهيم باشا الذي قدمه الى والده محمد علي باشا بقوله : أتيت لك باعز هدية من البلاد الشامية • وأنشد الشيخ الجندي بين يدي محمد علي قصيدة امتدحه بها ، ابتدأها بغزل جمع فيه ما استطاع من السابقين :

بدت شمسا وماست سمهريا وغنت بلبلا ورنت ظبيا
وسلت من لواحظها جهارا على العشاق عضبا مشرفيا
مهاة ما رآها البدر الا تمنى أن تكون له محيا
سرت والنور يغشاها سحيرا وعرف المسك يصحبها مليا
وسرت وراءها وأنا سعيد بلثمي نعلها الرطب الذكيا

وبعد أن لثم نعلها وصل الشيخ الى ما يسميه علماء البديع بحسن التخلص فانتقل من الغزل الى المديح :

الى أن أجلستني فوق عرش لدى قصر حوى روضا بهيا
ذكرت لها الافاضل فاستهلت بمن لأبي الحسين غدا سميا
اماما عارفا برا تقيا خفاجيا كريما اريحيا

ويستمر بايراد معاني المديح مستعرضا ما وعته ذاكرته •• ولا أريد أن أطيل في الحديث عن الشيخ الجندي لأن حياة الرجل وشعره ومواقفه يمكن أن تقصر حديثنا عليه وما الى هذا قصدنا ، لذلك سأختصر حديثي باشارات سريعة الى ما أراه هاما في شعره •

لا شك في أن الشيخ كان مشغوفا بالجمال ، ذا قدرة رائعة على النظم ، ولكن سلاسل التقليد الشعرية كانت أقوى منه ومن غيره فرسف في أغلالها ، فامتلأ ديوانه بالتخميس والتشطير واستخدام مصطلحات العلوم التي كثيرا ما أساءت الى الشعر وسلبته تدفقه

وحيويته .. ومع ذلك ففي ديوانه ومضات وللموسيقاه نفثات ومن منا لا يطرب لقول الشيخ ترتله حناجر المنشدين :

يا غزالي كيف عني أبعدوك ... شتتوا شملي وهجري عودوك

★ ★ ★

قلت : رفقا يا حبيبي قال : لا ... قلت : راعِ الود يا ريم الفلا

قال : من يهوى فلا يشكو البلى ... قلت : حسبي مدمعي لي قال : لا

★ ★ ★

ذاب قلبي في هوى بيض اللمى ... واستهلّ الدمع من عيني دما

ثم ودعت حياتي عندما ... فارقوني . يا ترى كيف السلوك

ومن لا يترنح مع ضربات الايقاع على قوله :

هيمتني تيمتني ... عن سواها أشغلتني

عاتبي ماذا عليها ... باللقا لو اتحفتني

ولا يزال شعره يغنى حتى أيامنا ، وسمعت أن أصحاب هذا الفن في حلب يعتنون بادوار الشيخ الجندي عناية فائقة .

واترك الشيخ الجندي وأنتقل الى الحديث عن شعراء لم تطبع دواوينهم ، وقد عاش أكثرهم وتوفي في القرن التاسع عشر ، وأحدهم كان مخضرماً بين التاسع عشر والعشرين، ولكنه في أشعاره لم يكن سوى امتداد لما كان عليه الشعر قبله على الرغم من معاصرته لشوقي وحافظ ولغيرهم من مبدعي الشعر . وسأذكرهم حسب تسلسل وفياتهم الأقدم فالأقدم وسيكون المقدم ذكره الشيخ زكريا الملوحي .

☐ زكريا الملوحي :

هو زكريا بن ابراهيم بن علي الملوحي ، ولد وتوفي في حمص ، ورجح المرحوم أدهم الجندي ان وفاته ربما كانت بين عامي ١٨٤٣ ـ ١٨٤٨ م . وذكر الجندي أنه لم يعثر لهذا الشاعر الا على أبيات قليلة رواها في كتابه .

وقد ساقت الي المصادفة كنّاشاً اشتمل فيما اشتمل عليه، على عدة قصائد للشيخ زكريا مما جعل ... في الامكان التعريج على شعر هذا الشاعر في حدود ما عثرنا عليه .

القصائد التي حفظها الكنّاش معظمها ذو منحى صوفي ، وهي على قلتها تدل على علو كعب الشاعر وعلى مقدرته على نظم القريض ، كما تشير الى التأثير العميق الذي أحدثته ثقافته الدينية والصوفية في شعره .

والحق أن الشيخ كان ينهج في شعره منهجا مطروقا ويسير في طريق لاحبة عبّدها من سبقه من شعراء التصوف · وأتى هو ينسج على منوالهم ، ويشطّر أشعارهم أو يخمسها، ويستخدم أساليبهم الرمزية في التعبير عن حبه للذات الالهية وذلك بالغزل الحسي في الظاهر ، وابهام هذا الغزل بالرموز التي تصرف المعاني عن ظواهرها وتشير الى المقصود منها ، وتبعد عن الخاطر تلك المعاني الظاهرة الطافية على السطح ، ولناخذ مثالا على ذلك بعض أبيات له من قصيدة« مد المديد » :

ذات حسن ذكرها سكّر   وجهها تعنو له الصور
مذ تبدّت في محاسنها   تنجلي حارت بها الفكر
ان هذا الكون مظهرها   يقظة يا من له نظر
نسبة" هذا الجمال لها   ظاهرا ، فالمبتدا الخبر

فالبداية كما نرى غزلية وعادية جدا ،ثم أتت التلميحات والعبارات التي تصرفنا عن الدلالات الحسية الى فهم ما يرنو اليه الشاعر وهو التغني بجمال الذات الالهية المتجلية ظاهرا في جمال هذا الكون ·

ويميل الشيخ الملوحي في معظم ما وجدناه من شعره الى استخدام مصطلحات العلوم التي يعرفها ، ويفسح المجال لولعه الشديد بالمحسنات البديعية ، ويتفنن في ايرادها ، ولنقف لدى هذه الأبيات : [من الطويل] ·

اريج الصبا مُرّي على حيّ من اهوى   وقولي له : مضناك اودت به الأهوا
وحييه عني يا رياح تحية   معنعنة عنها حديث الهوى يروى
وبثيه اشجاني ووجدي ولوعتي   وكيف عِناني عنه في الحب لا يُلوى
أبيت الليالي ساهر الطرف ساجيا   وروض هجوعي كله يابس أحوى
واصبح مسلوب الجنان مولها   كمجنون ليلى شارقا لا أرى الصحوا
وطور اصطباري دكه عاصف الجوى   غراما بمن اضحى فؤادي له مأوى

وأثر الصنعة أبرز من أن يخفى ، وكان الشاعر يصوغ شعره صياغة عقلية ، فهو يمد يده الى معارفه المتنوعة يتناول منها مايريد ليبني به القصيدة ، فتأتي القصيدة كأنها بناء استمدت حجارته من مقالع مختلفة ،لكن الغاية توحد هذا التعدد ، وما الغاية ههنا سوى أن الشاعر يعبر عن مواجده بهذه الطريقة التي ارتضاها لنفسه ، وارتضاها عصره لشعرائه · وقد لاحظنا استخدامه لمصطلحات بعض العلوم « معنعنة ، حديث ، يروى » كما لاحظنا كيف استمد من القرآن سورة الطور الذي دُك لمّا تجلى الرب لموسى، وأخذ من الأدب قصة مجنون ليلى الى أن وصل في النهاية الى تقرير حبه لأحبائه حتى الموت ·

وقبل أن ندع الشيخ زكريا أحب أن نستمع الى متطوعة أخرى من شعره الصوفي : [من الطويل] ٠

حبيب له بالحسن قامت شهوده   وادهش في مجلى المال شهوده

اذا شامه المشتاق أومأ بوجهه   ركوعاً ، وان حيّاه طال سجوده

باوج البها قد أشرقت شمس حسنه   ولاحت بافلاك المعاني سعوده

فما جنّة الفردوس الا لقاؤه   وما النار والأهوال الا صدوده

فهل انت يا أعمى البصيرة مبصر   من الحسن ما عيني وقلبي يروده

وفي ختام حديثنا عن الشاعر نشير الى أن الرجل كان معروفاً بلقب الحافظ لحفظه القرآن ، وكان عالماً بالموسيقا بارعاً في الخطابة ، حاضر البديهة ، له موشحات بديعة ، وقد كف بصره في أواخر حياته ، ولا يزال بعض الناس في حمص حتى أيامنا هذه يحفظون له أبياتاً في تاريخ وفاة أو ولادة أو بناء ٠ ويبدو أنه كانت له مكانته في مدينته وكانت له مشاركة ما في الحياة الفنية آنذاك ٠

□ رسلان زين العابدين : (ت ١٨٧٩ م)

انتقل الآن الى الحديث عن شاعر آخر، عرف في حياته بالأديب ، واشتهرت أسرته بسبب لقبه بآل الأديب ٠

على يمين الخارج من سوق الحشيش باتجاه الغرب ، وقد خلف وراءه مسجد القاسمي ، وتحت أقواس عقد متداعية والى الأمام قليلا تقع « زاوية » مهجورة الآن ، يتصدرها قبر الجد علي زين العابدين الذي أتى الى حمص من ناحية (أورفه) في تركيا منذ حوالي مائتي عام ، وأقام عقبه من بعده في حمص ٠

خلّف الشيخ علي ولداً واحداً هو الشيخ رسلان الذي عُرف بأدبه وشعره ولقّب بالأديب ، وقد ذكره الوفائي(١١) في تاريخه فقال فيه : « كان رجلا عالماً أديباً فاضلا عاقلا متكلماً » وكان شأن آثاره شأن غيرها من آثار معاصريه فقد آلت الى الضياع ولم يقم أحد بحفظها حتى ذووه فانهم لم يحفظوا شيئاً منها ، وبعد البحث والسؤال عثرت له على قصيدة واحدة لدى الأستاذ عبد المهيمن زين العابدين ، وهي مطبوعة في مصر وعدد أبياتها (٨٩) بيتاً ، وهي لا تختلف في شيء عن قصائد المديح النبوي المعروفة في تلك الأيام ٠ فالشاعر يحشد كل صفات المديح وأخبار المعجزات التي تنسب الى رسول الله ﷺ ويقارنها بمعجزات غيره من الرسل ثم يفضله عليهم ، ثم يخلص الى الاعتذار عن تقصيره في مديح الرسول ، وتتسم القصيدة عموماً بالركاكة الأسلوبية آفة العصر آنذاك قال :



يقولون لي : تمم لنا وصف احمد   فانك ذو علم ولست بجاهل
فقلت لهم عدّوا النجوم جميعها   ولا تهملوا عدّ النجوم الأوافل
فان تستطيعوا عدّها بتمامها   فقولوا لمثلي : صف لأكمل كامل

وينتقل الشاعر بعد ذلك الى الاستغاثة بالرسول متوسلا بنسبه الشريف طالباالرحمة ببركة النسب والقرابة :

واني لفرع من فروعك سيدي   ولي نسبة للمرتضى بالتناسل
فكم من مرة ياخير من وطيءالثرى   تداركني من كيد ضدّ مزايلي

ثم يتوسل بكبار الصحابة واحدا واحداحتى يصل الى التوسل بشيخ الطريقة القطب عبدالقادر وبسائر المشايخ كالدسوقيوالرفاعي والبدوي الى أن يصل الى حسن الختام :

وصلّ الهي كل وقت وساعة   على المصطفى نور البدورالكوامل
كذا الآل والأصحاب ما قال واقع   بباب ندى المختار حطت رواحلي

وكان الشاعر بدأ قصيدته بقوله :

بباب ندى المختار حطت رواحلي   فحاشا لطه ان يرد لسائلي
هو الحامد المحمود والحاشر الذي   هو الواصل الموصول بلخير واصل

ولا شك أن للشيخ شعرا كثيرا بدليل شهرته بالأديب ، ولكن ليس بين أيدينا غير هذه القصيدة ، لذلك يمكننا أن نقول اعتماداعليها : انه كان شاعرا عاديا لم يستطع أن يخرج عن ركاكة الأسلوب السائدة في عصره،ولكنه على كل حال يبقى اسمه ابان عصره شاعرا ـ كائنا ما كانت نظرتنا الى الشعرـبل كانت له شهرة بذلك ونال سمعة طيبة وحسن ذكر .

توفي الشيخ رسلان سنة ١٨٧٩ ودفن بمقبرة « باب هود » .

☐ **محمد عجم « ت ١٨٩٤ » :**

هو محمد بن عبدالرحمن عجم ، ذكرهالأستاذ عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ولم يذكر له تاريخ ولادة ولا وفاة ، الا أنالمؤرخعبدالهادي الوفائي ذكر أن وفاته كانتعام ١٣١٢ = ١٨٩٤ م .

هذا الشاعر جمع ديوانه بنفسه ، وذكر في مقدمته أنـه جمع شعره نتيجـة لالحـاح أصدقائه ، ويقول : أنه استنكف مرارا لأنـه ليس من فرسان هذا الميدان ، لكن مـن قبيل التقليد ـ وهذه عباراته ـ • ويستفاد مـن قراءة الديوان أن صاحبه كان يعمل موظفـا « عدّاد أغنـام » وكان يحرص علـى مديح الرسميين آنذاك •

بدأ ديوانه بقصيدة بمديح الرسول تبركا ، ثم انتقـل الى مديـح « البكـوات » و « الأفندية » فمن نماذج مديحه قوله يمدح محرّم « بيك » بن اسماعيل « بيك » قائمقام حمص سنة ١٢٩٢ هـ : [من الكامل]

ان طاب عيشك بالمسـرة اوصفا ... قبل الفوات ، فوات دهرا انصفا

خذ فرصة اللذات صاح ولا تكـن ... ممن تمنّع بـل تمتّع بالصفـا

ليـل العنـاء لقـد تـولى هاربـا ... اذ سلّ برق الانس سيفا مرهفـا

والسحب جاد على الرباء بطلّـه ... والروض في زَهَر الربيع تزخرفا

فبخٍ بخٍ طـابت مواسم أنسنـا ... والهمّ عنا قد ترحـّل واختفـى

هـــذا محرّم قد وفى لسميّـــه ... وبطالـع الاسعاد جـاد واتحفـــا

هيّـا نهنيـــه باسـرع همـــةٍ ... في خيـر عـامٍ بالمسرّة قد وفـى

ثم يستطرد الشاعر في ذكر صفات الممدوح ، فمحرم بيك ليث الشرى ودريّ اللفظ ويوسفي الحسن الى ما هنالك •••

فاذا ما انتهينا من باب المديح انتقل بنا الشاعر الى التشطير والتخميس والمطرزات ، ثم يلي ذلك الأدوار الغنائية ، فنستمع لديـه الى مثل هذه الأنغام : [مجزوء الرمل •]

يـا نسيـم الصبـح بلـّـغ ... جـيرة الشّعب اليمانـي

حـال صـبٍّ مستهـامٍ ... يرتجـي نيـل الأمانـي

يلي ذلك باب للرثاء ولذكر العمران ، وباب للألغاز وآخر للهجاء ، وهجـاؤه بذيء اللفظ عاهر الصور ، يستخدم فيـه ما هبّ ودبّ مـن ألفاظ بذيئة ولعل هذا ما دفـع المؤرخ الوفائي الى الاعجاب به فقال : ولـه هجو ظريف • اننا أمام شاعر أنصف نفسـه وشعره منذ مقدمة ديوانه فهو يعترف بأنـه يقول ما يقول من باب التقليد ، والحقيقـة أنه نظّام ، ولكن ليس من المستوى الرفيـع ولا الوسط •• وقيمة ديوانه لا تنبع من قيمة شعره ولكن من كونه يقدم لنا نموذجا تامـا من أدب ذلك العصر ، ولأنه يقدّم لنا فوائد تاريخية تتعلق بجزئيات تاريخ المدينة كأسماء القضاة والحكام وتاريخ بعض الأبنية ، وليته اقتصر على ذلك ، ولكنه ملأ ديوانه بقصائد ذات مناسبات تافهة كولادة طفـل أو زواج فلان وموت فلانة من الناس العاديين الذين ليس لهم خبر يروى ولا أثر يحفظ ولا عمل

يذكر . ولا ينجو شعره في أحسن حالاته من ركاكة أساليب العهد العثماني ، وقد لا يخطىء طرافة الفكرة ولكن لا يستقيم لديه التعبير عنها ، لنسمعه مثلا يقول : [من الكامل]

لو كان لي كالعاشقين عواذل ... لجعلت ذمّ العاذلين تغزلي

ولو انهم حشدوا جيوش مكايدٍ ... لسعيت في تشتيتهم وتوصلي

لكن محبوبي تعشّق نفسه ... في نفسه وكذاك اعظم مشكل

قد هام في لاهوته ناسوته ... فلقد العذول فما يكون تحيّلي

فاذا ما نظرنا الى هذه العبارات « توصلي ، وكذاك أعظم مشكل ... الخ » أدركنا ما تجنيه ركاكة التعبير على الفكرة مهما تكن طرافتها .

ومن أمثلة مطرزاته « والمطرزة مقطوعة من المنظوم اذا أخذت الحرف الأول من كل بيت من أبياتها تركب لديك الاسم المقصود » قوله مطرزاً باسم « عارف » : [من الوافر]

علقت بأهيفٍ حلو التثني ... وقلبي من لظى الهجران خائف

أبى قربي لديه وصدّ عني ... غزالٌ قد حوى أسنى اللطائف

رنا عجباً وهزّ قضيب بان ... كحيلُ الطرف مسدول السوالف

فقلت له رويدك في المعنّى ... فانت بحالة العشاق عارف

ولا أحب أن أطيل أكثر من ذلك في كلامي عن محمد عجم ، وفي الحديث عنه متسع ولكني أحب أن أنقل احساساً فحواه أن الرجل ربما كان يملك فطرة شاعر وتوثبه ، لكن ثقافة عصره وتقاليده الفنية كانت أقوى منه بكثير ، فسار على الدرب وقنع بالشعر صنعة عقلية طريقها النظم .

وأتساءل : أيستحق ديوانه أن يحقق وينشر ؟

أظن أنه يمكننا أن نجيب بـ (لا) فليس هناك ما يسوغ نشر مثل ذاك الشعر وقد لا يستحق ثمن الورق الذي سيطبع عليه ..

ويمكننا أن نجيب بـ (نعم) على تردد ، لا لأن الشعر يستحق ذلك ، وانما لبعض الفوائد التي يمكن أن يستمد شيئاً منها بعض الباحثين في أمور ذلك العصر من الوجهة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية .

□ عمر نبهان ت ١٨٩٨ م

هو الشيخ عمر بن عبدالقادر نبهان ، لم أستطع تحديد ولادته ، ولكنه بالتأكيد ولد في مطلع القرن التاسع عشر ، ولم أستطع الحصول على تفصيلات تتعلق بنشأته وأطوار

حياته ، ولكن من الثابت في حدود ما سمعته أن نشأته كانت دينية خالصة ، يخالطها زهد وتقشف ورغبة عن متع الحياة ، كان يعمل حتى الظهر فقط ، وما بعده خصصه للعبادة وطلب العلم مرافقاً أولاده الأربعة الى حلقات العلم في المسجد : عبد القادر وحامد ومحمد وأحمد ، ويبدو أنه كانت له مبادرة الى عمارة المساجد أو ترميمها ، فهناك مسجد لا يزال يحمل اسمه في « باب الدريب » كما تدل لائحة أسماء المساجد في مديرية الأوقاف بحمص ، وهناك مسجد آخر مشهور باسم مسجد الشيخ عمر في الحميدية ، وحدثني بعضهم أنه المقصود به ·

عثرت على ديوانه الصغير مصادفة ، وهو مكتوب بخطه ، وقد قصر شعره على مدح الرسول الأعظم ، وقدم لديوانه بمقدمة حدد فيها موضوع شعره فقال : « فهذا ما يسر الله تعالى من مدح سيد المرسلين وحبيب رب العالمين محمد ﷺ » وقد كان شعره منسجماً مع مقدمته ، فلا نعثر في ديوانه على بيت واحد تقرب به وتزلف الى أحد ، وله قصيدتان في مدح شيخه أحمد الاروادي وليستا في حقيقة أمرهما الا امتداداً لمديحه النبوي وسنقدم بعض نماذج من شعره قبل تقديم تعليقنا الأخير ، قال يمدح الرسول : [من الكامل] ·

قسماً بمكة والحطيم وما حوى ... قلبي سوى مدح ابن رامة ما حوى
وبطيبةٍ والبانِ ثم بحاجرٍ ... وبمرقدٍ جسمُ الحبيب به ثوى
كم ليلة قد بتّها متفكراً ... وبمهجتي نار يؤججها النوى
شوقاً الى تلك الأماكن لا الى ... (حمص) وان نسبوا لها طيب الهوى
يا خير مبعوث أتى بشريعة ... غراء فيها من تمسك ما غوى
حاشا محبك أن يبوء بخيبةٍ ... ولكل شخصٍ في المحبة ما نوى
يا أيها الشادي ـ فديتك ـ لي أعد ... ذكر الحجاز ولا تعرّض بالنوى
واعد عليّ ثنا أجلّ الأنبيا ... طه الذي ما كان ينطق عن هوى

ان هذا الشاعر كما نرى ينطلق انطلاقاً عفوياً في شعره لا تغلّه المحسّنات ، ولا تكبله القيود ، ولكن ما يسيء الى شعره هو تلك الركاكة الأسلوبية التي نلمحها بين حين وآخر ، والركاكة لا تعني الغلط ولا تعني العامية ، وانما تتمثل في العجز عند التصرف باللغة ، وتنشأ من عدم تمكن الأديب من اللغة التي يكتب بها لافتقاره الى معرفة أصولها وادراك أسرارها ، ولقلة بصره بالفروق الدقيقة بين دلائل المفردات ومعاني التراكيب ومناسبات الجمل وروابطها(١٢) ، وأول دلائل الركاكة شعورنا بثقل الشعر الذي نقرؤه واحساسنا بأن الشاعر يرقّع شعره هنا ويرفوه هناك ، فمن عبارة زائدة ، ومن قافية قلقة ، ومن ضرورة قبيحة · والحق أن الركاكة كانت آفة الكتابة والشعر في عصور الانحدار وليست مقصورة على القرن التاسع عشر ، ولكن ربما بلغت أوجها في تلك القرون المتأخرة ·

ونعود الآن الى شاعرنا الشيخ عمر ، كنا ذكرنا أن له قصيدتين في مدح شيخه أحمد الاروادي ، ويبدو من قراءة النصين انهماقيلابمناسبة وصول الاروادي الى حمص ، وهو شيخ النقشبندية ، وكان وصوله يوماً مشهوداًبدليل ما ذكره الوفائي : « فصادف يوماً بأن الشيخ أحمد الاروادي كان مشرّفاً لحمص وحاضراً عن طريق طرابلس من بلده جزيرة ارواد ، فخرجت العالم لملاقاته ... »

وهؤلاء المشايخ أعني المتصوفة كانوا آنئذ يتمتعون بسلطة أدبية واسعة ، وكانوا موئلا يحتمي بهم الناس من ظلم الحكام وعسف الأشقياء ، كما أشارت الى ذلك حوادث كثيرة ذكرها المؤرخ الوفائي . وسنستمع الآن الى شيء مما قاله الشاعر في استقبال شيخه : [من الكامل]

خذ من وجوه العارفين اشارة	وبشارة تنجي من الهلكات
واسأل بهم مولاك ما ترجوه من	كشف الهموم وسائر الخيرات
فهم الوسيلة في الدنا لمن اهتدى	وبهم نروم زيادة لحسنات
لما أتى (حمصا) بدا بدر الهنا	فيها وأشرق طالع الشطحات
وأنالنا من فيضه ذخرا لنا	نلقاه يوم العرض في الميقات
يوما يرى فيه السعيد نجاته	وعليه راض بارىء النسمات

فمديحه لشيخه مرتبط بالمعاني الدينية، وليس بعيداً عن المديح النبوي ، لأنه كان يرى أن شيخه مسلسل النسب الى الحضرة النبوية . ويمكن أن نلخص أحكامنا بأن هذا الشاعر يتسم بالبساطة والعفوية والانطلاق مع مواجده ، متحرراً بقدر ما تتيحه له ظروفه من قيود المحسنات والزخارف ،ولولا الركاكة التي وقعت في شعره لكان حكمنا على شعره أقل قسوة من أحكامنا العامة التي قدمناها بين يدي هذه السطور .

وليسمح لنا القارىء أن ننتقل به الآن الى شعر الطرافة ، شعر المآكل ، الى مائدة مصطفى زين الدين الحافلة بأطايب الطعام.

☐ **مصطفى زين الدين (ت ١٩٠٠ م) (١١)**

من شعراء حمص في القرن التاسع عشر من يدخل شعرهم في باب الطرافة وحدها ، فالشعر عندهم ليس تعبيراً عن مواجد ولاصبوات ، وانما الهدف منه الاطراف وامتاع الأسماع بما تهواه وتضحك له الأفواه . ومن هذا النمط وعلى هذه الطريقة كان مصطفى زين الدين .

ولد هذا الشاعر في حمص عام ١٢٤٥هـ-١٨٢٦ م ودرس على علمائها ، واطلع على معالم الثقافة العامة المعروفة في عصره على يد شيوخ مدينته ، وحفظ الشعر وتعلّق

بالموسيقا ، وكان حسن الصوت ، لذلك كله اهتم به الشيخ أبو النصر بن الشيخ عمر اليافي صاحب المنظومات والقدود وصحبه معه الى الآستانة • وصار زين الدين منشد الحضرة عند الشيخ اليافي ، ثم سافر الى المدينة المنورة ، ثم طاف البلاد المصرية • ولما عاد الشيخ زين الدين الى حمص وجد شهرة الشاعر الحموي المعروف بالهلالي(١٤) قد طارت في الآفاق فدفعته شهوة الشهرة الى منافسته ، فشمر عن ساعد الهمة لمعارضته ومبارزته •

وكان زين الدين شديد الفطنة والزكانة فقلّب نظره وأعمل رأيه فرأى أن اهتمام الناس بمآكلهم واشباع بطونهم يفوق اهتمامهم بما يقدمه الهلالي من غزليات ومن مدائح يقدمها لشخصيات مدينته •• لذلك جعل زين الدين شعره في وصف المآكل والقدور ، فكان يأخذ قصائد الهلالي ويعارضها مستبدلا موضوعها بما يقدمه من وصف للمآكل ، فكان الناس ينصرفون عن الهلالي وشعره ويقبلون على قراءة معارضات زين الدين ، وبعضهم كان يحفظها ويرويها ، فكان ذلك يشعل الغيظ ويثير الحنق في صدر الهلالي •

وقد كتب لأشعار زين الدين البقاء بسبب اهتمام الناس بها ، وقام أحد أصدقائه وهو الأديب محمد الخالد جلبي(١٥) بجمع أشعاره في ديوان سماه « تذكرة الغافل عن استحضار المآكل الموسوم بالمعارضات الزينية على المنظومات الهلالية » (١٦) •

ولزين الدين أشعار غير شعره في وصف المآكل ، وهي على نمط شعر عصره من حيث الاحتفال بالبديع والتطريز وما شابه ذلك ، وسنقف الآن مع بعض نماذج من شعره مما قاله في المآكل ، معارضا قصائد الهلالي :(من الخفيف)

قذف الدهن من فواه القدور   واستوى الطبخ واستقامت أموري
ودعاة الطعام نادوا هلموا   أيها الجائعون خمص الخصور
واجيبوا فيها المدارج صفّت   في ضواحي الميماس بين الزهور
بين قوم على اللحوم عكوف   قد تبدت خرفانهم كالبدور
يا صديرا حوى الكنافة بصما   من يفي حق سعيك المشكور

وتسير القصيدة على هذا النمط ، تذكر السمن ونوعه وريحه ، ثم تذكر « القطايف» و « القراص » والرز والحليب واللبن وغيرها •

ولعل سبب اتجاه زين الدين ونجاحه في هذا المضمار أنه كان شديد الولع بالطعام وأطايبه ، وقد ذكر مترجمه الجلبي قصصا تكاد لا تصدق عن نهمه وشدة حبه للطعام واكثاره منه ، حتى لقد كان يأكل وحده قدر ما يأكله عدد من الرجال مجتمعين ، وسمعت أيضا بعض الأخبار التي تؤكد ما ذكره الجلبي • وله قصص طريفة ، فقد سافر الى حماه ورفع عليه الهلالي دعوى في المحكمة وحضر المحاكمة أعيان البلد ووجوهها ليشهدوا تلك

المحكمة الأدبية الطريفة ، وقد سجل ما دارفيها من مطارحات ومحاورات ، وكان الناس يهتمون بشعره وحسب علمي فقد طبعديوانه ثلاث طبعات على الأقل ٠

ومن شعره في غير المآكل ما رواهالمرحومأدهم الجندي في كتابه أعلام الأدب والفن : [من الطويل] :

رماني بسهم من لحاظٍ فواتكٍ غزال له دانت أسود المعارك

فما البدريحكيه ولا الغصنان بدا او اختال من ثوب البها في مسالك

يلذ لي التعذيب في حب من غدا واصبح من دون البرية مالكي

ونختتم حديثنا عن الشاعر بوقوفنامعه وهو يتحدث عنالكبة : [من الرمل]

هاتها كبة هبر بسطت بالصواني بعد ضرب وامتهان

يا لها حمراء بالسمن انقلا وجهها بالفرن آنا بعد آن

منسف الرز به جيء بعدها ذو محيا منه قد ضاء المكان

ولا يخفى ما في نظم زين الدين من ركاكة أسلوبية تشفع لها طرافة الموضوع وضيق حيزه ٠

توفي الشيخ زين الدين اثر نزلة صدرية في حمص عام ١٣١٩ هـ = ١٩٠٠ م وقد أعقب من الذكور المرحوم نجيب زين الدين الذي ما زال يضرب المثل حتى الآن فيحمص بنداوة صوته وجمال أدائه وروعة غنائه ٠

□ الشيخ عبدالحميد الزهراوي (ت١٩١٦)

كان من المفروض أن يكون مسك الختام أن نتحدث عن السيد عبدالحميد الزهراوي لكننا تحدثنا عنه لدى نشرنا شعره في مجلة التراث العربي مما أغنانا عن التكرارههنا ٠ ونأمل أن يتاح لنا أن ننشر مقالة أخرىحول شخصيات من العصر نفسه ٠

وقد رأينا أن نلحق بهذا المقال قصيدة الشيخ أمين الجندي التي مدح بها ابراهيم باشا وهي غير منشورة في ديوانه كما أشرنا، وقد ساعدني في قراءتها وقدم قراءاتصحيحة فيها أخي الأستاذ خالد الزهراوي ، ومعذلك فقد بقيت فيها هنات لم نستطع استدراكها٠ ويجب أن نشير الى أن نشرها انما هو لقيمتها القومية آنذاك لالقيمتها الأدبية ، وقد عثرت عليها مكتوبة على كراس بالحبر الصينيعلى ورق قديم متآكل ، لذلك رأيت في نشرها حفظاً لها من التلف والضياع ، ويجب أنأشير أيضاً أن بعض استعمالات الشيخ في قصيدته لبعض الألفاظ كانت عامية ٠ أماالأحداث التاريخية التي أشارت اليها القصيدة فيمكن مراجعتها ومعرفة الشخصيات التيذكرت فيها في كتاب مختصر تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس ٢ : ٢٨٧ وكتابالمناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية ص ٤٨ وما بعدها وسائر الكتب التي فصلت القولفي تاريخ محمد علي وابنه ابراهيم باشا ٠

□ الحواشـــي :

١ ـ المرحوم الاستاذ رفيق فاخوري من شعراء قطرنا البارزين، عمل طوال حياته بالتعليم، ولد ١٩٠٩ وتوفي سنة ١٩٨٥ كتب عنه الاستاذ أحمد الجندي في كتابه شعراء سورية •

٢ ـ من مقالة للمرحوم الفاخوري نشرت في مجلة المعلم العربي ، العدد : ٣ ، آذار ١٩٧٠ •

٣ ـ بطرس بن ابراهيم كرامة ١٧٧٤ ـ ١٨٥١ م • انظـــر أعلام الأدب والفن لأدهم الجندي ١ : ٣٦ •

٤ ـ ابراهيم الحوراني ١٨٤٤ ـ ١٩١٦ ـ انظر أعلام الأدب والفن ١ : ٤٦ •

٥ ـ دار الكتب الظاهرية بدمشق برقم ٦٨٦٩ •

٦ ـ الشيخ خالد الاتاسي : ١٨٣٤ ـ ١٩٠٨ ـ انظر أعـلام الأدب والفن : ٣٨ •

٧ ـ طبع في عدة مجلدات في حمص باشراف ابنه الشيخ محمدطاهر الأتاسي • بدأ بطبعه عـام ١٩٣٠ وطبع آخر جزء منـه وهو السادس عام ١٩٣٧ ، والمقصود بالمجلة انها كتاب يحتوي على القوانين الشرعية والاحكام العدلية المطابقة للكتب الفقهية • حررتها لجنة من العلماء في المشيخـة الاسلامية ابان العصر العثماني وبين يدي الطبعة الثانية منها طبعت في مطبعة الجوائب عام ١٢٩٨ هـ •

٨ ـ شعراء سورية : ١٠ (طبع دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٦٥) •

٩ ـ انظر حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ١ : ٣٢٩ •

١٠ـ هذه الأبيات من قصيدة لم تنشر في ديوانه المطبوع ، ولدي نسخة منها مخطوطة •

١١ـ عبد الهادي الوفائي ١٨٤٣ ـ ١٩٠٩ ـ وتاريخه مخطوط،وهو بحوزتنا وننوي نشره بالاشتراك مع الأستاذ رياض البدري.

١٢ـ د• عبد العزيز الأهواني : ابن سناء الملك : ٣٧ « طبـع مكتبة الانجلو بمصر ١٩٦٢ » •

١٣ـ انظر اعلام الأدب والفن ١ : ٣٩ وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ٣ : ١٥٢١ •

١٤ـ انظر أعلام الأدب والفن ١ : ١٨٣ •

١٥ـ محمد خالد الحلبي ١٨٦٧ ـ ١٩٢٦ ـ انظر اعلام الأدب والفن ١ : ٥٧ •

١٦ـ طبع هذا الديوان عدة طبعات •

* * *

نجوم .. لا شهب :

عبد العزيز البشري

ممدوح فاخوري

وهذا اديب فنان ، لم يسع الى الشهرة ، ولم تسع الشهرة اليــه . مرّ بدنيا الأدب مرور الضوء الساطع، يضيء ويلمع ، ولكـن ضوءه ولمعانـه لم يكونا من النوع الذي يبهرويغلب، ثم يمضي لا وقع ولا أثر . وكان يمكن لضوئه ولمعه أن يتركا من الدوي والأثر أكثر مما تركا ، لولا ان سحابة كثيفة من ظروف عيشه وطبيعة عملـهبين الادارة والقضـاء ، وفي غمرة مجتمعــه عامة ، كانت تحجب الكثير من بريقه وألقه ، وتبقيه في ظل مديد الجناح بعيد الأطراف ، لا يجد ما يقصيه عنه ليد انملة ، ولا يرى هو رغبـة في محاولة اقصائه عنه ، وزحزحته من طريق تطلعاته وآماله .

وليس همنا هنا ، بطبيعة الحال ، أن نترجم لأديبنا هذا ، وان كانت الترجمة ولو بأوجز عباراتها أمراً لا بد منـه ، لتعريف القارىء بما ينبغي عرفانه عن حياته ونشأته وعوامل تكوينه وظروف عيشه ، ولالقاء شيء من الضوء على شخصيته ومزاجه ، على أننا سنركز على الجانب الذي يتصل بأدبه وفنه، فليس من شأننا أن نذكر كل دقيقة من دقائق حياته ، الا ما كان منها يلقي مزيداً من الضوء على طبيعـة شخصيته ومزاجـه ، دون أن يتسبب في ادخال ملل في نفس ، وازهاق روح من غير ذنب ...

☐ شخصية فريدة :

الأديب الذي نحن بصدد الكلام عليــه هو الشيخ « عبدالعزيز البشري » . ولد سنة (١٣٠٣ هـ/١٨٨٦ م) وتوفي سنة (١٣٦٢هـ/١٩٤٣ م) . نشأ في بيت علم ، فقد كان أبوه الشيخ « سليم البشري » عالماً بالدين ، وشيخاً للجامـع الأزهر مرتـين (١٨٩٩ ـ ١٩٠٩) .

درس في الأزهر ، ومارس الأدب فلقي فيه ذاته ، وخص له حياته ، ولكن عمله بين القضاء والادارة حد من نشاطه الأدبي وقيّده، وقصره على المقالة فافتنّ فيها وأطرف ٠

أما (شخصيته) فكانت فريدة فذة نادرة المثال ٠ واذا كان الانسان مزيجاً من لحم ودم وأعصاب ، فقد يخيل الينا أحيانا أن نسبة ما (يحتويه) فرد من هذه العناصر مختلفة عنها في غيره ، فهناك (السعيد جدا) بما خص به من لحم متكتل وبطن متهدل ، يزينه بطبيعة الحال ـ حس هامد وعقل جامد ورأس خاو لو نقرت عليه لطنّ ٠٠٠ وهناك (الشقي جداً) برهافة حسه ورقة طبعه ومشاعره ، فهو في عذاب دائم مع نفسه ومع الناس ٠٠ والزمان ، لولا ما يسري به عن نفسه ويجلو من سويداء روحه ، من حب لكل جميل فاتن ، سواء كان أدباً أو طبيعة اولحناً او نكتة بالغة ٠ وربما كان من هذا الصنف من الناس أديبنا « البشري » ، وقد وصفه « طه حسين » بقوله :

« ٠٠٠ انه قوي الحس الى درجة نادرة حقاً ٠٠ سريع التأثر والتأثير ، فهو اذا أحس لا يكنّ ما أحسه ، ولكنه يعلنه ويظهره ، فهو يتلقى الأشياء مسرعاً ، ويعكسها مسرعاً ٠٠».

نحن اذاً تجاه « شخصية » فريدة غريبة الأطوار ، تقوم على مجموعة من الصفات قد تبدو متناقضة ، فهو ـ كما وصفه بعضهم ـ انسان « حسن العشرة ، بارع الحديث ، سريع الخاطر ، يجيد المفاكهة ، ويستضحك بنوادره الباكي الحزين » ٠ ولكنه كان في مقابل ذلك « عصبي المزاج ، يثور لأقل بادرة ٠ وفي سبيل ذلك يهدر الصداقة القديمة ، ومن أجل هذا المغمز كان الكثير من أصدقائه يتقونه ويتحاشونه ، ويخافون من سقطات لسانه ٠٠ » ٠

ومهما يكن من شأن هذه الصفات ، وتناقضها ـ ولو ظاهرياً ـ فهي صفات انسان رهيف الحس ، شاعري المزاج ، متعذب برهافة حسه ومزاجه ٠ ذكر بعضهم أنه كان في صباه يمضي الليل ساهراً ، ولا ينام الا غراراً ، فتحطم من ذلك جسمه ، وتضعضعت في الكهولة صحته ٠ وهكذا طوى الأعوام العشرة الأخيرة من حياته مريضاً ، ما يكاد ينقه حتى تعاوده العلة ٠٠ أضناه المرض الوجيع حقبة من السنين ٠٠ » ٠

ولم يعدم ، مع ذلك ، وسيلة تخفف شيئا من آلامه النفسية والجسمية ، من احتراق روحه وأعصابه ، من رهافة حسه التي وصفها المتنبي او وصف أصحابها بقوله الجميل هذا :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن   يخلو من الهمّ أخلاهم من الفطن

☐ مداواة الداء بالداء :

وكانت الوسيلة انغماساً في مزيد من الرهافة ، وفي مخالطة أناس في مثل رهافته ورقة وجدانه ، ومن هم غير الفنانين أمثاله وأصفياء روحه ، ولا سيما أهل صناعة الغناء ، من المغنين المطربين ، أمثال عبده الحمولي ، ومحمد عثمان ، وعبدالحي حلمي ، وغيرهم ٠٠ فكان كلِفاً بفنهم ، كثير الصحبة والمخالطة لهم ، بل شديد الاستئثار بهم ، لا

يرى حقيقا بمجالستهم وسماعهم الا من كان صاحب حس وذوق وحسن استماع • وكان يرى « أن الفن ابن الموهبة ، والمواهب ليست من الحق المشاع لجميع الناس » •

وكان الى ذلك عالما بفن الغناء ، عارفا بأصوله وأنغامه • يقول في أحد « أدوار » الشيخ « سيد درويش » :

كان من أوائل بدعه في جد تلاحينه (دور ياللي قوامك يعجبني) ، وقد صاغه من نغمة ـ النكريز ـ • وأكبر الظن أنه لم يكن لموسيقار مصري عهد بهذه النغمة من قبل • وقد أجاد « سيد » في تلحين هذا « الدور » وحلب وراع ، لوق أنه طبعه على غير غرار معروف في مصر ، وصاغه على غير مثال قديم فيها أو جديد ! » • ودل على دقة حسه الموسيقي ، وانسياحه العفوي به ، فقال وهو في صدد الكلام على ضرب من ضروب الغناء :

« لقد كنا نجد في هذا الغناء صورة بيّنة مما في نفوسنا ، حتى لكان يخيّل الينا أنه صادر عنها لا وارد عليها ، وكأننا نحن الذين لحنوه وصاغوه • فاذا لم يبلغ بنا الشعور هذا الموضع ، خلنا أنه لو كان أفضي الينا بتلحينه وصياغته لما أخرجناه وصورناه الا هكذا • بل ان حسن السبك وقوة الصياغة لتذهب بنا الى الشعور بأن هذا الذي نسمع انما هو شيء من صياغة الطبيعة لا أثر فيه لصنعة الانسان •• » •

أي فهم ، وأي ذوق ! وأي روح لطيفة تدرك بالحس المرهف الدقيق ما قد لا يدرك بالدرس الممعن الطويل • واذا تذكرنا العلاقة الوثيقة بين الأدب والموسيقى لم يصعب علينا أن ندرك سر اهتمام الكاتب بجمال أسلوبه وحسن صياغته ، ففي الشعر موسيقى ، وفي النثر المؤنق الجميل موسيقى ، تظهر في تناسق الحروف وحسن المجاورة بينها ، وقد يزيد الكاتب على ذلك فتبرز أيضا في قصر جمله وتوازن عباراته ، وشيوع ايقاع موسيقي بينها ، نذكر هنا مثلا طه حسين في كتاباته الأدبية الخالصة ، وأحمد حسن الزيات ، ونذكر من القدماء الجاحظ وابن العميد وأضرابهما •

☐ قيود •• وسدود :

الكاتب اذا وجد نفسه في الأدب والفن ، وأرهفها وصقلها وسرّى عنها بالموسيقى التي وجد فيها صفو روحه وذوب وجدانه ، وسلوى نفسه الحبيسة في ارسام القيود التي تثقل روحه وتحزّ في أعصابه ، قيود الوظيفة وما تقتضيه من انكماش وحفاظ على المظهر ، بما لا يلائم طبعه وجوهره •• فاذا كان الكاتب قد وجد نفسه في الأدب والفن ، فقد وجد نفسه أيضا مشدودا الى طرفين متناقضين ، بالقياس اليه على الأقل ، فهو يريد أن يذهب مع ميوله الأدبية والفنية الى أقصى مدى يريده ، ولكن طبيعة عمله ومركزه بين الناس تحد من ميوله هذه ، بل تقف سدا منيعا بينه وبين ما يحب ، « فما كان يستطيع الكتابة بتوقيعه الصريح ، وكان يخشى أن تنسب مقالاته لغيره ، فكان يطلع أصحابه على ما ينشره ليعلم الناس أن هذه الجزالة اللفظية ، وهذا الترف البياني والترصيع الانشائي ، كل أولئك من صنعة المترجم »(١) • وهذا في ذاته أمر شاق على صاحبه ، فالكاتب يحب

أن يكتب لينقل شعوره الى الناس ، وليرى صدى شعوره هذا عندهم .. وهو يريد أن يرتد هذا الصدى اليه لا الى غيره أو الى « انسان مجهول » لا يعرفه الناس ولا يعرفون عنه شيئاً .. يريد أن يسمعوا نبض قلبه ويحسوا وهج شعوره ، ويبادلوه نبضاً بنبض وشعوراً بشعور ، ولا يحب أن يختفي نبضه في نبضات غيره ، ويغيب شعوره في كهوف معتمة تسمى قلوباً ، ولكنها لا تخفق بما يخفق به قلبه ، ويفيض به وجدانه ..

ولا شك أن اختفاءه وراء توقيعه المموه ، كاف وحده لتقليص شهرته في حياته ، وتغييبها بعد وفاته . ولكن وراء خفوت صيته وغياب شهرته أسباباً أخرى ليس هنا مجالها ، وقد أشرنا الى بعضها في مقدمة المقال ، وثمة غيرها سيحين أوانها ..

البشري الأديب

ولكن .. ماذا عن « البشري » الأديب؟ وعن أدبه ؟ لنتذكر أولا أنه أحد أفراد الجيل الأدبي الممتاز الذي أعقب البارودي وشوقياً وحافظاً والمنفلوطي ، جيل طه حسين والعقاد والمازني وتوفيق الحكيم والزيات والرافعي وأحمد أمين .

بعض هؤلاء تأبّى على الوظيفة والقيد كالعقاد والمازني والحكيم والزيات ـ مع بعد ما بينهم ـ واتجه بكليته الى الأدب فأفلح وأصاب الشهرة التي يريد .

وبعضهم كطه وأحمد أمين مضوا في طريق شاق طويل يحفه الجهد والدرس والدأب ، وقدّم نتاجاً كبيراً منوعاً كان كفيلا ببلوغه الشهرة التي يستحق .

أما « الرافعي » فكان له ـ لمزايا اختص بها ـ صدر مجلة « الرسالة » ـ بعد افتتاحية صاحبها « الزيات » ـ ، ومع ذلك لم يقصر جهده على المقالة بل قدّم للمكتبة مؤلفات متنوعة بعضها الأدبي الخالص كأوراق الورد والمساكين والسحاب الأحمر ، وبعضها النقدي .. وكان في الوقت نفسه يمثل مدرسة ـ يحمل هو رايتها ـ تقف في مواجهة مدرسة التجديد ، وهي مدرسة « المحافظين » ، تصدّى فيها لعمالقة يعد نفسه نداً لهم ويعدّهم أنداده ، فزاد ذلك من شهرته وتألق اسمه بين الكتّاب .

فما مكان « البشري » بين هؤلاء ؟ وأي مدرسة يتبع ؟ وما مدى شهرته بين الكتّاب والأدباء عامة ؟ .

يجيب طه حسين عن بعض هذه الأسئلة أو أكثرها فيقول(٢) :

« كان عبدالعزيز مدرسة وحده في هذا الجيل ، لا تستطيع أن تلحقه بهذه البيئة أو تلك من بيئاتنا الأدبية ، ولا تستطيع أن تصله بهذه المدرسة أو تلك من مدارسنا المنتجة في الشعر والنثر . وكنت أظن في أول الأمر أنه بقية مدرسة قد مضى أكثر أعضائها ، بقية لتلك البيئة التي كان يضطرب فيها المويلحي وحافظ والبابلي رحمهم الله ، ولكني رأيته يعرض لأشياء ما كان أحد من هؤلاء يستطيع أن يفكر فيها ، وما أشك في أن تلك

البيئة الطريفة اللبقة الموفقة لو اجتمعت كلها لكتابة فصل عن « الطيّارة » كالذي كتبه عبدالعزيز ، أو فصل عن أحمد ندا ، أو فصل عن حسن هندر ، لما ظفرت من ذلك ببعض ما ظفر به .. ومن أجل هذا أيضا لم يكن عبدالعزيز مدرسة وحده فحسب ، بل كان مدرسة لا تلاميذ لها ... فنه على سهولته ويسره وقربه من الناس جميعا ، أرفع وأعسر وأشد استعصاء من أن يتملق به المتاثرون والمقلدون ، ولذلك لم يتعلق به أحد ، ولم يحاول تقليده أحد ، وظل عبدالعزيز واحدا في فنه ، وسيظل واحدا في فنه » .

هل نستطيع أن نستخلص من رأي طه حسين الاجابة الصحيحة عن أسئلتنا المتقدمة؟:

١ ـ ما المدرسة التي يتبعها ؟.

يرى طه حسين أن « البشري » مدرسة وحده . ومهما يكن من قيمة هذا الرأي فانا أرى أن « البشري » كان أقرب الى مدرسة المحافظين ، مدرسة الرافعي والزيات .. ولا أرى مجالا لالحاقه بمدرسة « محمد المويلحي » صاحب « حديث عيسى بن هشام » أو لمجرد التفكير في ذلك ، لأن « المويلحي » كان أقرب الى ما يمكن أن نسميه « المدرسة التقليدية » التي تترسم خطا مدرسة الصنعة المتمثلة في طريقة « الهمذاني » و « ابن العميد » بل و « القاضي الفاضل » أحيانا . ولم يكن « البشري » من هؤلاء وأضرابهم في شيء ..

٢ ـ أما كونه مدرسة وحده ، ومدرسة لا تلاميذ لها ، فهذا يفسر شيئين ، أو يجيب عن تساؤلين :

آ ـ ما مكانه بين أدباء جيله ؟.

أن يكون الكاتب مدرسة وحده ، ويستطيع أن يبدع في كتابته عن « الطيارة » وغيرها ما لا يستطيع ان يبلغه او يجاريه فيه كثير من مشاهير عصره ولو اجتمعوا له ، كاف وحده ليبرز لنا المنزلة العالية التي كان يتبوؤها اديبنا ، والقدرة التي كان يختص بها دون هؤلاء ، ودون كثير غيرهم أيضا !.

ب ـ ولكن ، ومع كل ما قلناه عن منزلة الكاتب وقدرته الفذة ، لم نره يبلغ من الشهرة مبلغ من ذكرنا من أدباء جيله . أو أن شهرته بعد وفاته لم تحافظ على توهجها الذي كانت عليه في أثناء حياته . ولعل طه حسين قصد أن يعلل ذلك بطريقة ذكية ، غير مباشرة ، حين جعل من كاتبنا مدرسة لا تلاميذ لها . ونحن نقول ان ما تركه « البشري » ـ وهو لا يعدو فن المقالة ـ كان قليلا بالقياس الى غيره من الكتاب ، ومرهونا بمناسباته وشخصياته ، وأكثرها محلي من جهة ، وظرفي « آني » يتصل بظروف سياسية عابرة ...
ولو قرأنا مثلا كتابه (في المرآة) ، وهو أروع كتبه على الاطلاق ، بل « أول كتاب من نوعه في الأدب العربي »(٢) ، لوجدناه مزيجا من أدب وتصوير ، أو « رسما بالكلمات » وأي رسم ، وفيه الى ذلك سخرية بارعة تنبع من روح عذبة صافية ، لا من مرارة موغلة دفينة، ولكن أكثر موضوعات هذا الكتاب ، أو قدر لا يستهان به منها ، يتصل بشخصيات لا تتجاوز

في شهرتها حدود القطر الذي « لمعت أنجمها» فيـه ، والاطـار الزمني الذي اضطربت في أثنائه ٠٠ ومـع ذلك تبقى للكتاب قيمتـه الأدبيـة التـي لا تجحد ٠ وسنعرض لبعض فصولـه و « لوحاتـه » خلال عرض مقبـل لخصائص أدبه وفنه ٠

□ خصائص أدبه وفنه :

ليس أشق ، في دراسة أدبية كهذه ، من أن تُخضع أديبا فـذاً كالبشري لمنهج دراسي تقليدي يأخذ بالأديب من أقطاره كافة لينفرد بكل جانب من جوانبه درساً وتحليلا من غير مراعاة كافية لطبيعته ولتكوين مزاجـه الأدبي الذي يتقبل لونا أو ألوانا من الحياة ويتأبى على غيرها ، فلا نحمّلنه اذا من أمره عسراً، ولا نحمّل أنفسنا عسراً فوق عسره ٠ وأكثر ما ينسحب ذلك على الأديب الفنان ، المرهف الحس والشعور ٠ ومن مثل أديبنا ــ وهو من عرفنا رقة طبع ورهافـة حس ــ جدير بأن نجنبه هذا العسر ، ونبعده من هذا الامتحان ؟ ، وأن نقنع منه بما قنع هو به ورضيه لنفسه، فنتناول بعض آرائه الأدبية والنقدية ، وموقعه بين القديم والجديـد ، ووصفـه ، وجانب السخرية عنده ، وأسلوبه ولغته ٠

□ آراؤه الأدبية والنقدية :

لم يكن « البشري » دارسا أدبيا ، ولا مؤرخ أدب بالمعنى المفهوم لكلمتي دارس ومؤرخ، ولم يدّع هو ذلك ولم ينتصب له ، ولكن له آراء أدبيـة متناثرة في ثنايا بعض مقالاتـه ومحاضراته ، لا نجد كبير معوّل عليها الا ايمايين على جلاء بعض نواحي شخصيته وفنه ٠

فمن رأيه في الأدب أنه « فن غـير محدود الأطراف ، ولا ثابت الأبواب، بل هو «عرّض يتكيف ويتلون طوعاً لعقلية كل قوم ، وتاريخهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، والجو الذي يعيشون فيه ، وأسبابهم الخاصة ، ومبلـغ شعورهم بالجمال ، بل بصور هـذا الجمـال أيضـا » ٠

يستوقفني في هذا الرأي قوله: « ومبلغ شعورهم بالجمال ، بل بصور هـذا الجمال أيضا » ، وأتجاوز اشارتـه الى صلة الأدب بعقلية القوم وتاريخهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وما اصطلح على تسميته بالبيئة والمحيط ،لكثرة ما تداولتها الألسنة وفاضت بها المحابر والأقلام ٠٠

ثمة اذاً ، في رأي الكاتب ، تمايز في الشعور بالجمال بين قوم وقوم ٠٠ يزيد حظ أمة منه حتى ليغدو أبرز مميزاتها ، وأخص صفاتها ، ويقل حظ أخرى منه أو يتوسط فلا تذكر به ولا يذكر بها لأسباب لا حيلة لهافيها ولا يد ! وهـو رأي مهمـا يكن حظه مـن الصواب ، لا يصدر الا عـن أديب فنـان ،يتعلق بالجمال ، ويقدر أهله ٠٠ لا ينظر الا به ، ولا يصدر الا عنـه ، ولا يهنأ الا بـه في مصبحه وممساه !

والجمال مرتبط بالحس والذوق والطبع، وهي أمور لاصقة بطبيعة الأمة خالصة لها خاصة بها ، لا يمكن أن يقع « التقارض » عليها ، يقول(٤) :

« ان العلوم والصناعات وما اليها ، أمور يمكن أن تتقارضها الأمم ، أما الأذواق وخلجات النفوس ونزوات العواطف ، فمما لايقع عليه التقارض والاعارة ، وان جازلأمة أن تقلد أخرى وتحذو حذوها في طريقة الأداء وأساليب الاستقراء والتحليل، وليس معنى ذلك تحويل الأذواق أو تلوين العواطف ! »٠

□ الأدب الصحيح :

والأدب الصحيح في رأيه هو الأدب الذي يعبر عن عصره ، وينطبع به ، ويدل عليه ، مهما اختلفت أساليب أصحابه وتباينت تعابيرهم ومذاهبهم في فنون البيان والقول ، وهو يأخذ على أدب مصر والشام بعده عن عصره وحياة عصره ، بل انك حين تقرأ للفيف منهم لا تصدق أنهم في عصر واحد وأمة واحدة ا يقول في هذا المعنى(٥) :

« والواقع أنه مهما تختلف لهجات المتعاصرين من الأدباء ، في أية أمة من الأمم ، وتتغاير أساليبهم في فنون البيان : شعراكان أو نثرا ، فانك ولا ريب واجد لمجموعهم طابعاً خاصاً يدل على عصرهم ، ويميزهم عن غيرهم ، بحيث يتهيأ للناقد الخبير أن يستدل من نفس البيان على العصر الذي انتضح فيه دون أن يرفد بأية اشارة اليه ، ولكنك مع هذا لا تستطيع أن تجد اليوم هذا الطابع للأدب في مصر ، وتستطيع أن تزعم مثل هذا عن الأدب في الشام ٠٠ وعلى الجملة ، فانك لو تصفحت هذا الأدب المصري القائم لرأيته موزعاً بين حياة في الجزيرة لعصر الجاهلية وصدر الاسلام ، وبين حياة في بغداد أو الأندلس ، فيما يلي ذلك العصر ، وبين حياة في لندن أو برلين أو باريس أو روما أو موسكو ٠ ولكن أين هذا الأديب الذي يعيش في مصر ، ويصور عواطفه المصرية التي يلهمها ما ينبغي أن يلهمها المصري من عواطف واحساس ؟ » ٠

ثم يقول(٦) :

« عندنا شعراء عظام ، وكذلك عندنا كتّاب عظام ، على أنك حين تتلو آثارهم ، وتقلب النظر في ألوان بلاغاتهم ،لاتصدق ـ لولا انك تعيش فيهم ـ أنه يجمعهم عصر واحد في أمة واحدة ! » ٠

وقد يقودنا هذا الى بيان بعض آرائه في التجديد ، وموقفه بين القديم والجديد ٠

هو أولا يسمو الى التجديد ، ويتحمس له ، وينكر الجمود :

« ٠٠ فخلق" من أدبائنا لم يسلّموا قط بأن الأدب شيء يعدو شعر امرىء القيس ، وعيش امرىء القيس ٠٠ »(٧) ٠

ولكن له فهمه للتجديد :

« اذا كان من آيات الحياة في الكائنات تطورها ونموها وتجددها ، فالأدب ولا شك

من هذه الكائنات التي لا تكتب لها الحياة إلا على التطور والنمو والتجديد ، والا كان ميتاً ، أو أشل على أيسر الحالين !

•• ولا شك في أن لأدبنا العربي عناصروله مقومات ، وله شخصية بارزة مميزة ، فمن شاء فيه تجديداً ـ وحتمٌ الحتم على القادرين أن يجددوا ـ فليتقدم، ولكن من هذه السبيل». (٧ مكرر) •

ولا حرج على المفتن المجدد أن (يقتنص) من فنون الأمم الأخرى ، ولكن !(٨) :

« •• لقد تفتن الأذواق في مبتدأ الأمرعن الجديد ، ولكنها سرعان ما تألفه وتتذوقه وتلتذه ، ما دام يمت الى فن القوم بسبب ،ويدلي اليه بنسب ، ولا حرج على المفتن ، بل ان من واجبه أنه اذا حرك عواطفه ، وهزمشاعره شيء من آثار فنون الأمم الأخرى ـ أن يبادر الى اقتناصه ، ويسرع الى معالجته بالتسوية والتثقيف ، حتى يتسق لفن قومه، ويطبع بطابعهم ، ويسوغ في مذاقهم ، حتى ليترجم عن بعض ما يمتلج من العواطف في نفوسهم •

أما أن يهجم على القطعة من فن غيره فينتزعها انتزاعاً ، ويمتلخها امتلاخاً ، على حين لا يتذوقها هو نفسه ولا يسيغها ، ولا هي مما يمكن أن يسيغه قومه أو يتذوقوه ، ومع هذا يأبى الا أن يستكره استكراهاً على فنهم باسم التجديد ، فذلكم لعمري هو المسخ والتشويه ! » •

☐ الصدق الفني :

ويرى أن الصدق ، والصدق وحده ، هو الذي يضمن تعبير الأدب عن ذاته، ولاريب أن من يصدق في التعبير عن ذاته وشعوره ،لا يمكن أن يخرج عن زمانه ومكانه ولوشاء! يقول(٩) :

« قال المتقدمون : ان أعذب الشعر أكذبه ، وهذا كلام صحيح اذا اتجه على أن أعذب الشعر ما كان من نسج الأخيلة لا ما وقع على مجرد تقرير الحقائق الثابتة • ولكننا اذا تحولنا بالنظر الى ناحية أخرى من نواحي هذا الموضوع رأينا كذلك أن أعذب الشعر أصدقه : **ولسنا نعني بالصدق هنا المطابقة للواقع ، على تعريف أصحاب المنطق ، وانما نريد به الصدق في الترجمة عن شعور الشاعر** فأعذب الشعر في الواقع هو الذي ينفض عليك ما يمتلج في نفس الشاعر ، وما يتمثل لحسه في ادراكه للأشياء » •

مثل هذا الفهم العميق لمعنى « الصدق الفني » لا يمكن الا أن يلفت الانتباه ويستأثر بالاعجاب ، وبخاصة حين يصدر عن أديب تملي عليه السليقة والتجربة ، لا الثقافة المكتسبة ، والآراء المجتلبة ، وتنطق لسانه، بما يسبق به زمانه ••• والحق أن فهماً للصدق الفني على النحو الذي نراه عند « البشري » ، يميز بين « صدق الشعور » وصدق الواقع ، خليق أن يدفعنا الى أن نتقدمه على جوانب ظلت خافية ، وسر خفائها أن الكاتب لم يكن من همه أن يكون دارساً أدبياً أو مؤرخاً من مؤرخي الأدب في عصره ،

فان طلع برأي أدبي ففي سياق عام لا يرتصدلهـذا الرأي وحده ، ولا يجعله محورا يدور حوله البحث أو الأبحاث التي تتصل بـه أوتفيض فيه على طريقة الدرّاس والباحثين، وانما هي اللمحة الدالة ، والخاطرةالموحية ،وبحسب القارىء منها أن يلقى فيها غنيته ، وان لم تشف غلّته .

ولو تتبعنا مثل هذه اللمحات البارعـةلدى الكاتب لوجدنا منها الكثير ،نجتزىءمنها ما يلي ، بنصها :

☐ مضار الصنعة :

« ان الاحتفال للصنعـة في الشعر ممايضر في الترجمة عن صادق الحس . وكلما أمعن الشاعرفي الاحتفال للصنعة ازداد بالضرورة،التراخي بينه وبين نفسه » .

☐ وظيفة الخيال(١٠) :

« من البديه أن الشعراء لا يطلقون أخيلتهم في فنون المعاني لمجـرد العبث بقلـب الأوضاع ، ومسخ الأشكال ، والتلفيق بـين الحقائق . انما الغاية كل الغايـة أن تجـلو عليك هذه الأخيلة صوراً طريفة بديعة لهذاالذي أدركته من الواقع ، أو تترجم لك عما يدق عن فهمـك مـن معانيـه ومغازيـه ، أوتكمل لك وتبسط بين يديك ما ترى من أن الطبيعة قد قصرت فيه وانقبضت دون حبكهوتسويته » .

فيض الشاعرية يتجاوز مدارك الشاعرنفسه(١١) :

« ان من الشعراء ، وأعني بهم بالضـرورة من يستحقون هذا الاسم ، مـن تتخطى شاعريتهم أفق مداركهم ، فتراهم يصيبون من المعاني ما لا تتعلق به ، في المادة ، أذهانهم . حتى لو راجعتهم في بعضها ــ وقـد آبوا الى أنفسهم ــ لاحتاجوا في تفهمهـا الى مطاولـة وجهـد في الاستخبار ا ذلك بأنهم لم يصنعوا مثل ذلك الشعر صنعاً ، ولا جاءت روعته من التشمير في التجويد والافتنان ، ولكنـه فيض يفاض على الشاعر .. » .

وهو كما ترى رأي فنان يصدر عن معاناة وتجربة ..

☐ العبقري هو الذي يرتفع على قومه(١٢) :

« من الجليّ أن العبقري هو الذي يرتفع على مجموع قومه ، وأحيانا على أهـل عصره في صفة أو في أكثر من صفة ، بحيث يتهيأ له أن يدرك في بعض الأمر مالايدركون، ويشعر بما لا يتعلق لهم به حس ولا شعور.. » فهو « يسبق بتلك المواهب جمهرةقومه، ولقد يسبق أهل عصره ، اذ تهديه فطنتـه الى أشياء لم يفطنوا لها » .. و « لقد ينصب بعض هؤلاء العباقرة للعدول بالفـن عـن مذهبه ، وقد يقلبه رأساً على عقب ، وتلكم هي الثورة بعينها ... » .

□ من اسرار الابداع الفني !(١٣) :

« العبقري المبتكر من العدم ، والمبدع على غير مثال ، قد لا يكون لتفكيره شيء مما صنع ، ولا لعقله دخل في شيء مما يبدع ٠ انما هو الطبع والغريزة ينضحان بهذا ، ولقد يفعلان في سر من عقله ، وفي غفلة من تقديره ٠٠٠ واني لأزعم لك ، أبلغ من هذا ، أن كثيراً من هؤلاء المبتدعين قل أن يشعروا بما صنعوا ، وقلّ أن يقدروا حق ما أبدعوا ٠٠ » ٠

□ في حسن البيان وعلاقته بقوة روح الكاتب(١٤) :

« ان حسن البيان وجودة المقال لا ترجع في جميع الأحوال الى تمكن الكاتب من ناصية اللغة ، وتفقهه في أساليبها ، وبصره بمواقع اللفظ منها ٠٠٠ بل ان ذلك ليرجع في بعض الأحوال الى شدة نفس الكاتب وقوة روحه ، فقد لا يكون الرجل وافر المحصول من متن اللغة ، ولا هو على حظ كبير من استظهار عيون الكلام ، ولا هو بالمعنيّ بتقصّي منازع البلاغات ، ومع هذا لقد يرتفع بالبيان ، الاما تتقطع دونه علائق الأقلام ، ذلك لأن شدة نفسه ، وجبروت فكره ، تأبى الا أن تسطو بالكلام فتنتزع البيان انتزاعاً » ٠

ويضرب لذلك مثلا بيان « جمال الدين الأفغاني » و « قاسم أمين » ٠ الأول غريب عن العربية ، والثاني شبه غريب عنها ٠ ويزيد بأن القارىء يعجب أشد العجب اذا عرف أن « حسين رشدي » ــ رئيس وزارة سابق ــ « كان رجلا قل أن تطّرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات ، قد كان أحياناً يرتفع بالعبارة الى ما يتخاذل من دونه جهد أعيان البيان ! » ٠

وهو رأي فيه من الغرابة بقدر ما فيه من صدق الواقع والتجربة ، ولو شئنا أن نضرب عليه مزيداً من الأمثلة وجدنا الكثير ، وغير بعيد عن هذا ما هو معروف عن الشعراء الكبار أنفسهم ، فقد تواتيهم « القريحة » فيندّون بالعجب العجاب ، وقد تخذلهم وتحرن دونهم فيرضون منها بسلامة الاياب ! ٠

قوة اللفظ من قوة المعنى نفسه(١٥) :

« لم يكن « شوقي » يكلف بالديباجة ، ولا يجهد في تسوية اللفظ وصقله ، ولكنه مع هذا قد يجيء بالعجب العاجب ! بل لقد استحدث شوقي في العربية صيغاً أوفت على الغاية من حلاوة اللفظ ، ومتانة النسج ، وقوة الاشراق ٠ وأحسب أن قوة المعاني هي التي أرادته على هذا ودفعته اليه دفعاً » ٠

□ رأي فريد في الفن والابداع(١٦) :

(المبتكر والصائغ الناظم يتساهمان الجدوى على الفن !) ٠

« ٠٠ المفتن المصنّع ، حتى الذي لم يؤت ملكة الابتكار ، ولم يرزق القوة على الانشاء ، ترى له من شدة الفطنة ودقة الحس ما يلتقط به المعنى الغريب ، ويشك به الفكرة الطريفة ، في شعر أو نثر ، أو موسيقى أو نحت أو تصوير ٠٠ فلا يزال به يحككه

بحسه المرهف ، ويمخضه في ذوقه الرحب مخضا. وكلما فعل ازداد في نفسه تبيُّناً ووضوحاً، وهكذا حتى يتمثل لها خلقاً سوياً ، فسرعان ما يجلوه على الناس كما جلته عليه نفسه.. فلا يحسبونه مهما جُهد بهم من حدّ الذهن وترديد النظر الا خلقاً جديداً ... وكثيراً ما يعمد هذا الحاذق الصنع فيما يفطن اليه من هذه الدقائق الكامنة الى مطلها والبسط في خلقها بالتوليد والاشتقاق ، وبتداعي المعاني، حتى يبلغ بها في ذلك غاية المدى ، وأنت تحسبه كذلك مبتكراً منشئا ، وتظنه مستحدثا مبدعا .. » .

ويضرب مثلا على ذلك « الفنان المبدع » المغني « محمد عثمان » و « الصائغ الرائع » « عبده الحمولي » الذي كان يتلقف ألحان عثمان وأدواره ويسوّي صورتها ، ويمرّه على ذوقه الدقيق تعديلا وتوليداً ، حتى يخرجها أقوى وأبدع وأفتن ، ثم يقال هذا الصوت لعثمان فيه لحن ، ولعبده فيه لحن آخر ! » .

والنتيجة التي يريد أن يرسخها في ذهن القارىء هي أن كليهما ـ المبدع والصائغ ـ يتساهمان الجدوى على الفن .. « أما اذا لم يكن بدّ من فاضل فيهما ومفضول ، فان أرجح الكفتين قد يكون لهؤلاء الصاغة الماهرين» !

□ شاعر لفظ أم معنى ؟ :

وهذا رأي قد يبدو غريباً عند من يطلقون الحكم مبرماً قاطعاً لا يقبلون من بعده نقداً ولا مراجعة ، فيصفون شوقي بشاعر الغناء ناسين أن له من الشعر ما لا يربطه بالغناء قربى أو سبب . ولكن هل هو في مقابل ذلك ، شاعر معنى ؟ يقول(١٧) :

« وشوقي لا يحفل كثيراً بنسج الكلام وتزوير اللفظ وترويق الديباجة ، فان طبعه قد انصرف أكثره الى المعاني حتى ليحمّل اللفظ أحياناً ما يثقله ويبهظه ويكد ذهن القارىء في التماسه وتبيينه ، بل انه في سبيل الوفاء بما قصد له من المعنى ليأتي أحياناً بالغريب الشامس من اللفظ لا تدرك معناه الا بعد مراجعة وطول استخبار ! » .

ونحن نقول ان عبقرياً كشوقي لا تقبل عبقريته أحكاماً مجزأة كهذا الحكم ، فمردّ العبقرية لا يكون الى معنى ولا الى لفظ ، بل الى العبقرية نفسها .. العبقرية سر لا يدرك كنهه ، فلا نهتكنّ سترها في محاولة القبض على سرها ، جملة أو تفاريق ، وهل كانت عظمتها الا في خفاء هذا السر ؟ ! ولو أن الكاتب ـ البشري ـ أحل كلمة « دائماً » محل « كثيراً » في قوله : « وشوقي لا يحفل كثيراً بنسج الكلام .. » لكان أوقع وأجمع ، ولكان أكثر اتساقاً واتفاقاً وتتمة رأيه اذ قال :

« بل انه في سبيل الوفاء بما قصد له من المعنى ليأتي أحياناً بالغريب الشامس من اللفظ » . فمن يتصيد الشامس (أحياناً) ـ لا دائماً ـ لا يكون كل صيده شامساً ، ومجرد استعمال « الشامس » لا يعني أنه طالب معنى ، والا أسام الى المعنى نفسه ، فما قيمة معنى لا يأتي الا على شموس ؟ ! فلنقل اذاً ان اللفظ قد يخونه أحياناً ـ وأكثر ما يكون ذلك في قافية ، بمطولة ، أو في معنى هو في ذاته فجّ غير نضيج ـ فيركبه هذا المركب

المضطرب · ونظرة ، مع هذا ، الى معظم شعره الغنائي وشعره المغنى ، بل والى شعره التمثيلي ذاته ـ وبخاصة مجنون ليلى ومصرع كليوبترة ـ لكي ندرك مدى التجني على شوقي حين نقصي شعره عن فردوس الغناء و «موسيقية» اللفظ ! ·

☐ رأيان بلاغيان :

١ ـ قواعد البلاغة ليست شرطاً في الابداع الأدبي(١٨) :

« ·· والعالم بالفن غير المفتن على كل حال ، وانما بينهما العموم والخصوص الوجهي على تعبير أصحاب المنطق ، فيجوز أن يكون المرء بليغاً وهو غير عالم بقواعد البلاغة ، ويجوز العكس كما يجوز أن يجمع بين الخلتين معاً » ·

٢ ـ وجوب « تطوير » علوم البلاغة(١٩)

« لست ثائراً فادعو الى الغاء علوم البلاغة العربية بتاتاً ، كما الغتها أمم في الغرب بتاتاً ، ولكني أدعو الى تليينها وتمرينها ، حتى تصبح أشبه بالأسلوب النقدي القائم على التفطين والتذويق ، بحيث تتطور مع تطور الأفهام والأذواق ، وعلى أن يوصل تعليمها ـ في المدارس والمعاهد ـ بدرس الأدب نفسه ، فالواقع أنه ما نضجت موهبة شاعر ولا كاتب قط بدرس علوم البلاغة ، ولكن بطول ترديد النظر وتقليب الذهن في المأثور من روائع الآداب ·· فاذا أبينا الا الحرص على بقاء هذه العلوم ، على تلكم الصورة التي دفعها الينا السابقون ، فلا شك في أن لها في دار الآثار العربية المكان الفسيح ! » ·

وهو كما ترى رأي فنان فهيم متذوق ، لا يحتاج الى أي شرح أو تعليق ·

☐ رأي طريف في الفرق بين الشاعر والعالم : (٢٠)

وانظر الى هذا التفريق بين الشاعر والعالم ، واحكم ما بدا لك ، ولكن لا تغمط الكاتب طرافة رأيه ! :

« كذلك تستطيع أن تفرّق بين الشاعر والعالم ، بأن الشاعر في الجملة معطٍ ، أما العالم في الجملة فآخذ : الشاعر يبتكر ويستحدث بقلب الحقائق والتلفيق بينها وافراغها في غير صورها وتلوينها بغير ألوانها · أما العالم فأبلغ جهده في تلقي الحقائق ، فاذا كان له فيها استحداث أو ابتكار فبمجرد الانتفاع بما انكشف له فيها من الآثار ، وما جُلي عليه من مكنون الأسرار » ·

☐ مميزات أسلوبه وفنه :

لم يكن أديبنا « البشري » مؤرخاً أديباً ولا ناقداً مختصاً أو « متمذهباً » ، وانما كان مؤرخاً للساعات والهنيهات الحلوة أو المرة التي تعبر في شريط حياته ، فتوحي له ما توحي ، وتؤثر ما تؤثر ، وتنعكس على « لوحة قرطاسه » صورة حسية أو دعابة عذبة أو تهكماً قارصاً غير وجيع ! وكان ناقداً ولكن بالمعنى الذاتي المزاجي لا المنهجي

الموضوعي ، ناقد حياة لا ناقد كلمات ٠٠٠ فاذا تناولنا خصائصه ومميزاته فمن هذا الجانب ، جانب ذاتيته لا موضوعيته ، و « مزاجيته » لا منهجيته ، جانب « الأدب الخالص » الذي اصطلح على تسميته « بالأدب الانشائي » ٠ وبحسبنا ذاك فلم يكن هو ذاته ليطمع بأكثر منه ، ولنقتنع بما قنع به وهو كثير ! وهل كان الأدب ـ في أصله ـ غير هذا ؟! ولكننا ألفنا أن نقدم الناقد والمؤرخ، ونغفل عن المبدع الذي وجد لأجله التاريخ والنقد ، وقام جرّاه الأخذ والرد ، ورحم الله القائل :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم !

وانطلاقاً من هذا سنقصر كلامنا على وصفه ، وعلى أسلوبه عامة ، مع الوقوف قليلا عند سخريته ٠

☐ وصفه :

يفرد الكاتب ، في « مختاره » باباً خاصاً بالوصف ، ولكن هذا الباب لا يستأثر وحده بوصفه ، فثمة « لوحات » ولمحات وصفية كثيرة تتناثر في أنحاء كتبه الأخرى ، ولا سيما كتابه « في المرآة » ٠

أبرز سمات هذا الوصف الطرافة والافتنان ، وامتزاجه بالدعابة والسخرية في كثير من مجالاته ، ولا سيما الشخصية ٠ وهو في معظمه حسّي تأخذه **الدقة** من أطرافه اذ يكون الجد طابعه ومنحاه ، ويغرق في **التضخيم** و « المط » الكاريكاتوريين في سانحة من سوانح هزله ومرحه ومزاحه ٠ واليك نماذج من لوحاته ولمحاته الوصفية هذه كافية ، في زعمنا ، لاطلاعك على براعته في هذا الميدان وافتنانه فيه ، من غير حاجة الى وسيط بينك وبينه أو دخيل ! ونسمح لأنفسنا أن نبدأ بهذه الصورة « الوسيمة » لصديقه وصفيّه « حافظ ابراهيم » ، جلتها ريشة شيطانه هذا الجلاء العجيب ، فلا تدري ماذا تنفض لك ريشته من خطوط طائرة وألوان نافرة ، لا تملك معها الا أن تعرض وتشيح ، ناشداً لنفسك السلامة ٠ ولكن « البشري » يأبى عليه « عفريت » قلمه الا أن يمهد لصورته « الوسيمة » هذه بنكتة « حافظية » يتخذها متكأه للانتضاض عليه بنكتة « بشرية » تكون جزاء له من جنس عمله ، فيقول(٢١) :

« حافظ ابراهيم شاعر ، فهو يحب الجمال ويجتمع له ، ويكره القبح وينعي على أهله ٠٠ وما ان طلع عليه فتى دميم الخلق غير مستوي معارف الوجه الا قال له : يا فتى ليس الوزر عليك بل على أبيك لأنه لم يؤدمهرا ! ويعقّب « البشري » قائلا : واذا اطّردت نظرية « حافظ » فلا شك في أن المرحوم والده تزوج على الطريقة الافرنجية ، فلم « يدفع » مهراً بل هو الذي أخذ « الدوطة » !

وما يلبث بعد انقضاضه الصاعق على صاحبه وصفيّه ، أن يبدأ بجلاء طلعته بهذه الصورة « البهية » :

« جهم الصوت ، جهم الخَلق ، جهم الجسم ، كأنما قدّ من صخرة في فلاة موحشة، ثم فكّر في آخر ساعة في أن يكون انسانافكان« و » السلام » !

ثم يأتي دور الازميل ، فينقش لنا هذاالشكل « الجميل » :

« أما ما يُدعى فمه فكأنما شُق بعـدالخلق شقاً ، وأما عيناه فكأنما دقتا بمسمارين دقاً . وأما لون بشرته ، والعياذ بالله ،فكأنماعُهد به الى « نقاش » مبتدىء تشابهت عليه الأصباغ والألوان، فداف أصفرها في أخضرها في أبيضها في « بنفسجهـا » . فخـرج مزجاً مـن هذا كله لا يرتبط من واحد بسبب ... » .

وتمضي عملية التمثيل والتشويه لتوفي على الغاية فيقول (وامسك نفسك) :

« وانك لو نضوت عنه ثيابه وألبسته درّاعة من دونها سراويل ، وأفرغت عليه من فوقها جبّة ضافية ، وتوجته بعمامة عظيمـة متخالفة الطيات ، لخلته من فورك دهقاناً مـن دهاقين الفرس الأقدمين ! فاذا جرّدته كلـه وأطلقته في البر حسبته فيلا ، أو أرسلتـه في البحر ظننته درفيلاً ! » .

وبعد أن يفرغ من « عمليته الآدمية » هذه يعود اليه يهدهده على حرير ناعم وعطر فاغم ، لتحلو صورته في نفسك بعد أن اجتواهاقلبك ، واستعاذ منهـا لبك ، فيقـول معوّضاً اياه في روحه وظله ، عما استباح مـن منظره وشكله :

« خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديـع المحاضرة .. وهو أجود من الريح المرسلة .. »

ثم يخاطبه مسترضياً :

« وبعد فاذا كنت يا صديقي قد وتركت بعض حقك، ولم أعرض جميع مزاياك ،فلكيلا أجعل لأحد سبيلا الى الاتهام ... » .

وهذه صورة حسية أخرى ، « جاحظية » يصف بها جسماً آدمياً آخر ، يبدو أنه كان ــ ــ هو الآخر ــ معدوداً في جملة « هواياته »(٢٢)

« .. ان عينك لا تكاد تسقط عليه حتى تشعر بما بين خلقه وبين (قيافته) من سوء التفاهم .. ولو تمثلته وقد بعد ما بين كتفيه، وتقارب ما بين كشحيه ، وما يزال يتقـارب في منازله الى مستدق حداءيه ، لرأيت منه مخروطاً معكوساً ، أو على الأصح قمعاً مكفوءاً ! » .

وهذه صورة أخرى تذكرك بالجاحـظ وصوره « الهندسية » البارعة ، يصوّر فيهـا « زيور باشا » ــ من سياسيي مصر السابقين ــ(٢٣) :

« أما شكله الخارجي وأوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية ، فذلك كله يُحتاج في وصفه وضبط مساحاته الى فن دقيق وهندسة بارعة . والواقع أن « زيور باشا » رجل ــ اذا صح هذا التعبير ــ يمتاز عن سائر الناس في كل شيء ، ولست أعني بامتيازه في

شكله المهول طوله ولا عرضه ولا بُعد مداه ، فان في الناس من هم أبدن منه وأبعد طولا وأوفر لحماً ، الا أن لكل منهم هيكلا واحداً ٠ أما صاحبنا فاذا اطلعت عليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدري كيف اتصلت ولا كيف تعلّق بعضها ببعض ، وانك لترى بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنها ما يدور حول نفسه ومنها ما يدور حول غيره ، وفيها المتيبس المتعجر ، وفيها المسترخي المترهل ٠ وعلى كل حال فقد خرجت هضبة عالية مالت من شمالها الى الأمام شعبة طويلة أطل من فوقها على الوادي رأس فيه عينان زائغتان ، طلتّة من يرتقب السقوط الى قرارة ذلك المهوى السحيق ! » ٠

٠٠ وبعد أن يعرض ما أحصي على صاحبه هذا من أمور مستنكرة في حق القضية الوطنية ، وما أخذ عليه من سفه في أموال الدولة واستهتار بمصالحها ٠٠٠ يخلص الى هذا الحكم الطريف :

« ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام هو مخ » زيور باشا » ، فما أحسبه شارك ولا دخل ، في شيء من كل ما حصل ! » ٠

وهذا نموذج آخر من تصويره لا يقوم على الوصف الحسي ، بل ينصرف الى أخلاق « نماذجه » وطباعهم ، يصف لنا فيه بخيلا من أعجب بخلاء العصر ، ولكن ليس فيه ظرف من عرفنا من « بخلاء » الجاحظ(٢٤) :

« ٠٠٠ وأما الثياب فلا يكفي لتغييرها أن تحول ، أو يلحقها النصول ، أو أن تبلى خيوطها ، أو أن تتخرّق عروضها ، فهو لا يتركها بل هي التي تتركه حين يدركها الفناء ، فتطاير عنه تطاير الهباء » ٠

وهذا نموذج آخر من « بخلائه »(٢٥) :

« ٠٠ كان يخالف سنة البخلاء في خلة واحدة : ذلك بأنهم ، كما تعرف ، يقتّرون على أولادهم وعلى أنفسهم معاً ، ولكن هذا انما كان تقتيره موجهاً على عياله وحدهم ٠ أما نفسه فكان لا يحقن فيها شهوة ، وبخاصة شهوة الطعام ، بل لقد كان يبلغها من هذا غاية مناها ! ٠

٠٠ وأما العشاء ، فله فيه صنع بديع ! يدخل وقت العشاء فاذا صاحبنا قد سلف وأعد بعدد الأولاد « ملاليم » ، فاذا اجتمعوا اليه مستشرفين لعشائهم قال لهم : « اللي ياخد مليم ما يتعشاش ، واللي يتعشى ما ياخدش مليم امين اللي ياخد مليم ؟ ويدفع أحدهم فيقول : (أنا !) وعلى حكم غريزة التقليد في الغلمان ، يسرعون فيتصايحون : (أنا ! أنا ! أنا !) ، فيدفع الى كل منهم مليمه ، وكفاه الله مؤونة العشاء ، أعني عشاء الأطفال !) ٠

« وبعد فللفطور قصة أخرى : ذلك بأنه زعم للزيات القائم على رأس الشارع ، أن لديه حملاً يربيه ويحب أن يسمنه ، ويجزل لحمه وشحمه ، وليس يمقد له ذلك ويسرع فيه أفضل من خلاصة(٢٦) (تصالي) قدر العصر ، ويبعث اليه بها في الصباح الباكر ، والأولاد

نيام ، فيفرغها في صحفة كبيرة ، ويعالجها بقدر من الخل ، ويصفف حولها كسر الخبز التي افضلها الأولاد في غداء أمسهم · حتى اذا هبوا من النوم ، وأحشاؤهم تتنزى من شدة الجوع ، فتواثبوا الى الطعام ، صاح فيهم: (اللي عاوز يفطر يجيب المليم !) فلا يسع كلا منهم الا أن يطرحه اليه ، مواتاة لالحاح البطن ، وايثاراً للعافية ، فسرعان ما تعودتلك الملاليم الى عشها ، وتعتصم بوكرها ! » ·

أما يوم موت هذا البخيل « الفذ » فكان يوماً مشهوداً :

« وفي يوم موته ، رحمه الله ، لم ينتظر هؤلاء الأولاد حتى يقسموا التركة ، ويهتدوا الى اسم المصرف الذي يكنز فيه (المرحوم) ماله ، بل لقد كنت ترى أحدهم يهرول في الطريق وعلى رأسه (شبّاك) ، والثاني وعلى كتفه مصراع باب ، وثالثا يحمل بين يديه طستاً ، ورابعاً يحمل مقطفاً مليء بالصنابير (الحنفيات) وهكذا ! ··· » ·

ومثل هذا عنده كثير ، وكله يدل على مبلغ ما يتمتع به كاتبنا من قدرة فائقة على التصوير قلّ أن يجود بمثلها الدهر ، وقد سقنا بعض نماذجها ، وللقارىء أن يقع على الكثير من أمثالها في تضاعيف كتبه ·

□ سخريته ونكاتــه :

سخرية الكاتب ودعابته لا تنفصلان عن وصفه وتصويره · وفي « النماذج » القليلة التي سقناها أمثلة بينة على ذاك ، وفيها قدر كفاية · ولكن لدى الكاتب جانباً اخر من جوانب السخرية اشتهر به ، يتصل بحياته العادية بين الناس ، ومعايشته لهم ، وهو جانب « النكتة » ، وهو يؤلف قاسماً مشتركاً بين شخصيته وأدبه · ففضلا عما فيه من دلالة على شخصيته وحلو مفاكهته ، فان فيه أيضاً أبلغ الدليل على رهافة حسه ورقة طبعه ، وهي صفات لا تتلازم غالباً الا الأصلاء المتميزين بأدبهم وفنهم ، يصدق ذلك على قدمائهم ومحدثيهم ، وهم كثير ، منهم على سبيل المثال الأعشى والحطيئة ، في الجاهلية ، ومنهم الفرزدق وجرير ، في العصر الأموي ، ثم بشار وابن الرومي والمتنبي والجاحظ والمعري وغيرهم ·· وكلهم فحول أفذاذ ، ترتبط حياتهم بفنهم وأدبهم أقوى ارتباط وأوثقه ، ولن نفيض في الكلام على هذا الجانب عند أديبنا « البشري » وسنكتفي بعرض بعض من هذه النكات التي تزيد في جلاء صورته وكشف طبيعته ومزاجه · منها ، وهي مصوغة بقلمه ، بعنوان (في الخدمة !) :

« لقيني اليوم في الترام لحّاد (تربي) مشهور أعرفه ، فسلّم وسلّمت ، وأقبلت عليه أحييه ، بما جرت به عادة الناس ، وأسأله عن شأنه ، فقال لي يرد التحية في لهجة تشف عن الصدق والاخلاص : (احنا في الخدمة !) . فقلت له : الله يحفظك! فأجاب من فوره كذلك في اخلاص ولهفة: (ربنا لا يحرمنا منك !) » .

وأخرى بعنوان :

أعوذ بالله !

« على طريقـي الى الدار (حانـوت) والعياذ بالله تعالى ، نُضدت فيه خشُب الموتى ودكك الغسل تنضيداً بديعاً .. ويجلس على بابه كل يوم من الصباح الباكر عماله الكرام، من (غاسلين) وحمالـين ، ومنشدين ..)وهم يتوسمون وجه كل غاد ورائح ، لعل القدر يسعدهم بمرزوء(٢٧) في أحد بنيه ، أو في أمـه أو في أبيه .

وجزت بهم مصبح يوم وعيناي تنضحان بالدمع من أثر الرمد ، فاتلموا الي أعناقهم ، ورأيت البشر يشيع في وجوههم ، وسرعان ماتحركوا جذلـين للقائي ، وهم يدعون الله في أنفسهم أن يجعل (استفتاحي لبن !) ،فصحت فيهم : استريحوا يا أولاد الـ ... ، فما بي والله بكاء ، ولكنه الرمد ، وكلنـا ولله الحمد بخير وعافية ، وقطع الله أرزاقكم ، ولا ادخل النعمة عليكم أبداً ... ! » .

وهذه ثالثة بعنوان :

« مفتش هموم .... ! »

« اعترضني اليوم في مقفلي من الديوان شاب أنيق الملبس ، لعلـه طـالب في احـدى المدارس العالية ، أو في السنين الأخيرة مـن التعليم الثانـوي ، وقال لي : (يا عم) كم الساعـة الآن ؟ فطالعت ساعتي وقلت لـه : الساعة ٢ وسبع دقائق ، فحسر كمه فانكشف عن ساعة ذهبية ، ونظر فيها وقال : لا ! لا ! ساعتك مؤخرة أربـع دقائق ! ثم خلـّى بيني وبين الطريق ، وانطلق لطيته ! وبعد أن أجلت ظني في شأنه أدركت انه ربما كان ... «مفتش هموم الساعات » !

□ مميزات اسلوبه :

للكاتب أسلوبه الذي يدل عليه ، وهذه أولى ميزات هذا الاسلوب ، ولعلها أهمهـا . وهو أسلوب تفرد به حتى عدّ ـ كما شهد له بذلك طه حسين ـ « مدرسة وحده » في جيله ، ووصفه بالكاتب العظيم حين قال : ان المثقفين« ليسوا من الجحود والعقوق بحيث يقصرون في ذات كاتب عظيم كهـذا الكاتب العظيم .وعنده أن أسلوبه« ارفع وأعسر وأشد استعصاء من أن يتعلق به المتأثرون والمقلدون .. » .هو اذاً في أسلوبه ، غير مقلد فلا مجال لالحاقه ـ كما أسلفنا في القسم الأول من هذا المقالـب (المدرسة التقليدية) ، ولا هو مقلَّد ، فلم يتعلق به أحد كما قال طه حسين ، ولم يحاول تقليده أحد . وقد رأينا مع ذلك أنه أقرب ـ بأسلوبه خاصة ـ من مدرسة المحافظين ،فهو في جزالته وقوة أسره وتقبله العبارات البدوية التي تبدو أحيانا وكأنها قدّت من صخر ،أقرب الى هذه المدرسة والصق بأصحابها وحاملـي رايتهـــا .

وللكاتب ، مع ذلك ، تعابير فريدة خصّ بها وخصت به ، تدل على حيوية أسلوبـه ، وحرصه على تصيد الكلمات الحية المعبرة .وزاد على ذلك فاعترف بأنه يسف أحيانا الى « العامية الشائهة » اذا اقتضاه المقام ذلك ،يقول(٢٨) :

« ولعلك آخذي بأنني أسف" أحيانا الى العامية الشائهة ، فأوردها في درج الكلام ، وعذري في ذاك ما تعرف من أننا نكتب بلغة ، ونتناول أسبابنا الدائرة بلغة اخرى ، وهيهات لك أن تجلي على القارىء صورة كاملة من حديث قوم في مناقلاتهم ومنادراتهم ، وما تطارحوا من فنون النكات ، الا بان توردە كما نطقوا به ، وبخاصة اذا كان يجري في التعبيرات التي تشيع على السنة الناس ، وتذهب عندهم مذهب الأمثال ، فاذا حاولت ان تؤدي هذا بفصيح اللغة فسد الغرض واختل نظم الكلام . وللامام الجاحظ في هذا المعنى قول جليل فراجعه ان شئت في كتابه (البخلاء) » .

وهو رأي ـ كما ترى ـ يدل على روح تجديدي واضح ان لم يسلكه في عداد المجددين فهو لا يسيغ جعله في منأى عنهم ، بل لا يمنع من عقد صلة من صلات القرابة معهم ! .

ويقول موجها الكلام الى الأساتذة علاّم سلامة ، ومصطفى صادق الرافعي ، وصادق عنبر ، واضرابهم من أصحاب اللغة والمتشددين فيها (٢٩) :

« اذا أبيتم ألا يتندر الناس الا بالفصيح فعليكم أولا بتحفيظ الأمة كلها « المعلقات السبع » والملحمات السبع ، والمذهبات السبع، والمنتقيات السبع الخ.. الى استظهار «الكامل» للمبرد ، و « الأمالي » للقالي ، و « صحاح الجوهري » ، و « مخصص ابن سيده » ، والأساس للزمخشري الخ الخ ! . وأنا زعيم بأن الناس لن يعودوا يسممون في أعراس (أولاد البلد) في حلل الغناء في (قافية أسماء الشوارع) مثلا : اللي على جتتك ! اشمعنى؟ الضرب لحمر ! ... بل سيسممون بدلها ان شاء الله : هذا البادي على جثمانك ! ما باله؟. من أثر المشق بالسياط !.. »

وواضح من هذا الكلام حرص الكاتب على أن يظهر أمام قرائه بمظهر المجدد غير المتشدد ، فهو يقول مثلا تحت عنوان (غواة) :

« فاذا أباها علينا صديقنا الأستاذ « صادق عنبر » قلنا (هواة) ، وأمرنا لله » .

بل لقد يترخص الى درجة الوقوع في الخطأ اللغوي أحيانا فيقول : « يكلف صاحب (المهم) الفرّاش باحضار « طقم » الشعراء » ...والصحيح « احضار » .

على أن له كما أسلفت ألفاظا وتعابير فريدة ، في أكثرها حيوية قل أن تجد لها مثيلا عند كتّاب عصره ، من مثل قوله في وصف جسيم :

« فاذا دنا منك سمعت له زحيرا من كثرة اكتناز الشحم » .

وقوله في السيارات :

.. « كان مهمتها في هذا البلد صنع أرامل وتخريج أيتام » .

وقوله :

« لا تراه الا طربا طرب العقاد »(٣٠) حين يسيل في (تقاسيمه) » .

وقولـــه :

« متحفظ دونك ما تتفصد نفسه مـــن الرأي بكثير ولا قليل » .

وقولـــه :

« الموظف الذي ينكسر همــه على طلب كُسى الحجّاب والسعاة » .

وبعد فهذا كاتب دخل الى دنيا الأدب من غير دويّ ، وغادرها من غير دوي .. ونامت أكثر الأعين والأسماع عنه نومها الهادىء العميق .. ولكنه لم يمض عن أحبابه ومقدريه مضي الشهاب لا وقع ولا أثر ، بل كان النجم الذي يظل يلمع ويضيء ، ويزداد على الدهر تألقاً والتماعاً .

* * *

☐ الحواشـــي :

١ ـ اعلام الادب والفن (٤٦٢/٢) .

٢ ـ « المختار » ـ للبشري ـ مقدمة الجزء ٢ (ص ٨) .

٣ ـ اعلام الادب والفن (٤٦٢/٢) .

٤ ـ من محاضرة له (١٩٣٣) نشرت في « الاهرام » والسياسة .

٥ ـ المرجع نفسه .

٦ ـ « المختار » (٣٢/١) .

٧ ـ المختار (٢٥/١) ـ (٧ مكرر) المختار (٦٢/٢) .

٨ ـ المختار (٦٧/٢) .

٩ ـ المختار (١٠٩/١) .

١٠ ـ المختار (١٠٨/١) .

١١ ـ المختار (١٠٢/١) .

١٢ ـ المختار (٦٥/٢) .

١٣ ـ المختار (٤١/٢) .

١٤ ـ المختار (١٢/١) .

١٥ ـ المختار (١١٦/١) .

١٦ ـ المختار (٤٢/٢) .

١٧ ـ في المرآة (١٧٣) .

١٨ ـ المختار (٣٥/٢) .

١٩ ـ المختار (٣٩/٢) .

٢٠ ـ المختار (١٠٨/١) .

٢١ ـ في المرآة (١١٤) .

٢٢ ـ في المرآة (١٠٧) .

٢٣ ـ في المرآة (٧) .

٢٤ ـ (١٩٦/٢) .

٢٥ ـ (٢٠٢/٢) .

٢٦ ـ الغلاصة : ما بقي في القدر من تفل او لبن او غيره .

٢٧ ـ مرزوء : مصاب .

٢٨ ـ « في المرآة » ح ـ المقدمة .

٢٩ ـ في المرآة (٨٤) .

٣٠ ـ من عباقرة الموسيقيين ، وعازف مشهور على القانون .

أصداء حطين والقدس في الشعر العربي

د. عمر الدقاق

منذ ان ظهر على الملا عمادالدين زنكي واعقبه ابنه نور الدين محمود في تصديهما للحملات الصليبية ابان القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي ، ومن ثم دخول البلاد العربية والمشرق الاسلامي على يديهما في طور التضامن والتوحد على نحو متعاظم ، أخذ الموقف العسكري ، في أعقاب سلسلة من المعارك المظفرة ، يميل لصالح العرب ٠

غير أن الصليبيين الذين هالهم الأمر ، حاولوا استعادة هيبتهم ، واستقدموا نجدات كبيرة من أوربا ، ودخلت الحروب في طور جديد هو ما يعرف لدى المؤرخين بالحملات الصليبية الثانية ، وكانت وجهتها مصر كيلا يقع يوماً بيت المقدس وعكا وسائر ساحل الشام تحت رحمة الجيوش الاسلامية ، اذا ما قدّر للعرب أن يتحدوا ٠ وكانت مصر ، في أواخر عهد الفاطميين ، غارقة في فوضى سياسية شاملة ٠ وكان خليفتهم العاضد لدين الله طفلا لا حول له ولا قوة ، فخلا الجو للوزراء ولرجال القصر ، واحتدم صراعهم على السلطة ٠٠ واضطر شاور أحد حكام مصر الى الاستعانة بالقائد القوي نور الدين محمود والتحالف معه عسى أن يتغلب على خصومه ٠ وكان أن مضى أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين على رأس جيش الى القاهرة سنة ٥٥٩ هـ ٠ ولكن الصليبيين استطاعوا أن يهيمنوا على مقدرات مصر بعد أمد قصير ثم جهزوا حملة سنة ٥٦٤ هـ ، انطلقت من القدس وعكا لاحتلالها وجعلها في حوزتهم ، وتمكنوا من احتلال بلبيس وارتكبوا فيها مجازر رهيبة. غير أن زحفهم قد توقف على أبواب الفسطاط والقاهرة ، ثم اضطروا للارتداد على أعقابهم نتيجة لاستبسال المصريين وتضحياتهم الكبيرة. وما لبث صلاح الدين في السنة نفسها أن تولى الوزارة بعد عمه أسد الدين ٠ واستطاع بذكائه وحسن تدبيره وعدله وسماحته أن يكسب محبة الشعب وولاء الجيش ٠

وأحس الفرنجة بالخطر المقبل الذي كانوا يخشون حدوثه من قبل في حال دخول مصر في حوزة نور الدين محمود • أما وقد اصبح العرب في الشام ومصر تحت قيادة واحدة قادرة على أن تطبق بكماشتها على امارة القدس الصليبية ، فقد بدا للصليبيين أن خير سبيل للدفاع هو الهجوم ، وهكذا أعادوا الكرة من جديد لاستخلاص مصر لأنفسهم او تولية من يرضون عنه حاكماً عليها ، فاحتلوا دمياط ،وراحوا يتحفزون للانقضاض على القاهرة • غير أن صلاح الدين بذل كل ما وسعه من جهد في التصدي لهذه الهجمة ، ثم خرج للقاء الفرنجة بنفسه على رأس جيش كبير فقهرهم ،وبعد حين في عام ٥٦٦ هـ خرج صلاح الدين من مواقع الدفاع الى مواقع الهجوم بعد أن نظم جيشه أحسن تنظيم وعباه أفضل تعبئة ، فأغار على حصون الصليبيين في الساحل غارات موفقة ، وعاد مظفراً الى مصر بعد أن عظمت هيبته في النفوس • ثم آلت اليه الأمور بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ وتلقب بالملك الناصر • وكانت سنه سبعة وثلاثين عاماً •

واستطاع صلاح الدين بعد ذلك أن يحقق هدفاً كبيراً لا بد منه لبلوغ النصر الحاسم وهو توحيد شمل البلاد العربية ، فدانت له مصر والشام والموصل وبلاد الجزيرة وديار بكر والحجاز واليمن وجزء من بلاد المغرب ، وتدفق عليه المجاهدون من جميع تلك الأرجاء ، وانصبت موارد الأمة في سبيل حركة الجهاد(١) •

وبعد أن وطد صلاح الدين الأمور في مصر ودمشق وحلب ، وذلل ما اعترضه من عقبات ، وأزال من تصدى له من الحكام خرج عام ١١٧٧ م على رأس جيش كبير يروم كسر شوكة الصليبيين ، ولكنه مع ذلك لم يفلح في تحقيق النصر المنشود لشدة تحصينات العدو ومنعة قلاعه • فارتد الى مصر ، وجعل يزيد من استعداده في ضوء تجربته السابقة •

* * *

ان حياة حافلة بجلائل الأعمال وروائع الانتصارات عاشها صلاح الدين زهاء ثلاثة عقود من السنين كانت جديرة بأن تشد اليها النفوس وتجذب نحوها القلوب ، فمنذ أن تولى صلاح الدين شؤون الادارة والحرب ،وهو ابن سبع وثلاثين من عمره انعقدت عليه أوسع الآمال في طرد الصليبيين واسترجاع الربوع المحتلة الى أهلها العرب •

وكان من طبيعة الأمور أن يواكب الأدب تلك الأحداث الجسام وينفعل بما تنطوي عليه من انتصارات باهرة كانت تهز ضمير الأمة ،وتلهب قرائح الشعراء ، وتشحذ ألسنة الخطباء • وقد ذكر بعض الدارسين زهاء خمسين شاعراً(٢) ، منهم المصري والشامي والعراقي ••• كانوا يقدمون اليه حيث كان ،فيبادرون اليه مهنئين ، وينشدونه الأشعار مادحين وممجدين • وقد وصف العماد الأصفهاني بعض هذه المحافل من مثل ما أعقب سلسلة انتصاراته السابقة وذلك قبل معركة حطين واسترداد القدس ببضعة عشر عاماً فقال(٣) : « كنت جالساً بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل فحضر الشاعر سعادة

الضرير وهو من أهل حمص ووقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان احدى وسبعين وخمسمئة » ، وقد استهلها بالغزل(٤) :

حيتك أعطاف القدود ببانها   لما انثنت تيها على كثبانها

وذكر العماد انه في اليوم التالي احتفل الحفل ، بحضور أهل الفضل ، فانشد الشاعر بين يدي صلاح الدين(٤) :

لا يقعدنك ما حلوا وما عقدوا   هم الذئاب، وأنت الضيغم الأسد

وكان ممن قصدوا الى دار العدل أيضاً بدمشق البهاء السنجاري ، وهو من الموصل فانشد قصيدة مطلعها(٥) :

جردت من فتكات لحظك مرهفا   وهززت من لين القوام مثقفا

وكان صلاح الدين دائب الحركة كثير التنقل لا يكاد يستريح به جواده في أرض حتى ينهض الى أخرى • وحين بلغ حمص مرة وعسكر بالعاصي ، قصد الناس الى خيمته مرحبين ، وفيهم الشاعر مهذب الدين الموصلي حيث قال من قصيدة(٦) :

وما خضع الفرنج لديك حتى   رأوا ما لا يطاق من الكفاح
ملأت بلادهم سهلا وحزنا   اسودا تحت غابات الرماح

وكثيرا ما أرسل الشعراء بقصائدهم الى صلاح الدين وهم بعيدون عنه يقرئونه التحيات ويقدمون له التهاني عبر قصائد مطولة، كما فعل سبط ابن التعاويذي من بغداد(٧)، وأبو علي الحسن الجواني من مصر(٨) ••• وقد ضاع الكثير من هذا الشعر الغزير ، بل لم يبق من معظمه سوى القليل روت بعضه أو مطالعه كتب الأدب وكتب التراجم ، مثل كتاب الروضتين ، وخريدة القصر ، ومعجم الأدباء ووفيات الأعيان ••• وكثيرا ما يرد ذكر لشعراء مدحوا صلاح الدين دون أن نعثر لهم في ذلك على شعر •

وربما يكون الشاعر أسامة بن منقذ أمير شيزر وفارسها من أشهر الذين أرسلوا الى صلاح الدين مشيداً ببأسه وحسن تدبيره ، وقد بعث اليه بجملة من القصائد ، الواحدة بعد الأخرى ، في اثر بعض الأحداث التي كانت تستجد عهدئذ بين الحين والحين ، من ذلك قصيدتان داليتان وثالثة ميمية وغيرها(٩) •••

وكثيرون هم الشعراء الذين عاشوا في ابان القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، وعاصروا أحداث عصرهم وواكبوا حياة صلاح الدين الحافلة بجلائل الأعمال وروائع الانتصارات ، فبالاضافة الى الذين سبق ذكرهم كان لعمارة اليمني شعر حسن في صلاح الدين حينما أشاد بجيشه الجرار الذي آخره في مشارف دمشق وأوله في ضفاف النيل، وأنه لولا بأس هذا البطل واستنقاذه مصر لتبدلت خريطة الاسلام في الشرق كله(١٠) :

جلبتم اليه النصر أوسا وخزرجا ‏ وما اشتقت الأنصار الا من النصر

كتائب في (جيرون) منها اواخر ‏ وأولها بالنيل من شاطئتي مصر

ولو رجعت مصر الى الكفر لانطوى ‏ بساط الهدى من ساحة البر والبحر

وهي قصيدة تنطوي على سجل حي لتلك المرحلة الحافلة بالأحداث ٠

على ان استرجاع الأرض ولا سيما بيت المقدس من أيدي الصليبيين كان الهاجس الملح أو الأمل الكبير الذي كان يضطرب في نفوس العرب ويتجلى على ألسنة أدبائهم ٠ ومن أمثلة ذلك ما نجده في قول العماد الأصفهاني مخاطباً صلاح الدين وحاضاً اياه على مهاجمة القدس وقصم ظهر الفرنج :

وما يرتوي الاسلام حتى تغادروا ‏ لكم من دماء الغادرين بها غدرا

فصبّوا على الافرنج سوط عذابها ‏ بان تقسموا ما بينها القتل والأسرا

الى أن يصل الى بيت القصيد مطالباً بفتح بيت المقدس :

ولا تهملوا البيت المقدس ، واعزموا ‏ على فتحه فازين وافترعوا البكرا

والذي يعنينا في هذا المجال المحدود من شعر العماد الأصفهاني وغيره من الشعراء المعاصرين لصلاح الدين هو تعبيرهم – كلما وجدوا الى ذلك سبيلا – عن هذا الهم الدفين الذي كان يعتلج في نفوسهم بل في ضمير العرب والمسلمين كافة ، انه استعادة بيت المقدس ومسجده الأقصى وصخرته المشرفة ، وهذا ما نجده أيضاً في قصيدة أخرى للعماد الأصفهاني اذ يقول مناجياً الملك الناصر(١١) :

فسر وافتح القدس واسفك به ‏ دماءً متى تجرها ينظف

وخلّص من الكفر تلك البلاد ‏ يخلصك الله في الموقف

وانه لهاجس قديم سبق أن عهدناه منذ أيام عماد الدين زنكي ثم ولده نور الدين محمود وتجلى على ألسنة الشعراء والخطباء ولا سيما ابن القيسراني من قبل ٠

وحين غزا صلاح الدين ساحل فلسطين واستعاد غزة وعسقلان انتعشت الآمال واشتدت العزائم ، وأخذ الجميع يتطلعون بلهفة واستبشار الى المرحلة التالية ونهاية المطاف ٠ وقد انفعل عمارة اليمني آنشد بهذا الانجاز العسكري الهام ، وعبّر عن نشوة وطنية دينية بالغة بذلك الانتصار الكبير فقال مشيداً ببني أيوب وزعيمهم :

غزوا عقر دار المشركين بغزة ‏ جهاراً ، وطرف الشرك خزيان مطرق

وزاروا مصلى عسقلان بارعن ‏ يفيض اناء البر منه ويعبق

اضفت الى اجر الجهاد زيارة ‏ الخليل ، فابشر ، انت فاز موفق

وفي رأي العماد الأصفهاني أن هذا الفتح لمدن الساحل لم يكن من صلاح الدين سوى سلّم نحو تحقيق الهدف الكبير ، حيث يتطلع كل عربي تطلع المشوق اللاهف الى ما بعده وهو فتح بيت المقدس الذي طال انتظاره :

وهيجت للبيت المقدّس لوعة	يطول بها منه اليك التشوّق
وغزوك هذا سلّم نحو فتحه	قريبا ، والا رائد(١٢) ومطرّق
هو البيت أن تفتحه ، والله فاعل	فما بعده باب من الشام مغلق

لقد كان الهدف واضحاً أمام القائد صلاح الدين منذ أن امتلك زمام الملك وتولى زعامة الأمة • غير أن الأمور مرهونة بأوقاتها ،اذ كان لا بد من تحقيق جملة من الأعمال قبل خوض المعركة الفاصلة ، وهكذا بعد سلسلة من المعارك والغزوات تم خلالها اقتحام حصون وقلاع واسترداد قرى وبلدان انعطف صلاح الدين الى تدعيم الدولة وبنيانها ، وتوطيد أحوالها وأوضاعها. ووجد من الحكمة أن يتظاهر أمام العدو بالمسالمة والمهادنة ، فعقد معه صلحاً لمدة عامين (١١٨٠) ، دأب خلالهما على تجميع القوى وحشد الطاقات ، وكذلك تعبئة الموارد واعداد الجيوش • حتى اذا ما تم له ذلك ، وتدفق عليه المجاهدون من جميع الأصقاع ، بادر على عادته في بحث الخطير من الأمور ، الى جمع خلصائه وأعوانه، واستدعاء قادته وأركانه ، وخاطبهم بما قر في نفسه ، بعد الاتكال على الله ، من الزحف على بيت المقدس ، واسترجاع سائر الربوع المحتلة من أيدي الفرنجة ، واستئصال شأفتهم من بلاد العرب والمسلمين • فلقي من مجلسه كل المساندة والتأييد ، وبشروه بنصر من الله وفتح قريب •

وفي يوم مشهود توقف صلاح الدين في أعلى جبل المقطم بالقاهرة وهو على صهوة جواده عند مدخل القلعة (التي عرفت بعدئذ بقلعة صلاح الدين) ومن حوله أشد المحاربين بأساً وأعظم الفرسان شأناً ، خرج الناس لتوديعه وقد غلبهم التأثر ، واستبدت بهم الحماسة ، وعلت ألسنتهم بالدعاء له ، فاستمع في سرادقه الى الخطباء والشعراء آملين الخير على يديه حتى يظهره الله على أعدائه • ومما جاء على لسان أحد المتكلمين يومئذ قوله متمثلا بقول الشاعر القديم(١٣) :

تمتع من شميم عرار نجد	فما بعد العشية من عرار

فتطير الناس من هذا القول •

وقد قر في نفس صلاح الدين أن دمشق ينبغي أن تكون منطلق جيوشه ليوم الحسم ، فبقي فيها حيناً من الوقت يوطد دعائم ادارته ،ويعبىء موارده ، ويعد جيشه وعتاده ، مقارباً الساحل • وفي نهار الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ(١٤) انطلق صلاح الدين بجيشه قاصداً الى مدينة طبرية ، فتمهل على سطح الهضبة ينتظر قدوم الصليبيين الذين اجتمعوا في أعداد كبيرة بمرج صفرية بأرض عكا ، ولكنهم لم يتحركوا من أماكنهم ،

اذ انقسموا بين محبذ لمهاجمة صلاح الدين ،ومؤثر بقاء جيش الصليبيين متمركزاً في مواقعه ليحسن التصدي للعرب ٠

ولم يطل بهم الأمر كثيراً ، اذ قام صلاح الدين بهجوم مباغت على طبرية ، واقتحمها في ساعة واحدة ٠

واذ بلغ الفرنجة ما حدث سخطوا واستبدبهم القلق ، وهبوا يستدركون من أمرهم ما فرط ٠ فساروا لمقاتلة صلاح الدين ،وسرعان ما بلغوا مشارف حطين القريبة من مواقعهم في ظاهر عكا ، وكان ذلك في يوم قائظ من مطالع شهر تموز عام ٥٨٣ هـ ، ١١٨٧ م ، فانبرى للقائهم صلاح الدين ولما يستريحوا من عناء الطريق ووهج الشمس ، وحمل عليهم بشدة على رأس كتيبة كتائب من فرسانه ،وساندته في ذلك مجموعات متلاحقة من جنده وهم يصيحون بصوت هادر (الله أكبر) ٠وخلال نهارين من الهول تشتت شمل الفرنجة وراحوا يرجمون القهقرى ٠ فتبعهم العرب وأحاطوا بهم من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، ثم حملوا عليهم بالسيوف. فاعتصمت أعداد كبيرة منهم في اليوم الثاني بتل حطين(١٥) فضايقهم العرب أشد المضايقة ٠ ويروي المؤرخون أن بعض الأشداء من جند صلاح الدين عمدوا الى افساد مياه آبار الأعداء كما أشعلوا النيران في الأعشاب اليابسة المحيطة بمواقعهم ، فزاد هذا من ارتباكهم على حين كانت ضربات الجيش العربي تنهال عليهم دون هوادة ، فتصدع كيانهم وانفرط عقدهم ، واكتظت الأرض بقتلاهم ، وعندئذ لم يجدوا بداً من الاقرار بالهزيمة فاستسلموا للأسر بجموع كبيرة خوفاً من القتل ٠

وكان في عداد الأسرى الناجين الملك (غودي فري) وأخوه الملك (بلدوين) و (أرناط) حاكم الكرك والشوبك(١٦) ٠٠

وانجلت تلك المعركة الكبرى الفاصلة عن انتصار سريع حاسم لجيش العرب ، وكان ذلك يوم الجمعة ، الرابع والعشرين والخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ ، الموافق للثالث وللرابع من شهر تموز ١١٨٧ م٠ وبدا واضحاً لكل من العرب والفرنجة ان سقوط القدس بات وشيكاً ٠

لقد كانت معركة حطين شديدة الوطأة على الصليبيين ، ولم يسبق أن ذاقوا مثلها منذ أن قدموا من ديارهم غازين ٠ وقد هزموا هزيمة نكراء كما تحطم جيشهم الجرار ، فراحوا بين قتيل وأسير ٠ وكان يوم تاريخي آخر في حياة العرب والمسلمين بات مقروناً على صعيد واحد بأمجادهم الكبرى أيام بدر والقادسية واليرموك ٠٠

وانطلق صوت الشعر يومئذ مهللا لهذا النصر العظيم ، وتكاثر الشعراء بباب صلاح الدين مهنئين ، وتوالت عليه القصائد من كل حدب وصوب ، وكلها رضى واستحسان وسعادة واستبشار ٠ ومن هذا القبيل قصيدة لعلي بن الساعاتي(١٧) يقول فيها بنشوة عارمة(١٨) :

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرت عيون المؤمنينا

رددت أخيـــذة الاسلام لمـــا غدا صرف الزمـــان لها ضمينـــا
فيـــا لله كـــم ســـرت قلـــوبا ويـــا لله كـــم أبكـت عيـــونـــا
ومـــا طبـــريـــة الا عـــروس ترفّـــع عـــن أكـــف اللامسينا
حصـــان الذيل لم تقذف بســـوء وســل عنهـــا الليالي والسنينا
فضضت ختامها قســـرا ، ومن ذا يصـــد الليث ان يلـــج العرينـــا
قضيت فريضـــة الاســـلام منهـــا وصـــدقت الامـــاني والظنونـــا
تهـــز معاطف القـــدس ابتهاجـــا وترضي عنك مكة(١٩) والحجونا
فلو ان الجمـــاد يطيـــق نطقـــا لنادتـــك : « ادخلوهـــا آمنينا »
تخـــال حمـــاة حوزتهـــا نســـاء يخوضـــون الحـــديـــد مقنعينـــا
تميـــل الى المثقفـــة العـــوالـــي فهل امست رماحـــا أم غصونـــا
يكاد النقـــع يذهلهـــا ، فلـــولا بـــروق الماضيـــات لمـــا هدينـــا
أدرت على الفرنج ـ وقد تلاقت جموعهـــم عليك ـ رحى طحونا
ففي (بيسان) ذاقوا منك بؤسا وفي (صفـــد) اتوك مصفدينـــا
فـــلا عـــدم الشـــآم وساكنـــوه ظبى تشفي بها الـــداء الدفينـــا
وقلب القدس مســـرور ، ولولا سطاك لكـــان مكتئبـــا حزينـــا

وواضح من خلال القصيدة ان هذا النصر القومي للعـــرب على الفرنجة كـــان في الوقت نفسه نصراً للاسلام اذ رد اليه صلاح الدين ما أخذ منه · فغدت عيون العرب قريرة به علـــى حين فاض الدمع حزناً من مآقي الصليبيين ·

ذاك يوم أغر أشرقت فيه المنى ، تبرجت طبرية عروسا مجلوة افترعها القائد الظافر ·

ويطيب للشـــاعر ابـــن الســـاعاتـــي أن يستلهم في قصيدته الطويلة مواطن الاشـــراق في تراثه العـــريق ، فيضمن أبياته حينـــاً بعض آيات القرآن الكريم ، اذ همت الجمـــادات بأن تقول (ادخلوها بسلام آمنـــين) ، أو ينســـج قوله على غرار بائية بشار مستعيراً صورتـــه الذائعة التي تشير الى أن السيوف في المعركـــة هي التي كانت تنير قتامة النقـــع حين أخـــذت تتهاوى كالكواكب ، فيهتدي ببريقها الفرسان :

يكـــاد النقـــع يذهلهـــا فـــلولا بـــروق الماضيـــات لما هـــدينـــا

وفي الوقت نفسه هاج النصر قريحة الشاعر ابن سناء الملك فيمن هاج قرائحهم ، فنظـــم وهو في مصر قصيـــدة سينية أشاد فيهـــا ببأس صلاح الدين وجيشه يوم حطين فقال(٢٠) :

حطمت على حطـــين قدر ملوكهـــم ولم تبق من أجناس كفرهـــم جنسا

ثم أطنب في ذكر خصاله وفعاله في اثـرهذا الحدث التاريخي الكبير :

رايت صلاح الدين افضل من غـدا وأشرف من أضحى واكرم من أمسى
سجيتـه الحسنى ، وشيمته الرضى وبطشته الكبرى ، وعزمته القعسا

وفي موكب الفرح الغامر ، اثر معركةحطين ، ينظم الشاعر فتيان الشاغوري ما حدث في ذلك اليوم(٢١) ، فيصف جانباً من تفصيلاتالمعركة وجزئيات القتال على نحو قلما التفت الى مثله الشعراء في نزوعهم المعهـود الى الاقتضاب في الوصف والاسهاب في المديح ، ففـي القصيدة نرى طلائع المحاربين الصليبيين بخيولهم ، المطهمة ، يمتليها فرسانهم الأشداء وهـم يتنادون لقتال العرب ، ويطلقون صيحات الحرب :

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهـم يتذامـرون على متـون الضمـّـر
اوردت أطراف الرماح صدورهـم فولغـن في علـق النجيـع الأحمـر

وهذا القول يشير الى ما كان من حقيقة الصليبيين ومدى استعدادهم لملاقاة العرب، ومنحى الشاعر في الوصف هو عدم التهوين من بأس العدو بل انصافـه وبيان قدرته ، وهـذا يعيد الى أذهاننا ما درج عليه كثير من شـعراء الحماسة عند العرب ، ولا سيما ما عمد اليـه عنترة في معلقته ، وتأثر الشاعر هنا بالشاعر الجاهلي واضح على صعيد الألفاظ والمعاني ، بصدد تصوير منازلتـه لخصمه العنيـد ، أوما نجده في بائية بشار خـلال وصفـه لجيش العدو الذي كان في انتشاره كجنح الليل ، وفي عدده كعدد الحصى ، وفي كثرة سلاحه كغابـة الشوك ، أو ما كان أخيراً من اشـادة المتنبي في ميميتـه بجيش الروم الذي زحمت أطرافـه الأفاق وبلغت زمازمه أذن الجوزاء ٠٠ ومـع ذلك بدا اليـوم من سـير معركـة حطـين أن الصليبيين على قوتهم لا قبل لهم بايقاف المـدالعربي وليس بوسعهم قهر العرب الذين طالمـا أعدوا لهذا اليوم ما استطاعوا من قوة ومـن رباط الخيل يرهبـون به عدوهم ٠ وهكـذا استعر لهيب القتال ، وانبرى المجاهدون العرب يذيقون أعداءهم الأهوال ، فلا يغادرونهم كما يقول فتيان الشاغـوري الا بعـد أن ترتـوي رماحهم السمر من دماء الفرنجة الحمر ٠

وفي المقاطع التالية من القصيدة أيضـاً أن أكثر ما كان يرى في زحمة الالتحام ، حيث يفغر فاه الموت الزؤام ، رؤية مجاهد عربي وهو ينقض كالشـهاب في اثر مقاتـل صليبي يركض بخفة أمامه ركض العفاريت عساه ينجو بجلده من القدر المحتوم :

فهنـاك لم ير غير نجـم مقبـل في اثـر عفريت رجيـم مدبر

وتنطوي بقية الأبيات أيضاً على اشـارة واضحـة الى ما دونتـه كتب التاريـخ مـن تفصيلات معركة حطين ، وما نجم عنها من كثرة الأسر ٠ حتى بيعت الأسيرات بأبخس الأثمان ، ويذكر المؤرخون أنه بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهـم أن بيـع منهـم يومئـذ واحـد بنعـل(٢٢) ٠

فمن الذي من جيشهم لم يخترم ومن الذي من جمعهم لم يؤسر

حتى لقد بيعت عقائل ارهقت بالسبي بالثمن الأخس الأحقر

ويشيد الشاغوري ، في نهاية المطاف ، ببعض سجايا البطل الأيوبي الكبير تجاه أعدائه ، وكيف أنه جنح للتسامح معهم ، فأمنهم على نسائهم ، وحماهم وذويهم من كل أذى ، كما تقضي بذلك عقيدته السمحة :

آمنت سربهم ، وصنت حريمهم ودرات عنهم قاصمات الأظهر

ما ان رآك الله الا آمرا فيهم بمعروف ومنكر منكّر

متواضعا لله جل جلاله وبك اضمحلت سطوة المتكبر

على ان البطل الأيوبي لم يشأ أن يركن للدعة أو يأنس بالراحة ، كما لم يكن ذلك الظفر المبين ليغريّه ويزدهيه، فمضى في طريقه الى النهاية، وتوالت الأحداث وتواصلت المعارك، اذ قر عزم صلاح الدين على ألا يدع لعدوه فرصة لجمع شتاته ، وهكذا استولى على مواقع حصينة في الساحل ليمنع وصول النجدات الى الفرنجة في القدس ، وليبقي على خطوط مواصلاته سالمة مع مصر ، كي يضمن وصول المؤن والمدد اليه ·

واستطاع القائد العربي اقتحام مدينة الكرك الحصينة ومن بعدها مدينة نابلس ، والاستيلاء على الكثير مما في ربوع فلسطين من مواقع وقلاع · وكان ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين يواكب هذه الأحداث ويصف هذه الانتصارات(٢٣) :

هل الكرك الثكلى باولادها انتهت عن النسل مما جرعته من الثكل

وكانوا لها كالعقد لكنه وهى واضحى لها جيش ابن ايوب كالغل

اتاهم كمثل الرمل ينقل خيلهم الى الافق ما فوق الطريق من الرمل

ثم يصف ما كان بعد ذلك من تهاوي ما تبقى من مدن الشام تحت ضربات جيش صلاح الدين وقذف الحصون المعادية بمجانيقه(٢٤) :

فنابلس لما نزلت بربعها اقامت بهم حق الضيافة والنزل

وقد رجمتها المنجنيقات اذ رمت لشيخ لعين كافر جاهل رذل ···

وكان أن تابع القائد صلاح الدين زحفه المقدس ، فيمم وجهه شطر بيت المقدس ، فبلغ أبواب المدينة يوم الأحد ، الخامس عشر من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ ١١٨٧م. وكانت القدس مدينة حصينة ، تحيط بها أسوار منيعة ، فحاصرها العرب من جميع جهاتها ، ونصبوا المجانيق لدك أبراجها · وقد احتمى الصليبيون في داخلها بعد أن عقدوا العزم على الدفاع عنها · غير أنهم بعد أن تحملوا الحصار نحواً من سبعة أيام أدركوا أن لا قبل لهم بذلك الجيش الظافر وقوته الضاربة ، ولا سيما بعد أن خضدت شوكتهم ، ووهت

هزيمتهم ، وتحققت في حطين هزيمتهم • فرأوا من الخير حقن دمائهم ، وقر رأيهم على رفع رايات التسليم ، وجرت مفاوضات على شروطه • وكان صلاح الدين كدأبه شهماً متسامحاً مع أعدائه ولم يتكبر أو يتجبر •

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣ هـ ، الموافق لمنتصف تشرين الأول من عام ١١٨٧ م دخل الناصر المظفر المدينة المقدسة • وصادف ذلك أن المسلمين احتفلوا في تلك الليلة أيضاً بذكرى ليلة الاسراء • وكان نصراً مؤزراً وفتحاً مبيناً(٢٥) •

وفي اثر ذلك المنعطف التاريخي الحاسم طار صيت الناصر صلاح الدين ، وعم الفرح والابتهاج جموع العرب والمسلمين ، فدوت أخبار انتصاره في كل الأسماع ، وانغمرت بمحبته كل القلوب ، وغدا رجل الساعة وبطل الأبطال •

وما ان بلغت البشرى الجديدة بفتح بيت المقدس بعد حطين ، أرض الكنانة ، حتى هلل الناس وكبروا ، وانطلقت ألسنة كتابهم وشعرائهم تتبارى في التعبير عن نشوتهم بهذا الفتح المبين ، وكان صوت ابن سناء الملك من مصر صوتاً مدوياً ومنتظراً في عالم الأدب ، وقصيدته كما هو شأن الكثير من أمثالها تجمع بين المديح والحماسة ، انه يخاطب البطل الأيوبي مرة أخرى اليوم بعد أن خاطبه بالأمس القريب في قصيدة سينية سالفة ، حين حط بباسه يومئذ على حطين ، فيقول :

لست ادري باي فتح تهنا ... يا منيل الاسلام ما قد تمنى
قد ملكت الجنان قصراً فقصراً ... اذ فتحت الشام حصناً فحصنا
فاستحالت شقائق الكفر صمتاً ... حين عادت تلك الشجاعة جبنا
اشجع القوم فيهم جاعل الدرع ... هروبا او الفرار مجنا
وجرت منهم الدماء بحاراً ... فجرت فوقها الجزائر(٢٦) سفنا
قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً ... وحويت الآفاق سهلاً وحزنا

كذلك بادر علي بن الساعاتي من جديد وبتساؤل المذهول المفتون ، الى تصوير وقع النبأ العظيم الذي جلّ عن أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب(٢٧) :

اعيتا ، وقد عاينتم الآية العظمى ... لأية حال نذخر النثر والنظما

وكان طبيعياً في موكب الشعر أيضاً أن يكون للعماد الأصفهاني شاعر صلاح الدين وكاتبه ما يقوله في هذه المناسبة ، مشيداً بنصر مليكه العظيم ، وما كان له على العرب والمسلمين من فضل عميم • وقد استهل قصيدته بالاعراب عن أساه لمفارقة مولاه منذ أن غادر ذلك القائد أرض الكنانة في حملته الكبرى مجاهداً لتحرير الوطن من دنس الاحتلال ، فقال(٢٨) :

استوحش القلب مذ غبتم فما انسا ... واظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا

ومن مصر أيضاً صوّر نقيب الأشراف شرف الدين الجواني ذلك الفرح الغامر في اثر انتصارين خالدين : حطين والقدس ، يكاد المرء لا يصدق أخبارهما فقال :

أترى مناماً ما بعيني أبصر القدس يفتح والفرنجة تكسر
ومليكهم في القيد مصفود ولم ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي وعد الرسول فسبّحوا واستغفروا
فتح الشآم، وطهّر القدس الذي هو في القيامة للأنام المحشر
حيث الرقاب خواضع، حيث العيون خواشع ، حيث الجباه تعفر
ملك غدا الاسلام من عجب به يختال ، والدنيا به تتبختر

وتمكس القصيدة مشاعر الأمة يومئذ حين أتتها البشرى بتحقيق الأمل المنشود ، بعد أن غلب التشاؤم على النفوس ، وكاد الناس يستسلمون لليأس ، فلا غرابة بعد ذلك أن يقر لدى المؤمنين بأن ما حدث كان نصراً من الله ووفاء بما وعد به رسوله ، وأن تنطوي الأبيات على العديد من المعاني الدينية المعهودة في مثل هذه الأحوال من التسبيح والاستغفار ، ومن التطهر والقيامة والحشر ...

وكان فخر الكتاب الحسن بن علي الجويني قد صور انفعاله بتلك الأيام الغر فقال من قصيدة طويلة(٢٩) :

جند السماء لهذا الملك اعوان من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء ، وما له سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده صيداً ، وما ضعفوا يوما وما هانوا

واذا تجاوزنا هذه الأبيات التي استهل بها الشاعر قصيدته وما تلاها من كلام معهود ينطوي على تصوير المشاعر الدينية المتأججة والطابع المقدس لذلك النصر ، فان الذي يمنينا هو جانب من المضمون الذي أورده الجويني ، وقلما عثرنا على مثله في كثير من الأشعار . فقد عقد الشاعر بعض المقارنات بين صلاح الدين وعدد من الملوك المتقاعسين الذين سلفوه ، دون أن يلبوا نداء من يستغيث بهم من وطأة الفرنجة وتجبرهم ، فأحجموا عن الجهاد وخانوا البلاد :

كم من فحول ملوك غودروا وهم خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بِمَلِكشاهِ طرابلس فحاد عنها وصمّت منه آذان

ولعل من أهم ما يورده الشاعر في قصيدته أيضاً ، فيما يقارب النزعة التوثيقية ، اشارته الى بعض الحقائق التاريخية ، بل رصده للواقع السياسي والاجتماعي والنفسي لحال العرب عهدئذ قبل أن تكتحل عيونهم بمرأى ذلك الفتح المبين :

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والاسلام أنصاره صم وعميان

ومن هذا القبيل من ميل الشاعر الى النزعة التوثيقية قوله بعد ذلك مبينا الطابع السريع بل الصاعق للمعارك الكبرى التي استطاع بفضلها صلاح الدين أن يحسم الصراع الى حد كبير بين العرب والفرنجة :

في نصف شهر غدا للشرك مصطلبا   فطهرت منه أقطار وبلدان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد   تنزلت فيه آيات وقرآن

وما أجمل المبالغة في هذا البيت الأخير ٠

وانه لما يسترعي النظر في هذا الغمار من الخطب والأشعار أن تطير أخبار الفتح المبين الى أقصى المعمورة وتلامس أسماع أبناء العمومة العرب في الأندلس ، فتهز نفوسهم وتخفف عنهم بعض ما كانوا يعانونه من غفلة حكامهم ووطأة أعدائهم ، فدولتهم صارت الى دول ، والفرنجة هنا كما هم هناك أيضاً أعداؤهم ٠ ونحن واجدون صورة لهذه المشاعر في قصيدة نظمها ابن جبير الأندلسي الرحالة الشاعر(٣٠) :

اطلت على افقك الزاهر   سعود من الفلك الدائر
ثارت لدين الهدى في العدا   فاثرك الله من ثائر
وقمت بنصر اله الورى   فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهداً صابراً   فلله أجرك من صابر
فتحت المقدس من ارضه   فعادت الى وصفها الطاهر
وجئت الى قدسه المرتضى   فخلصته من يد الكافر
واعليت فيه منار الهدى   واحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذي الفتوح   من الزمن الاول الغابر
وخصك من بعد فاروقه   بها لاصطناعك في الآخر

ولعل بيت القصيد في قصيدة ابن جبير قوله ، وكأنه القرار في نهاية النشيد السعيد :

وادبر ملكهم في الشآم   وولى كأمسهم الدابر

★ ★ ★

وانحسر المد الصليبي بعد معركة حطين وفتح القدس ، وبعد الاستيلاء على الكرك ونابلس ، وسقوط عسقلان ، وبقي جزء من الساحل لاذ به الفرنجة وتواصلت منه امداداتهم مع أوربة ٠ وكانت (صور) أمنع معاقلهم الباقية ، حيث تجمعت فيها بقايا جيوشهم المنهزمة ٠ وكان ساحل الشام هدفاً لصلاح الدين ومن قبله نور الدين وعماد الدين بعد أن تمكن فيه الصليبيون وأحسنوا تحصينه، وقد برزت الرغبة في الاستيلاء عليه من جديد

حتى يغدو النصر كاملا والطرد شاملا . وينعكس ذلك في قول شاعر دمشقي اسمه سعيد ابن عبدالله منذ أوائل عهد صلاح الدين وانضمام دمشق الى ملكه :

فاسلم صلاح الدين ، وابق لدولة ... ذلت لدولتها ملوك زمانها

وانهض الى فتح السواحل نهضة ... قادت لك الأعداء بعد حرانها

واذ تعود القدس الى حوزة العرب ،تشتد اللهفة على استعادة ما تبقى من مدن الساحل وفي مقدمتها صور ، ويبدو ذلك في قول فتيان الشاغوري يخاطب صلاح الدين :

فانهض لصور فهي أحسن صورة ... في هيكل الدنيا بدت لمصور

كذلك يثير العماد الأصفهاني قضية صور وسائر مدن الساحل على هذا النحو من الاهتمام ، ولا سيما بعد تحرير القدس ، وهو الذي واكب بشعره معظم ما سلف من أحداث :

قل للمليك صلاح الدين ، أكرم من ... يمشي على الأرض، أو من يركب الفرسا

من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... (صور) ، فان فتحت فاقصد (طرابلسا)

وأخل ساحل هذا الشام أجمعه ... من العداة ومن في دينه نكسا

والتفت صلاح الدين الى صور بعد أن استقدم أسطولا من مصر لمحاصرتها من البر والبحر ، غير أن الفرنجة أوقعوا بسفنه ضربة على حين غرة في احدى الليالي ففك عنها الحصار بعد أن استعصى اقتحامها على جنده الذين أخذ منهم التعب مأخذه ، ووجد القائد الأيوبي ان من الحكمة عقد صلح مع الفرنجة كي يلتفت الى اصلاح بلاده واراحة عساكره ، وما لبث الأجل أن وافاه بدمشق في ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م ، عن سبع وخمسين سنة . وكان يعتزم لو امتد به الأجل أن يستكمل اجلاء الفرنجة عن جميع ربوع الوطن ، بل أن يغزو الجزر التي كانت في عرض البحر ليقطع عن أعدائه خطوط امداداتهم من الأعتدة والمقاتلين ، وبذلك يتسنى له استئصال جذورهم ومحو أثرهم .

وكان موته حدثا فاجعا ، ولم يكن لدويه نظير منذ وفاة الخلفاء الراشدين . وقد ارتاع له الشعر ، فرثاه أحر رثاء ، وندب فيه تلك الخلال السمحة التي جعلته حبيباً الى القلوب ، أثيراً لدى النفوس ، ورمزاً للدفاع عن حمى الدين وربوع الوطن .

وان ما قيل من شعر ومن نثر في أعقاب هذا النبأ الأليم كان شديد الغزارة ، ويكاد في معظمه يبكي العظمة والقوة ، والحزم ،والشجاعة ، والعزة والكرامة ، والتقوى والسماحة . ولعل قصيدة واحدة كقصيدة العماد الأصفهاني تصلح لأن تكون صورة للمشاعر المريرة في ذلك اليوم الحزين ، كما ان كون أبياتها بلغت مائتين واثنين وثلاثين بيتا يشير الى مدى انغمار النفوس بمشاعر الأسى والاجلال :

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء ، وأقلعت حسناته

أين الذي عنت الفرنج لباسه ذلا ، ومنها أدركت ثاراته
لو كان في عصر النبي لأنزلت في ذكره من ذكره آياته
ما كان أسرع عصره لما مضى فكأنما سنواته ساعاته

* * *

واذا كان يحسن بالدارس ـ بعد هذا الرصد النسبي للعديد من النصوص الشعرية ـ أن يضع هذا الشعر في ميزان النقد محاولا أن يتلمس طبيعته ويستجلي ملامحه ، ثم أن يجيل فيه النظر ، فيستخلص ماله وما عليه ويخرج بعد ذلك بصورة أمينة وجلية له ، فقد يكون يكون من المجدي أن يفضي بنا القول الى ما يلي :

كان للشعر العربي دور هام في أحداث هذا العصر ، ولا سيما عبر القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، وذلك في ظل المثلث القوي : عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين ، وهم القادة العظام الذين عاصروا المد الصليبي في بلاد العرب ثم انحساره ، كما واكبوا الأحداث الجسام وكانوا في كثير من الأحوال هم صانعيها •

وهذا الشعر عهدئذ ترجمانا قويا لما كان يضطرب به ذلك العصر من وقائع وأحداث، بعد أن كانت مضامينه ضحلة محدودة • وان في مواكبة القصائد لأحداث عصرها ، وجعلها من القوافي مرايا لما حولها ••• كل ذلك أعطى الشعر سمة الحياة وطابع الصدق وهذا هذا الشعر الموروث عن تلك الحقبة سجلا ذا أهمية معرفية في وصف الكثير من الأحوال والملابسات، بل تأريخ ما لا يستطيع التاريخ النهوض به من تصوير منازع الأمة ورصد ضميرها ومشاعرها •

وكان الشعر يحفز القادة والحكام على العمل ، ويقوي فيهم العزم على الجهاد ، ويزيد في نفوسهم الشعور بالثقة والبأس • ومعلوم أن كثيرا من الشعر العربي ، ولا سيما هذا الشعر الملتحم بالأحداث ، شعر محفلي يلقى القاء في المساجد ، أو ينشد انشادا في المجالس، بين يدي أولي الأمر وذوي الشأن ، وذلك على ملأ من الناس ، حيث يحرص كل حاكم أو قائد على أن يقع في نفوس القوم الموقع الذي يريدون •

ومن جهة أخرى ، كان كل حادث سعيد من تسلم زمام الأمور أو قهر خصم ، أو تحقيق انتصار على عدو ••• حافزا يهيج قرائح الشعراء ويضاعف نظمهم ، فتلتئم في اثر ذلك المحافل ، وتنطلق الألسنة على المنابر ••• ويكون لذلك كله وقع في امتاع العامة وارضاء الخاصة ، حيث تغدو للأدب مهمة اعلامية ودعائية بالغة الأثر في تهيئة النفوس وتوعية العقول وتعبئة المشاعر •

وكان الحكام ، ولا سيما القادة في هذا العصر ، يحرصون على حضور هذه المحافل الحاشدة أيام الجمع والأعياد وفي أعقاب تولي الأمور وتحقيق الانتصارات ، فيطربون لما يسمعونه من حمد وثناء ، ويجودون على الشعراء بما يكون لديهم من فضل وعطاء •

وعلى صعيد آخر فان في حرص الشاعر على ذكر مجموعة من أسماء القادة الأعلام والامراء الحكام الذين ارتبطت شخصياتهم بالأحداث ، وكذلك ايراده أسماء البلدان والمواقع والحصون التي كانت مسرحاً لتلك الأحداث ... كل ذلك كفيل بأن يضفي على تلك القصائد سمة واقعية بارزة . غير أن هذه الواقعية قلما تأخذ أبعادها اللازمة بسبب اغفال الشاعر في أغلب الأحيان للعناصر الزمانية والمكانية الملازمة لمجرى الأحوال وسير الوقائع ، والمرتبطة بطبيعة القتال وطابع العراك ، أو ما يكون من التصدي والالتحام ، أو ما يتصل بذلك من كر وفر ، ومطاردة ومصاولة ، أو صيحات الحرب وحمحمات الخيل ، أو صليل السيوف وتشاجر الرماح .. الخ . فكثيراً ما يجنح الشعراء ، على معهود الأعراف الأدبية السائدة ، الى التعميم والمبالغات ، وينجم عن ذلك في نهاية الأمر غلبة التسطح على القصائد وافتقادها عناصر الرصد التسجيلي والتصوير الواقعي ، الا ما كان على نحو محدود ومن خلال أشعار قليلة ... وتبعاً لذلك كله توارت خصوصية هذا الشعر ، وغلب عليه التشابه ، واختلطت خلاله النماذج ، وكان ان افتقد قدراً كبيراً من الجدة والطرافة ومن التميز والأصالة .

وقد يكون من العسير أحياناً – في مقابل غياب الصفة التوثيقية لجانب من هذا الشعر – أن يتمكن الدارس من التمييز بين القصائد التي كانت تقال في العديد من المناسبات ، كوصف معركة أو تهنئة بنصر ... كذلك يصعب الاهتداء خلال هذه الأشعار الى مناسبات هذه القصائد وفرز ما كان منها مثلاً في أعقاب الظفر في حطين أو فتح القدس ... فالشاعر العربي نفسه يؤثر التحدث في العموميات ويطيب له أن يحوم في فلك السجايا المثلى والخصال المجردة ونحو ذلك مما يصلح لأن يقال في أحوال متعددة وأزمان متباعدة .

وان استقراء الأشعار التي تجاوبت فيها أصداء الغزو الصليبي يشير بجلاء الى أن محورها كان صورة البطل ، وما ينطوي عليه من الخصال والفعال ، ومن ثم تمجيده ونسبة الفضل اليه ، وهذا منحى يمكن تقبله وفهم دواعيه لأن الانعطاف الذي تحقق بخروج العرب من عهد الضعف والتمزق الى عهد المنعة والتلاحم انما مرده الى همة أفراد بعينهم جاد بهم الزمان على الأمة بعد طول تعثر واحتباس ، فكان أن أنجبت تلك الأيام قادة عظاماً مثل عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وأمثالهم ، الذين ألفوا القلوب المتنافرة وجمعوا الجهود المبعثرة ، ورأبوا الصدع ، ووحدوا الشمل ... وكان كل ذلك ايذاناً بنصر من الله وفتح قريب ..

ومع ذلك وبرغم التركيز على صورة البطل الفرد وما تنطوي عليه في أغلب الأحيان من مبالغات معهودة ، فان الشعراء لم يغفلوا دوماً المجهود الجماعي للمجاهدين وسائر المقاتلين في الجيوش المظفرة ، لأن هؤلاء في حقيقة الأمر هم الذين يجودون بالأرواح ويصنعون النصر ، ومثل هذا المنحى ظاهر في قول ابن القيسراني(٣٢) :

وجند كالصقور على صقور ... اذا انقضوا على الأبطال صادروا

اذا أخفوا مكيدتهم أخافوا ... وان أبدوا عداوتهم أبادوا

ولعل من الأسباب التي أدت الى افتقـادالقصائد المدحيـة ـ الحماسية التي نظمت في في عصر الغزو الصليبي لذلك التميز المطلوب في العمـل الأدبي وللتـألق المنشـود في النص الشعري انما يرجـع الى أن الشاعـر في تلك المرحلة قلما كان شاهـداً للمعركة يراهـا من كثب ويعاينها من قرب ويعيش أهوالها وينفعل بأجوائها ٠٠٠ كمـا كان شـأن السالفـين من الشعراء الفرسان ، أو ما كان من شـأن بعض الشعراء في عصور لاحقة ممن لزموا القـادة في غزواتهم وصحبوهم في حلهم وترحالهم ، مثـل أبي تمام الذي كان في ركب الخليفة المعتصـم يوم وقعة عمورية ، ثم أبي الطيب الذي كان في صحبة أميره سيف الدولة ابان معركة الحدث .. وما من ريب أن مثل هـذا الشـرط لم يكـن تحقيقه يسيراً على كل شاعر ٠ ومن جهة أخرى فان تسارع الأحداث وتباعـد البقـاع كانـا يحولان غالباً دون مثل هذه المشاركة من قبـل الشعراء ٠ وكثيراً ما كانت قصـائد التهنئة والمديح والتمجيد تـرد من أصقـاع عربيـة واسلامية بعيدة قد تبلـغ أقصى خراسـان أو أقصـى الأندلـس ، تبعـا للطـابع الشمولي للأحداث الذي تجاوز النطاق المحلي المحدود ، الى رحاب الجهاد الديني والقومي الشامل ٠

ومن طوابـع الشـعر الحماسي في ذلـك العصر ، ان أكثر الشعراء في قصائدهم الجهادية دأبوا على تناول هذا الموضوع المتصل بالأحداث على انه موضوع مدحي يدخل ضمن الاطار الشامل لذلك الغرض البـارز من أغـراض الشعر العـربي ٠٠٠ وهـذا المفهوم السائـد والمتوارث عند الشاعر كان يقوده بطبيعة الحال الى التركيز على شخصية البطل أو القـائد أي على شخصية الممـدوح ، بحيث يتخذه محـوراً ومنطلقاً لأوصاف جزئية ومعان جانبية تتصل بصفاته قبل كل شيء ، وتغـدو معها سـائر العناصر الملحمية ثانويـة تدور في فلك هـذا الفرد الموصوف أو الممدوح ٠

واعتماداً على هذه المعطيات اتكأ الشعراء في تصوير معارك ممدوحيهـم على الأوصـاف السائدة في الشعر الحماسي الموروث ، ولاسيما قصائد أبي تمـام والمتنبي ، وذلـك لعـدد من الأسباب ، أولها منزلة هذين الشاعرين ومـا لهما من هالة في النفوس ، ومنهـا أيضاً قـرب العهد من هذين الشاعريـن العباسيين ، كذلك تشابه الظروف والمواقف والمعارك تجاه عـدو واحد بالأمس واليـوم وهو الفرنجـة : روماً وصليبيين ٠٠

لقد كان النموذج الشعري في كثير مـن الأحيان ماثلا في الأذهان ، وسـرعان ما كـان الشيء بالشيء يذكر ، فتقفـز الى الذاكـرة روائع شعرية حافلة بالملامح الملحمية مثل بائية أبي تمام في (عمورية) المعتصم ، أو ميميـة المتنبي في (حدث) سيف الدولـة ٠٠ فيكـون لشعراء الحقبة الصليبيـة من ذلك معـين ثر يتكئون عليه ، ويغترفون منه ٠ ومع ان هـذا المنحى يغري بالتباري ويحض على التجويد الا أنه في الوقت نفسه يبقي الشاعر دائراً في فلك الشعراء الآخرين ، يستمد من معانيهم ويمتح من صورهم على حين ينأى بشعره عـن سمات الابداع وملامح الأصالة ٠

يضاف الى ذلك أن نأي شعراء هذه الحقبة المتأخـرة نسبياً عن العصـور العربيـة الأولى وما كانت تفتقر اليه من مقومات العظمـة الماضية ، وعناصر المنعـة السالفـة ، حـال دون تشبعهم بالنسغ المنشود لشعرهم ، اذ كان الجو الغالب عليهم قبـل أن يفـرض على العـرب

والمسلمين الواقع الجديد في اثر الاجتياح الصليبي هو الحياة برتابتها ، وما كانت تنطوي عليه من ممارسة الحكام والناس للشؤون المعيشية المعتادة ، وأمور عيشهم اليومي ... كل ذلك يعني أن شخصية الشاعر عهدئذ لم تكن مهيأة للعنف والصدام ، ولا معدة لروح المواجهة والتصدي ، بل كانت اليفة أغراض المديح والرثاء وموضوعات الوصف والزهد ... حتى شعر الحماسة نفسه ، وهو من أوسع الأغراض في الشعر العربي عبر العهود السالفة لم يعد له قبل الغزو الصليبي حيز حقيقي في الساحة الأدبية ، وقل من كان يمارسه من الشعراء لقلة مظاهر البأس وغياب الكثير من ملامح القوة لدى حكام ذلك العهد ورجاله .

وقلما كانت قصائد ذلك العصر تتجاوز السرد والنقل في اطار الوصف المعهود .

واخيرا ، لعل من أهم أسباب عدم تالق كثير من الشعر الذي قيل في ظل الحروب الصليبية ، غلبة المنحى اللفظي ، وسيادة الزينة البديعية على الذوق الأدبي العام ، فقد غدت عناصر السجع والجناس وغيرها من الزخارف الأسلوبية تيارا فنيا طاغيا قلما برىء منه كاتب أو شاعر ... وطبيعي ان هذا يعني طغيان الشكل على المضمون في الأدب ومن ثم افتقاد التعبير الفني في كثير من الأحيان لمقومات العبارة المتوثبة والصورة الحية .

وقد يكون في نهاية المطاف من أهم سمات الشعر في ذلك العهد من الوجود الصليبي في أرض العرب ان ذلك العصر لم ينجب شعراء كبارا في مستوى الفحول المتقدمين بحيث يكونون قادرين بما أوتوا من مواهب أن يعبروا عن أحداث عصرهم الجسام وانتصاراته العظام . لقد كانت قرائحهم كليلة ، لم تسعفهم على أن يرقوا في فنهم الى مستوى تلك الأحداث المتفاقمة ومعانقة نبضها المتسارع .

ان ما نهض به الأفذاذ كعماد الدين ونور الدين وصلاح الدين من أعباء جسام ومهام عظام ، في ظل واقع سياسي مضطرب ممزق ،انما يفوق الى حد كبير ما قام به بعض الخلفاء العباسيين ثم القادة الحمدانيين .. ولكنهم برغم ذلك لم يحظوا بشعراء مبدعين على النحو الذي جاد به الدهر على أسلافهم . لقد كانت أجنحة الشعر في ذلك العصر أوهى من أن تنهض بتلك الأمجاد والبطولات . وهذا ما يجعل المرء يتساءل بحسرة : ماذا كان يمكن أن يكون عليه حال أدبنا العربي لو أن القدر أتاح لمباقرة الحرب والفروسية ابان الصراع العربي الصليبي شعراء كبارا يوازون عظمتهم بما يقابل ذلك من مواهبهم ، ويكونون في مستوى الفحول المتقدمين الذين جاد بهم الزمان في العصور العربية السالفة مثل بشار وأبي تمام ومثل أبي الطيب وأبي فراس ...

* * *

الحواشـي :

١ ـ انظر : الادب في بلاد الشام ٣٧ ـ ٤٣ ، الدكتور عمر موسى باشا ، ط ٢ دمشق ١٩٧٢ ٠
٢ ـ الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية ، ٤٣٤ ، د٠ احمد احمد بدوي ٠
٣ ـ خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١ : ٤٠٦ ٠
٤ ـ خريدة القصر ١ : ٤١٢ ٠
٥ ـ خريدة القصر ٢ : ٤٠٢ ٠
٦ ـ كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ٢ : ١٦ ـ ١٧ ، شهاب الدين ابو شامة ٠ مصر ١٢٨٨ هـ ٠
٧ ـ وفيات الاعيان ٢ : ٤٠٣ ابن خلكان ٠
٨ ـ كتاب الروضتين ٠
٩ ـ ينظر كتاب صلاح الدين ، د٠ احمد احمد بدوي ٥٣ ،٥٤ ، ٧٢ ٠
١٠ـ ينظر : صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه ٥٥ ـ ٦٢ ، د٠ احمد بدوي ٠ القاهرة ١٩٦٠ ٠
١١ـ صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه ٨٣ ، الدكتور احمد احمد بدوي ٠ القاهرة ١٩٦٠ ٠
١٢ـ المطرق : الطريق الممهد ٠
١٣ـ الأدب في العصر الايوبي ٤٢ ، الدكتور محمد زغلول سلام ، القاهرة ١٩٦٨ ٠
١٤ـ كتاب الروضتين ٢ : ٧٥ ابو شامة ٠
١٥ـ حطين : قرية بفلسطين تقع على هضبة ، يقال انها تضم قبر النبي شعيب ٠
١٦ـ كتاب الروضتين ٢ : ١١٣ ٠
١٧ـ انظر ما كتبه الدكتور عمر موسى باشا عن الشاعر في كتابه « الأدب في بلاد الشام » ، ص ٢٩٤ ، ٤٣٤ ٠
١٨ـ صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه ٩٢ ـ ٩٨ ، د٠ احمد احمد بدوي ٠
١٩ـ الحجون : جبل بمكة ٠
٢٠ـ النجوم الزاهرة ٦ : ٣٤ ، وايضا كتاب الروضتين ٢ : ١١٣ ٠
٢١ـ انظر : الادب في بلاد الشام ٢٨٨ ـ ٢٩٦ ، الدكتور عمر موسى باشا ٠
٢٢ـ ينظر كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ٢ : ٨٢ شهاب الدين ابو شامة ، مصر ١٢٨٨ هـ ٠
٢٣ـ ابن سناء الملك ١١٣ ـ ١١٤ ، محمد ابراهيم نصر ، سلسلة اعلام العرب ، مصر ١٩٧١ ٠
٢٤ـ ينظر كتاب الروضتين ٢ : ٨٧ ٠
٢٥ـ يستدل مما ذكره المؤرخون بعد مقارنة التقويمين الهجري والميلادي ان فتح القدس تم في خريف عام ١١٨٧م وفي حدود منتصف تشرين الاول ، وتكون بذلك عدد الايام التي فصلت بين معركة حطين (١٤ ربيع الآخر) وفتح القدس (٢٧ رجب) هو مئة يوم ٠
٢٦ـ الجزائر : مفردها جزور اي الشاة المذبوحة ٠
٢٧ـ صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه ١٠٦ ٠
٢٨ـ ابن سناء الملك ١١٦ ، محمد ابراهيم نصر ١٩٧١ ٠
٢٩ـ كتاب الروضتين ٢ : ١٠٤ ـ ١٠٥ ، ابو شامة ٠٠٠
٣٠ـ ينظر صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه ١٠٧ ٠
٣١ـ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ١١٤ ٠

من النجوم الغوارب

القاضي محمد أديب الاهدلي

د. موفق نعساني

ارتحل الى جوار ربه العالم العامل القاضي محمد اهدلي اليماني في ربيع الآخر الموافق ٢٧ أيار ١٩٧٢ عن عمر يناهز ٧٨ عاماً ، حافل بالأعمال الجليلة والجهاد المتواصل في سبيل الله .

□ اسمه وكنيته ولقبه ونسبه :

هو محمد أديب بن عزى بن حسن بن القادري بن عمر بن القاسم بن محمد بن الطاهر ابن محمد الثاني ، وهو سليل علي الأهدل الكبير الذي يتصل نسبه بالحسين بن علي رضي الله عنهما ، ومنه جاءت كنيته الأهدلي ويدعى أبا الأهدلي .

اما أمه فهي خديجة بنت الحاج لطوف بن نجيب البصمجي من حلب .

□ موطنه الأصلي ومسكنه الجديد :

موطنه الأصلي هو اليمن حيث هاجر أحد أجداده وهو محمد بن سليمان ، الذي يعود بنسبه الى جعفر الصادق ، من العراق الى المرواعة بوادي سهام من أعمال الحديدة في اليمن ، فولد له عمر ، ثم ولد لعمر علي الأهدل الذي تفرعت منه أغصان الأسرة الأهدلية .

وقد انتقل أحد فروع الأسرة وهو محمد السادس الى قرية الشغر القديم التابعة لقضاء جسر الشغور سنة ١٨٤٧ م حيث استقر به المطاف هناك ، وعندما توفي عام ١٨٧٨ م قدم ابن أخيه محمد عزى (والد القاضي المرحوم) في عام ١٨٨٠ م من اليمن الى الشغر بصفته الوريث الشرعي الوحيد لعمه ، لأنه مات بدون عقب ، وقد خلف له زاوية ومكتبة ، فأقام في الشغر ثم عين مفتياً لقضاء جسر الشغور حتى وفاته قبيل عام ١٩١٨ م حيث خلفه ابنه (المترجم له) في عمله .

□ موجز عن تاريخ حياته العلمية والعملية :

ولد المرحوم عام ١٣١٢ هـ الموافق لـ ١٨٩٤ م في قرية الشغر القديم ، وفيها ختم القرآن وجوّده وتعلم الكتابة ، ثم انتقل الى المدرسة الرشيدية في قصبة الجسر ، فتلقن جوهر الدين وقويم الأخلاق فيها ، ثم انصرف لطلب العلم الديني حسب رغبة والده فرحل الى أريحا وادلب واللاذقية وحلب وأخيراً الى مصر حيث دخل جامعة الأزهر وحظي بعناية المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وبعد قضاء /٤/ سنوات في الأزهر الشريف عاد ليعين في مدرسة ذكور الجسر الابتدائية .

وعند اعلان النفير العام انخرط في سلك الجندية متطوعاً لشعوره بوجوب الجهاد ، فانتسب الى رهط البرق (التلغراف) ثم تحول الى قلم الفرقة ٢٣ ، وعندما علم بوفاة والده ، عاد الى الجسر ليؤدي امتحان مشيخة التكية ثم ليعين بعدها مأموراً للزراعة ، ثم كاتباً ثانياً للأعشار ، وبقي في عمله هذا حتى نهاية الحرب العظمى ، حيث انتخب في عام ١٩١٨ م مفتياً لقضاء جسر الشغور مكان والده مضافاً الى ذلك وكالة القاضي ورياسة البداية .

وفي أيار ١٩٢٥ م أنفذته حكومة الانتداب الى حلب حيث أجبر على الاقامة منفياً فيها حوالي /١٩/ شهراً ثم عين في كانون الأول ١٩٢٦ م مفتياً لجرابلس ثم أضيفت الى الافتاء وظيفة التدريس لقضاء جرابلس ، وفي تموز ١٩٢٨ م عين قاضياً شرعياً لقضائي اعزاز وكرد ضاغ درجة رابعة ثم تحول قاضياً لقضائي جرابلس ومنبج عام ١٩٣١ م ونقل في عام ١٩٣٢ م قاضياً بقضائي الباب ومنبج ، وفي عام ١٩٣٣ م عين حاكماً لصلح قضاء حارم ، فقاضياً شرعياً لمدينة حلب حيث ترقى فيها للصنف الثاني ، وفي عام ١٩٣٨ تسلم مديرية أوقاف حلب ، وفي عام ١٩٣٩ م نقل قاضياً شرعياً لحمص درجة ثانية ثم رقي الى الدرجة الأولى وبقي في منصبه هناك حتى عام ١٩٤٨ م حيث نقل الى اللاذقية وهناك أحيل على التقاعد عام ١٩٤٩ م . وقد حصل أيضاً على دبلوم كلية الصحافة في القاهرة .

وقد عمل كاتباً للعدل فيما بين ١٩٥١ م ــ ١٩٥٩ م ، ثم عمل محامياً فيما بين ١٩٥٩ــ ١٩٦٦ م وتفرغ بعد ذلك للعناية بتربية وتوجيه أولاده الى أن فارق الحياة وهو في دمشق لنقل الى الشغر حيث دفن هناك ، وكانت حصيلة تربيته وتوجيهه أولاده بالاضافة الى مئات الشباب الذين تولاهم بالتوجيه والرعاية في كل من الجسر وحلب ودمشق وحمص واللاذقية ، ولم يكن نصيبهم من عنايته بأقل من نصيب أولاده .

□ أضواء على شخصيته :

من هذا العرض السريع لمراحل حياته نصل الى دلالتين هامتين :

١ ــ نشاطه الدائب ، وسعيه المتواصل ، وحبه للعمل ، وتفانيه فيه .

٢ ــ مناوأته للظالمين ومعاداته للانتهازيين ، ووقوفه في وجه حركات التتريك ، ومناضلته للفرنسيين ، مما جر عليه نقمة الحكومة الفرنسية وعملائها أيضاً فعملوا على نقله من

مكان لآخر ، وتعرض للاهانة والنفي والسجن وللحكم بالاعدام أيضا ، دون أن يفل ذلك من عزمه أو يوهن من قوته أو يغير مواقفه ۰

والخلاصة أن فضيلة الأستاذ محمد الأهدلي قاضي الشرع الحنيف أديب كبير من أدباء العرب وعالم من علماء الاسلام ، فهو عصري النزعة وحديث الطلعة ۰

يحب من الاسلام تعاليمه القويمة ومبادئه السليمة ويأبى الا الاعتراف بفضل الدين على المجتمع ۰ وانما هو الدين الذي يقوم على الأخلاق والفضيلة والصدق والعدل والمساواة وينظر الى الدين بمنظار التجدد والارتقاء والتطور وهو في مقدمة من يشعرون بشعور الأمة فيحزنون لحزنها ويفرحون لفرحها ، فاذاما نفث كربته بمقال فانما يكون قد ردد صدى ما تجيش بـه الصدور وتنطوي عليه النفوس ۰

وقد نوّه بذلك شاعرهم قائلا من قصيدة:

ولما ابتلاك الفرنسيس قلت ... هلموا بني الجسر فالموت طابا
فما خذلتك الجموع ولا أسلمتك ... الضلوع كي تتلقى الحرابا
غداة خطفت من المسجد الطهر ... خطفا وساقوك فردا مُهابا
لكي يقتلوك على ضفة النهر ... والنهر يغلي حصا وحبابا
كما خطفوك خطفنا الرئيس ... وقلنا : دم بدم ان أردتم حسابا

ويؤيد ما ذهبنا اليه مواقفه الحازمة من الأمور الجسيمة التي تعرض لها ، نذكر منها :

☐ **مناضلته الاستعمار :**

عندما عين في منصب الافتاء في جسر الشغور قام بتشكيل فرقة مسلحة تضم /٨/ آلاف رجل لمناهضة سياسة التتريك ، التي قادتها جماعة (الدونمة) : يهود سالونيك وعندما دخلت فرنسة الى سورية قاد الثوار السوريين في منطقة الجسر ، وتعاون مع ابراهيم هنانو والشيخ صالح العلي وكان على رأس ثوار جبل الزاوية في كفاح المستعمرين الفرنسيين ۰

كل ذلك مما سبب نقمة الحكومة الفرنسية وعملائها عليه ۰ فاعتقل عام ١٩٢٥ م باختطافه من جامع الجسر ونقله الى السجن ، ثم حكم عليه بالاعدام ، وكاد الحكم ينفذ لولا ثورة أهالي الجسر واعتقالهم للمستشار الفرنسي حيث افتدوا به زعيمهم الأهدلي ، وهذه الحادثة كافية للدلالة على مدى حب الشعب له وتعلق قلوبهم به ، وبالمقابل تدل على تفاني الشيخ المرحوم واخلاصه وتضحيته في سبيل مصلحة أمته ۰

وبالاضافة الى نفيه الى حلب ـ كما ذكرنا سابقاً ـ فانه قد حجز في دمشق أيام الانتداب الفرنسي مدة /٧/ أيام حيث استجوب كالمجرمين ۰

ولكن كل هذه المحاولات لم تفل من صلابة الرجل المؤمن ، ولم تعرف شخصيته انفصاما بين الفكر والسلوك ، فاستمر في كل النشاطات السلبية والايجابية ضد فرنسة المستعمرة ٠

☐ اصلاحاته الدينية والاجتماعية :

لقد كان رحمه الله حربا على التخلف والتسلط ، ولم تلن عريكته أبدا مما أدى الى اتهامه بالخروج والمروق من الدين ٠

وعندما عين مديرا لأوقاف حلب نهض بالمشاريع الآتية :

١ ـ قام باصلاح ديني واسع سار فيه حثيثا بقوة العقيدة وحرارة الايمان مما عرضه لمحاولة الاغتيال من جانب أعداء الدين والانسانية الذين يرون في الاصلاح دمارهم ٠

٢ ـ قام باصلاحات ادارية جمة كانتقاء المؤذن الصالح والامام الورع والخطيب البليغ ، بالاضافة الى سهره على أموال الأوقاف وكف الايدي الاثيمة عن سرقتها ، وأشهر اصلاحاته في هذا المجال الغاؤه راتب تكيته في الشغر ٠ قبل ان يلغي راتب اية تكية اخرى ، وانزال راتبه المعين في المرسوم الجمهوري من /٤٠/ ليرة دينارية الى /٣٠/ ليرة دينارية رغبة في التوفير ٠

٣ ـ حاول انشاء جامعة دينية تضاهي الجامع الازهر والجامعات الاسلامية الاخرى رغم ضعف امكانيات اوقاف حلب عهدئذ ٠

٤ ـ قام بنشاط صحفي واسع خاصة في حمص واللاذقية ، فدبجت يراعته المقالات المختلفة من سياسية واجتماعية وادبية ودينية مما كان له اكبر الاثر في نفوس الجماهير ، وما يزال الجمهور يردد هذه المقالات الجريئة التي تنص على حرب التخلف والاستعمار والصهيونية وتنادي بالاصلاح الديني ٠

هذا بالاضافة الى نشاطه في عمله حيث تقلب بين التدريس والافتاء والقضاء فترة طويلة ، فقدم للاسلام والمسلمين خدمات جليلة ، ناهيك عن الشباب الذين أحاطهم برعايته في مختلف المناطق ٠

☐ آراء علماء عصره وفضلائه فيه :

لقد كان رحمه الله بحق شخصية اسلامية فذة ، تذكرنا بالسلف الصالح علما وعملا ، تقوى وورعا ، حزما وعزما ، وقد شهد له بهذه الخصال وبغيرها من الخلال النبيلة العديد من العلماء ورجالات عصره ، وخاصة في معرض حديثهم عن أحد مؤلفاته (القول الأعدل في تراجم بني الأعدل) وهاكم بعض هذه المقالات في تقريظ المؤلف رحمه الله :

من حمص تحدث المحامي نديم الموصلي قائلا :

عرفتك قاضيا فاضلا ، وعالما عاملا ، ومصلحا ٠

لا تأخذه في الحق لومة لائم · اقول هذالا زلفى اليك ولا حاجة لديك · ولكن الاعتراف بالفضل وأهله هو الذي أملى على قلمي ما يعتلج في صدري من عاصفة التقدير ، وأتمنى أن يكثر في العرب عامة وطبقة العلماء خاصة مثلك في الخلق ·

وتحدث الأستاذ روحي الفيصل منوهاً :

استطاع أن يقص بقلم الأديب البارع وثقافة العالم الضليع آراءً سمحة ، فيها من الروح المصرية في فهم الدين استقاها فضيلة الأهدلي من روح الأزهر الشريف الذي درس معه ومصاحبة الرافعي الذي اتصل به ورعاه ·

كما أشاد الأستاذ أديب الساعاتي بصراحة :

أرجو أن يطالعنا بكل جديد فيه من صراحة الأهدلي وجرأته ما يصلح المعوجّ من أخلاقنا ويقوّم الفاسد من عاداتنا وعقائدنا ·

وتكلم الأستاذ نديم الوفائي عن مزاياه :

تلك الزهرة الفواحة ، فضيلة السيد محمد اديب الأهدل .. المفتي ، رئيس المحكمة ، حاكم الصلح ، القاضي ، مدير الأوقاف العربي ، الوطني ، المنفي ، المبعد ، السجين ، العامل ، الأمين ، أضاف كل هذه الألقاب الى اسمه وحملها بكل أمانة وكفاية واخلاص ·

الفتاوى وسجلات المحاكم وبطون دفاتر الأوقاف ومواطن الشرف ومراقي النبل كلها تعرف أمانته وكفايته واخلاصه ·

ومن أبناء جسر الشغور وافى الدكتور سليمان جرجس شكور بخلجة الضمير هذه :

خلجة ضمير ·· على من ربى فينا نبل الخلق ، واستقامة السيرة ، وترك مدرسة نحن من روادها الأوائل هذه المدرسة التي كانت ولا تزال وستبقى أبداً تشير الى مؤسسها (أبي الأهدلي) الذي قال الحق ودافع عنه يوم كان قول الحق ظهيره الحديد والنار · هذه المدرسة التي من أول أخلاقيتها قول الحق في حضرة حاكم ظالم ، من أخلاقيتها الوفاء للصديق ، من أخلاقيتها التفكير الحر ·

ان كنت سأسطر هنا كل ما يدور في خلدي فيلزمني الألوف من الصفحات ، ولكن يكفي أن أقول ان رجلا رصيده الضخم هو في ذمة الأجيال رجل يقرع التاريخ بكلتا يديه ·

سيظل في ذكراي صورة متجددة من أب رحيم وصديق وفيّ ، وموجه مخلص شريف ما حييت أنا وأجيالي ·

ومن حمص ايضا يقول الأستاذ وصفي الجندي زميل المرحوم في الجندية :

الجندية تلك هي التي عرفتني المؤلف حفظه الله ـ وعرفتني ما تضم تلك الشخصية النبيلة في أطواء الصدر من أخلاقه الفاضلة ،والثقة بالنفس ، والصبر على الأذى واحتمال المكاره ···

ويتابع وصفي الجندي حديثه قائلا :

قال لي يوماً أركان حرب فرقتنا : لقد أسديت الينا يداً لا تنسى باختيارك السيد محمد الأهدلي للقلم ٠٠٠ لم يمض على وجوده سوى بضعة أيام حتى أصبح مضرب المثل بين عموم أفراد الفرقة على اختلاف مراكزهم فيها : عفة وأمانة واستقامة وأخلاقاً وديناً ٠٠٠ انساني برحابة صدره وكريم سجاياه وعظيم أخلاقه ٠

كل هذه الخصائص من عنوان الشباب ، وحزم الرجال ، ورزانة الشيوخ ، وتجتمع معاً لتكون الشخصية الفريدة ، شخصية المرحوم القاضي الأهدلي عليه رضوان الله ، وهذا ما دفع الشاعر رفيق الفاخوري ليقول :

طوق الأهدلي حمص بيمناه	**واحيا بفضله الأمالا**
اي دار أرادها ما تهادت ؟	**آي صقع قد زاره ما اختالا ؟**
منطق ساحر ، فان حزب الأمر	**تخلى عن طبعه واستحالا**
وقضاء يدني الضعيف ويضني	**من تجافى عن الصراط ومالا**
واجتهاد يستلهم الحق صرفاً	**ليس يلقي الى الأباطيل بالا**

حقاً كان الأهدلي شخصية فريدة في عصره ، من سمع به أحبه ، ومن رآه ازداد حباً له ٠ في سلوكه يتجلى ايمانه ، وفي زهده يتجلى ورعه وتقواه ٠

وقبل نهاية المطاف يجدر بنا أن نلم بشيء من مؤلفاته التي بقيت ذكرى جميلة تحيي في نفوسنا تلك الروح الطاهرة التي كانت مشعلاً من مشاعل الاسلام أدت واجبها الى آخر مدد من وقودها ٠

□ مؤلفاته :

١ ـ القول الأعدل في تراجم بني الأهدل : في ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط ٠
٢ ـ رسائل صغيرة ٠
٣ ـ مقالات عديدة ومتنوعة ٠

وأخيراً لا بد لنا من الوقوف موقف الاعجاب والاكبار من هذه الشخصية الاسلامية الفذة التي جمعت الى جانب رفعة النسب وشرفه ، دماثة الخلق ، وقوة الايمان ، وحب الجهاد في سبيل الله ٠ والهدف من عرض بعض ملامح هذه الشخصية هو أن تكون لنا قدوة صالحة ، ونبراساً في طريق الخير وذكرى للمؤمنين ٠

رحمك الله يا أبا الأهدلي ٠٠٠ لقد كنت بشهادة معاصريك قاضياً نزيهاً ، وعالماً عاملاً ومسلماً مجاهداً حتى الرمق الأخير ، حتى انك لتتحرق ألماً على وضع المسلمين المزري ، وعبارتك الأخيرة التي لفظتها مع أنفاسك الأخيرة تدل بوضوح على رغبتك الجامحة في الاصلاح رغم قوة الجاهلية وعنادها ، فان كنت قد رحلت فقد بقيت عبارتك في مسمع الدهر تدل عليك وتذكرنا بك وتدفعنا للاقتداء بك ، هذه العبارة هي قولك (انني شهيد الألم) ٠
فرحمك الله رحمة واسعة وأسكنك فسيح جناته وجمعنا بك في ظلال رضوانه ٠

من غاب عنه المطرب للثعالبي
استدراكات وملاحظات

عادل الفريجات

الثعالبي ابو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل علم كبير من اعلام الادب العباسي ، عاش ما بين سنتي ٣٥٠ و ٤٢٩ هـ . وقد نعته (ابن خلكان) بانه : « راعي تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم، ورأس المؤلفين في زمانه وإمام المصنفين بحكم اقرانه » ـ (وفيات الأعيان ٣:١٧٨) ، وقد ترك لنا مجموعة من المؤلفات تربو على مئة كتاب ، لعل أهمها: يتيمة الدهر ، التي ترجم فيها لشعراء عصره وادبائه ، وكتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، وفقه اللغة وسر العربية ، والاعجاز والايجاز ، واحسن ما سمعت ، وخاص الخاص ، والتمثيل والمحاضرة ... الخ .

ومن كتبه التي طبعت حديثاً كتاب « لطائف اللطف »، وحققه الدكتور عمر الأسعد، وطبعه في بيروت سنة ١٩٨٠ . وكتاب « التوفيق للتلفيق » وحققه السيد ابراهيم صالح، وطبعه مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٣ ، وكتاب « من غاب عنه المطرب » وطبع في دار طلاس بدمشق سنة ١٩٨٧ ، بتحقيق الأستاذ عبدالمعين الملوحي .

والأستاذ الملوحي أقدم على طبع هذا الكتاب مدفوعاً برغبة في تصحيح بعض الأغلاط التي وجدها في طبعة سابقة للكتاب ،قام بها محمد بن سليم اللبابيدي سنة ١٣٠٩ هـ ببيروت .

والمعروف عن السيد الملوحي أنه سبق له اخراج غير كتاب من كتب التراث ، منها : كتاب المنصفات ، واللاميتان ، وديوان عروة بن الورد ، والحماسة الشجرية ، والأزهية في علم الحروف ، وأشعار اللصوص في قسمين ... الخ .

ووقع بين يدي كتاب الثعالبي ـ محور حديثنا هنا ـ في أثناء بحثي عن مؤلفات الثعالبي المطبوعة والمخطوطة ، لأنني حصلت على نسخة منسوبة اليه جلبتها من (باريس) ،

وأقوم الآن بنسخها تمهيداً لتحقيق نسبتها اليه ، ومن ثم ، اخراجها للناس ــ ان شاء الله .

وقرأت مقدمة الأستاذ الملوحي لـ « من غاب عنه المطرب » فأعجبت بتواضعه العلمي الكبير وأكبرته ، والحق ان التواضع العلمي سمة من سمات هذا الباحث التراثي تجده في كثير من مقدمات كتبه التي حققها وطبعها . وقد استوقفني في مقدمة كتابه الأخير هذا أمران اثنان :

الاول : اشارة المحقق الى أنه لم يستطع ان يحصل على مخطوطة من مخطوطات « من غاب عنه المطرب » رغم كثرتها ، ورغم اشارته الى أماكن وجودها في العالم ؛ اذ عدَّ منها تسع مخطوطات موجودة في برلين ، وباريس ، والمتحف البريطاني ، والاسكوريال ، وبريل ، والقاهرة ، ولا له لي ، (استامبول) بخط المؤلف ، والموصل ، وطهران . ولكن فاته ذكر مخطوطة هنا بدمشق بين مخطوطات الأدب في الظاهرية ــ كما سيأتي الحديث .

الثاني : قول المحقق في البند الثامن من خطته في تحقيق الكتاب : « ٨ ــ تركت بعض ما لم أستطع من تخريجات المقطوعات ووضعت لها في الهامش نقاطاً (...) لعلني أهتدي أو اهدى اليها في طبعة لاحقة » ــ (المقدمة ص ١٤) .

ولذلك فاني أشير الآن الى أن ثمة مخطوطة لكتاب « من غاب عنه المطرب » أخبر عنها مؤلفا فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم الادب) رياض عبدالحميد مراد، وياسين سواس ، وقالا : انها تقع في ٣٦ ورقة ، ورقمها ٧٨٦١ ، وقد نسخها في قرية (طنتدا) بمقام السيد أحمد البدوي ، حسين القراني سنة ١١٦٣ هـ (الفهرس المذكور ٢:٢٩٤ــ ٢٩٥) . وقد رجعت الى هذه المخطوطة في مكتبة الأسد الوطنية ، وقابلت بينها وبين المطبوع ، فوجدت أن المطبوع يشبهها تماماً ، حتى لو أن قائلاً قال : ان محمد بن سليم اللبابيدي الذي طبع الكتاب أولاً سنة ١٣٠٩ هـ قد أخرجه عنها لم يبعد ..! والخلافات بين المطبوع وهذه المخطوطة طفيفة جداً ، تكاد لا تعدو أن تكون تبديلاً لكلمة واحدة في صفحة من بين عدة صفحات ، وهو تبديل لا يخل بالمعنى في أكثر الاحيان . ولكنه قد يكون تحريفاً من الناسخ ، أو من المخطوطة التي نقلت عنها مخطوطة الظاهرية . وعلى سبيل المثال ، فقد جاء هذا البيت في المخطوطة على هذه الصورة (ص ٦٣) :

وهبه ارعوى بعد الملام الم يكن   توّدده طيباً فصار تكلّفـا

وهو في المطبوع (ص ١٥٧) :

وهبه ارعوى بعدَ الملام الم يكن   توّدده طبعاً فصار تكلّفا

ومن الواضح أن رواية المطبوع أصوب وأصح من رواية المخطوط ، لأن « الطبع » ، لا « الطيب » هو الذي يناظر « التكلف » ويقابله .

وفي المخطوطة (ص ٦٣) جاءت الكلمة الاولى من بيت ابن الرومي الأول :

١ ـ قصدك الشيب فاقض ما أنت قاض   عاجلاً من هوى العيون المراض

وهي في المطبوع (ص ١٦١) : « جاءك الشيب ... » وهي الرواية الأصح .

على أن العودة للمخطوطة صوبت بعض الروايات في المطبوع من جهة أخرى وأوقفتنا على بعض ما أصاب المطبوع من تصحيف أوتحريف ، ففي المطبوع (ص ١٥٢) جاء بيت أبي تمام الثاني من أبياته الثلاثة هناك على هذا النحو :

عصابة جاورت آدابهم أذني   فهم وان فرقوا في الأرض جيراني

والرواية في المخطوط (ص ٦٠) :

عصابة جاوزت آدابهم أدبي   فهم وان فرّقوا في الأرض جيراني

بالزاي في « جاوزت » والدال والباء في « أدبي » بدلاً من الراء في الأولى ، والذال والنون في الثانية . ورواية المخطوط لصدر البيت هي الصواب دون ريب ، اذ لا معنى لأن « تجاور الآداب الأذن » كما في المطبوع !

....

بيد أن اهتمامنا بهذا الكتاب لم يقف عند العودة الى مخطوطة له في مكتبة الأسد الوطنية ، ومقابلته بها مقابلة غير كاملة ، بل تجاوز ذلك الى العودة الى بعض كتب الثعالبي ، وبعض دواوين الشعراء التي لم يرجع اليها المحقق ، أو رجع الى احدى طبعاتها القديمة ، فتوفّر لدينا مجموعة من الملاحظات والاضافات ، منها ما يتصل بتصويب النص ، ومنها ما يتصل بتخريجاته واغناء حواشيه بمعلومات اضافية . وها نحن نسير بدءاً من الآن مع كتاب « من غاب عنه المطرب » وفق تسلسل أرقام صفحاته :

١ ـ (ص ٢٧/حا ٢) يضاف الى الحاشية هنا : بيتا كشاجم في وصف غلام يكتب ويمحو :

ورأيته في الطرس يكتب مرة   غلطاً يواصل محوه برضابه

فوددت أني في يديه صحيفة   وودته لا يهتدي لصوابه

في ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٣١٣ هـ ـ ص ١٣ بالرواية ذاتها .

٢ ـ (ص ٣٠/حا ١) يضاف هنا حول بيتي أبي روح ظفر بن عبدالله الموجودين في اليتيمة (٣٤٨:٤) أن الرواية تختلف ، فالبيت الثاني في اليتيمة :

وإذا امتطى قلماً أنامله   سحر العيون به وما سَحرا

وهو في « من غاب عنه المطرب » :

واذا امتطى قلم أنامله   سحر العقول به وما سَحَرا

ولست أرى وجهاً اضبط « سحرا » بفتح السين والحاء في مطبوع « من غاب » . والصواب ضم السين وكسر الحاء .

٣ ـ (ص ٣٠/حا ٢) أبيات الثعالبي الثلاثة ليست في اليتيمة (٣٥٦:٣) بل في (٣٥٦:٤) . ورواية الثالث منها :

مثل كلام الأمير سيدنا نثرا ونظما يسير كالمثل

بدلاً من : « ... نظماً ونثراً يسير كالمثل » في « من غاب » .

٤ ـ (ص ٣٠/حا ٣) تملأ هذه الحاشية الفارغة بما يلي : بيتا الثعالبي في اليتيمة (٣٥٦:٤) والرواية للأول :

انـي أرى الفاظك الغرا عطلت الياقوت والدرّا

بدلاً من : « ... عطّلت الكافور والدرّا » . ورواية البيت الثاني :

لك الكلام الحرّيا من غدا معروفه يستعبد الحرّا

بدلاً من : « ... أفعاله تستعبد الحرّا » .

٥ ـ (ص ٤١/حا ٥) يضاف هنا : ان البيتين الرائيين للثعالبي في خاص الخاص ٢٣٣ ، والرواية :

١ ـ أظنّ الربيع العام قد جاء تاجرا ففي الشمس بزّازا وفي الريح عطّارا

بدلاً من : « أظن ربيع العام ... » في كتاب « من غاب » .

والبيت الثاني :

٢ ـ وما العيش الا ان تواجه وجهه وتقضي من الموشى والمسك اوطارا

بدلاً من : « ... وتقضي بين الوشي والمسك أوطاراً » في « من غاب » .

ولعلّ صواب الروايتين المحرفتين : « وتقضي من الوشي والمسك أوطاراً » .

٦ ـ (ص ٤١/حا ٦) تملأ الحاشية الفارغة هنا بما يلي : أبيات مؤلّف الكتاب في أحسن ما سمعت ٦٦ ، وخاص الخاص ٢٣٤ . والرواية في الأخير :

١ ـ ولما نزلنا البنشقان التي غدت وراحت بجنّات الربيع تشبّه

بدلاً من : « ولما نزلنا البشتقان التي ... » . وفي رواية خاص الخاص تحريف .

٢ ـ وقد برزت أشجارها في ملابس ربيعية تحوي مدى الحُسن كلّه

بدلاً من : « وقد برزت شجراتها ... مدى الأنس كله » في « من غاب » .

٣ ـ وعارضنا ماء يروق مصندل   ووأجهنا ورد يشوق موجه

بدلاً من : « ... ووجهنا ورد » في « من غاب »، ورواية خاص الخاص هنا هي الأصوب.

٤ ـ وقهقه رعد في السماء مفرد   وفي الأرض ابريق المدام يقهقه

بدلاً من : « وقهقه رعد في السماء مجلجل... » في « من غاب ».

٥ ـ وغنّى مُغني العنديب كأنما   يجاوبه في حلقه مزهر له

بدلاً من : « .. يجاوبه في حلقه مزهر له » . ولعل رواية خاص الخاص هي الصواب.

٧ ـ (ص ٤٥/حا ٦) يضاف هنا : ان بيتي أبي الفرج الوأواء في لطائف اللطف ٤٤ والرواية :

١ ـ سقى الله ليلا اذ زاد وصلها   فأفنيته حتى الصباحِ عناقا

بدلاً من : « اذا زار طيفه » .

٢ ـ بطيب نسيم منه يستوجب الكرى   فلو رقد المخمور فيه افاقا

بدلاً من : « يستجلب الكرى .. » . والبيتان أيضاً في خاص الخاص ٥١ مع ثالث لهما.

٨ ـ (ص ٥٠/حا ٢) بيتا أبي العلاء السروي في اليتيمة (٤ : ٥٠ـ٥١) صحيح . ولكن الأول منهما ملفق من بيتين هما :

أما ترى قُضُب الأشجار قد لبست   انوارها تتثنى بين جلاس

منظومة كسموط الدر لابسة   حسنا يبيح دم العنقود للحاسي

والرواية في « من غاب » :

اما ترى قضب الريحان لابسة   حسنا يبيح دم العنقود للحاسي

والبيتان أيضاً في التوفيق للتلفيق ١٩٩ـ٢٠٠ مع ثالث لهما . وروايتهما كما في اليتيمة . وفي خاص الخاص ١٦٠ ، وثمار القلوب ٤٤٧ ، وروايتهما كما في « من غاب ».

٩ ـ (ص ٥٤ـ٥٥/حا ٢) أبيات كشاجم السبعة الضادية التي اشير في الحاشية الى أنها في ثمار القلوب ٤٩ ، لم أجدها في الثمار (طبعة محمد أبو الفضل ابراهيم) . ولكني وجدتها في ديوان كشاجم (طبعة بيروت ١٣١٣هـ ص ١٠٨ـ١٠٩) والرواية :

١ ـ غيث أتانا مؤذن بخفضِ

بدلاً من : « غيم أتانا ... » . في « من غاب » .

٢ ـ كالجيش يتلو بعضه ببعضِ

بدلاً من « بعضه ببعض » . في « من غاب » .

٣ ـ يضحك من برق خفي الومض

بدلا من : « خفي النبض » . ورواية الديوان هي الأعلى والأجود .

٥ ـ دنا فخلنــاه فويق الأرض

بدلا من : « دوين الأرض » .

٦ ـ إلفا الى الف بسير يقضي

بدلا من « بسر يفضي » . ورواية « من غاب » هــي الصــواب . وفي الديوان تصحيف وتحريف .

٧ ـ ثم همى كاللؤلؤ المرفض

بدلا من : « ثم مضى » . ورواية الديوان هي الصواب . وفي رواية « مــن غاب » تحريف على الأرجح .

١٠ ـ (ص ٥٦/حا ٣) قال المحقق : انه لم يجد بيتي ابن المعتز الحائيين في طبعة من طبعات ديوانه لم يشر اليها . وقد وجدتهما في شعر ابن المعتز (صنعة أبي بكر الصولي ـ تحقيق يونس أحمد السامرائي ـ بغداد ١٩٧٨ ص ٧٩) .

١١ ـ (ص ٦١/حا ١) بيتا ابن المعتز السينيان لم أجدهما في ثمــار القلوب (طبعة محمد أبو الفضل ابراهيم) . وهما أيضــاً ليسا في ديوانه (ط بغداد) .

١٢ ـ (ص ٦٥/حا ١) بيتــا الثعــالبي الميميان في شعره الذي صنعــه د. عبدالفتاح الحلو في مجلة المورد العراقية (مجلد ٦ عدد ١ ص ١٨٦) . وقد نقلهما الحلو عــن كتاب الثعالبي أحسن ما سمعت ٧٤ ، ونهاية الأرب ١:١٧٢ . والرواية في البيت الثاني :

٢ ـ قلتُ اذ صاب حَرُّه حُرَّ وجهي ربّنــا اصرف عنــا عــذاب جهنّمْ

بدلا من : « قلتُ اذ صاب حَرُّه حَرَّ وجهي » في « من غاب » .

وقد ضبط المحقق الحاء في « حَرَّ وجهي » بالفتح، والصواب ضمها : لان حُرَّ الشيء (بضم الحاء) وسطه وخيــاره ـ انظر اللسان(حرر) .

١٣ ـ (ص ٦٨/حا ١) الأبيات الأربعة اللامية لكشاجم في ديوانه (طبعة بيروت ١٣١٣ هـ) ص ١٨٥ ، ورواية الديوان :

٢ ـ في جنــةٍ ذللتْ لقاطفها قطوفهــا الدانيــات تــذليــلا

بدلا من : « ذللت لقاطفها » . والرواية الأخيرة هي الصواب لمشاكلتها لما في عجز البيت.

٣ ـ كأنّ اترجّهــا نميــل بــه أغصــانـــه حــامــلا ومحمــولا

بدلا من : « كأنّ اترنجهــا ... أغصانهــا » .

٤ ـ سلاسل من زبرجد حملت   من ذهب أصفر قناديلا

بدلاً من : « .. من ذهب أحمر قناديلا » .

١٤ ـ (ص ٦٨/حا ٢) في هذه الصفحة قال الثعالبي : « وللامام في وصف الأترج » ثم ساق هذين البيتين :

جسم لجين قميصه ذهب   مركّب في بديع تركيبِ
فيه لمن شمه وأبصره   لون محب وريح محبوب

فعلق المحقق على اسم « الامام » بقوله : « اظنّه ابن الرومي ، كما لقبه الثعالبي مرات ، ولم أجد البيتين في ديوانه » . قلت : البيتان في التوفيق للتلفيق ٣٤ . وقد خرّجهما المحقق السيد ابراهيم صالح ، فقال : « هما في فوات الوفيات ٣ : ٤٠٤ بنسبتهما الى محمد بن عبدالله بن طاهر بن الحسين ، وفي نثر النظم للثعالبي ص ١٣٨ بلا نسبة » .

١٥ ـ (ص ٦٩/حا ٥) نملأ الحاشية الفارغة هنا كما يلي : الأبيات الثلاثة للثعالبي في شعره الذي صنعه الدكتور الحلو ، في مجلة المورد (مج ٦ ع ١ رقم ٣٧) . ولم يذكر صانع الشعر مصدراً آخر للأبيات .

١٦ ـ (ص ٧١/حا ٣) أبيات الثعالبي الأربعة الهائية في شعره المنشور في المورد (مج ٦ ع ١ رقم ٣٠٢) ، ولم يذكر جامع الشعر مصدراً آخر لها .

١٧ ـ (ص ٧٣/حا ١) ابيات ابن المعتز الدالية التي لم يجدها المحقق الأستاذ الملوحي في احدى طبعات ديوان ابن المعتز ، هي في شعره (صنعة الصولي ـ ط بغداد) ص ٥٣٥ـ ٣٥٦ . والرواية هناك :

١ ـ جاء الربيع بشمال وصبا   يلقاهما المقرور بالصّدّ

بدلاً من : « جاد الزمان بشمالٍ ... بالضدّ » .

٢ ـ انّ الكبير ـ فداه سحراً ـ   درياق لسع عقارب ابردِ

بدلاً من :

ان الكبير تقلّه سحراً   ترياق لسع عقارب البرد

ورواية « من غاب » غامضة .

١٨ ـ (ص ٧٤/حا ٣) الأبيات الستة الكافية لكشاجم في ديوانه (طبعة بيروت ١٣١٣) ص ١٤٠ مع اثنين آخرين ، وخلاف في الترتيب . والرواية :

٢ ـ راحت به الارض الفضاء كانها   من كل ناحية بثغر تضحك

بدلاً من :

ضحكت به الأرض الفضاء كانما   في كل ناحية بثغرك تضحك

٤ ـ شابت ذؤابتها فبيّنَ ضحكها   طربا وعهداً بالمشيب ينسك

بدلاً من : « شابت مفارقها فبين شيبها ··· طرباً » ·

٥ ـ فاليوم يؤذن بالملاحة انه   سيطلُ فيه دم الدنان ويسفك

بدلاً من : « فاليوم يوم نزاهة ولذاذة ··· سيطلُ » ·

٦ ـ والجوُ من أرج الهواء كانه   ثوب يُعنبر تارة ويمسكُ

بدلاً من :

والغيم من ارج الهواء كانه   ثوب يُعصفَر مرة ويمسك

وقد ذكر المحقق أن أبيات كشاجم في (ثمار القلوب) ٤٩ ، ولم أجدها في هذه الصفحة ، ولا في أية صفحة أخرى من الكتاب المذكور فيطبعته الجديدة (طبعة أبي الفضل ابراهيم) ·

١٩ ـ (ص ٨٣/حا ٦) بيتا الثعالبي فيخاص الخاص ٣٣٧ · والروايه فيه :

١ ـ يا ليلةً كالمسك منظرها   وكذاك في التشبيه مخبرها

بدلاً من :

يا ليلةً كالمسك مخبرها   كذاك في التشبيه منظرها

٢٠ ـ (ص ٨٥/حا ٢) تملأ الحاشية الفارغة هنا على النحو التالي : أبيات الثعالبي الأربعة في خاص الخاص ٢٣٦ · والرواية فيه :

٢ ـ مدتْ سرادق وشي   على الورى اي مدِّ

بدلاً من : « مدتْ سرادق شجو ·· » ·

٣ ـ نجومها الزهر تحكي   من حسنها نثر عقدِ

بدلاً من : « نجومها ··· حسناً لآلىء عقد » ·

٤ ـ « والأنجم الحمر فيها » بدلاً من :« والأنجم الزهر فيها » ·

٢١ ـ (ص ٨٨/حا ١) يضاف الى هذهالحاشية أن بيتي ابن المعتز الرائيين في لطائف اللطف للثعالبي ١٤٠ · والرواية فيه :

١ ـ أهلاً بفطرٍ قد أتاك هلاله   الآن فاغدُ الى الشراب وبكّرِ

بدلاً من : « أهلاً بفطر قد أنار هلاله ··· فالآن » ·

٢٢ ـ (ص ٨٨/حا ٢) تملأ هذه الحاشية الفارغة بما يلي: الأبيات الثلاثة الرائية، وأولها :

اهلاً وسهلاً بالهلا   لِ بدا العين المبصرِ

في ديوان كشاجم (طبعة بيروت) ص ٩٧ ·

٢٣ ـ (ص ٩٢/حا ٢) أبيات أبي بكر الخالدي الأربعة ، وأولهـا :

فاعـذرنا في حبسـنا الأكـوابـا سقط الندى وصفا الهـواء وطابا

معزوة لأبي عثمان الخالدي في التوفيق للتلفيق ص ٩٠ .

٢٤ ـ (ص ٩٣) بيتا مؤلف الكتاب (الثعالبي) اللاميان في شعره المنشور في مجلة المـورد (مج ٦ ع ١ رقم ١٥٣) . ولم يذكر صانع شعر الثعالبي مصدراً آخر لهما .

٢٥ ـ (ص ٩٤/حا ٢) أبيات ابن المعتز الأربعة التي لم يجدها المحقق في احدى طبعات ديوانه . هي في شعر ابن المعتز (صنعة الصولي) ص٦٢، مع اثنين آخرين، وخلاف في الترتيب. ورواية الثالث في شعر ابن المعتز :

٣ ـ سـقيا ليـوم صبـوحنـا إذ غُيِّبَـتْ عنـه الشـوامت

بـدلاً مـن :

يـوم يطيـب بـه الصـبو حُ وقـد نات عنـه الشوامت

٢٦ ـ (ص ٩٧/حا ١) أبيات المهلبي الاربعة الشينية منها اثنان فقط، مع ثالث آخر، في يتيمة الدهر (٢:٢٣٧) وليس (٢:٢٢٧). والرواية في اليتيمة :

١ ـ يـوم كـانَ سـماءه شـبه الحصـان الأبرشِ

بدلاً من « .. مثل الحصان » .

٢ ـ « وكأن زهرة روضه .. » بدلاً من: « وكأن زهرة أرضه .. » .

ومن الأبيات الاربعة الشينية اثنان في التوفيق للتلفيق ، مع ثالث لهما ص ١٤٨ . والرواية فيـه :

١ ـ « يوم كان ... شبه الحصان » بدلاً من : « مثل الحصان » .

٢ ـ « وكأن زهرة روضه » بدلاً من « وكأن زهرة أرضه » .

٢٧ ـ (ص ٩٩/حا ١) ابيات الثعالبي الستّة التائية ، وأولهـا :

الأرض طـاووسـية والجـو جؤجؤ فـاخت

في شعره في مجلة المورد المذكورة آنفـاً رقم (٣٦) . ولم يذكر صانع شعر الثعالبي مصدراً آخر لهـا . ولكن المحقق ضبط هـذاالبيت على هـذا النحو :

والـورد درٌ نابـتٌ احسـنُ بـدرِ نابتِ

(فاحسن) في العجز مفتوحة السين ، مضمومة النون . و (بـدر) في العجز مفتوحة الباء ، ومسكّنة الدال ومنوّنة الراء . وصواب العجزأن يكـون :

« ....أحسِنْ بدرٌ نابت » . أي بكسر السين وتسكين النون في (أحسن) . وكسر الباء ، وضم الدال ، وتشديد الراء وتنوينها في (بدر) على صيغة التعجب .

وكذلك وقع خطأ في ضبط بعض كلمات البيت الاخير الذي جاء على هذه الصورة :

ضحكَ المشيبَ بعارضي ضحكَ العدوِّ الشامتِ

بفتح الباء في (المشيب) . وعدم تسكين الحاء في (ضحك) الثانية . والصواب رفع الباء في (المشيب) . وتسكين الحاء في (ضحك) الثانية لتصبح مصدراً لا فعلاً . وربما كانت هذه الاخطاء اخطاء مطبعية .

٢٨ ـ (ص ١٠٤/حا ١) قال المحقق هنا انه لم يعثر على أبيات الثعالبي الثلاثة ، واولها :

عندي انسان ولكنه اكبر لي من الف انسانِ

وهي في خاص الخاص ٤٣ . والرواية فيه :

١ ـ « عندي .. أكثر لي » وهذه الرواية أجود من رواية « من غاب » المذكورة آنفا .

٢ ـ « القاؤه أشهى من البارد العذب الى غصّان عطشان . بدلاً من « ... الى عطشان ظمآن » .

٣ ـ « فاقترنا عندي .. » بدلاً من « فاقتربا عندي » .

٢٩ ـ (ص ١٠٧/حا ٣) الابيات الخمسة للثعالبي التي اولها :

١ ـ سقيا لدهر سروري والعيش بين السراري

في شعره في مجلة المورد المشار اليها سابقاً ـ رقم (٩٣) . وخرّجها جامع الشعر الدكتور الحلو من كتاب أبي نصر ٦٦ ، ودمية القصر (الطباخ ١٨٥) ، ومعاهد التنصيص ٢:٩٢ .

٣٠ ـ (ص ١٠٧/حا ٥) تملأ الحاشية الفارغة المتصلة ببيتي الثعالبي التائيين هكذا : البيتان في ثمار القلوب ٤٩١ (طبعة أبي الفضل ابراهيم) . والرواية فيه :

١ ـ سقيا لأيام الصبا اذ انا في طلب اللذة عفريت

بدلاً من : « .. اللذات عفريت » .

٢ ـ أصيد كالبازي ولكنني أسفد كالعصفور ماشيت

بدلاً من : « .. أحكي العصافير اذا شيت » . والبيتان في شعر الثعالبي في مجلة المورد ـ رقم (٣٣) .

٣١ ـ (ص ١١١/حا ٣) بيت بشّار هنا هو أيضا في لطائف اللطف ١٣١ . وفي رسمه العروضي وهم ، فقد كُتب هكذا :

انا والله أشتهي سحر عينيك واخشى مصارع العشّاقِ

والبيت من البحر الخفيف ، لذا ينبغي أن يُرسم كما هو في لطائف اللطف ، وزنا ورواية :

انا والله أشتهي سحر عيني ـه واخشى مصارع العشّاق

٣٢ ـ (ص ١١١/حا ٤) يضاف الى هذه الحاشية وجود بيتي المؤمّل بن أميل المحاربي في لطائف اللطف، ١٣٧ . والرواية فيه :

١ ـ اذا مرضتم اتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

بدلاً من : « اذا مرضنا اتيناكم .. » . والبيت ذاته مع آخر معه في خاص الخاص ١١٥ ، وفي عيون الاخبار ٣:٤٥ بلا نسبة .

٣٣ ـ (ص ١١٣/حا ٣) الأبيات الثلاثة التي تتبع للحاشية الخالية هنا، وهي للثعالبي، توجد في خاص الخاص ٢٢٩ مع رابع لهما ، وفي اليتيمة (٣:٣٩٥) والرواية في المصدرين:

١ ـ قلبي وجداً مشتعلٌ على الهموم مشتملٌ

بدلاً من :

١ ـ قلبي وجداً مشتملٌ على الهموم مشتعل

ورواية المصدرين السابقين أجود وأصوب ، من رواية « من غاب » .

والبيت الثالث في خاص الخاص :

٣ ـ اذا رنت عيني بها فبالدموع تغتسل

بدلا من : « اذا زنت .. » . وفي رواية خاص الخاص تصحيف . والصواب « زنت » لا « رنت » كما في « من غاب » و « اليتيمة » .

٣٤ ـ (ص ١١٦/ حا ٦) تملأ الحاشية الفارغة هنا هكذا : بيتا كشاجم في ديوانه (طبعة بيروت) ص ٢٥ ـ ٢٦ من قصيدة تبلغ ٢٧ بيتاً . والرواية فيه :

٢ ـ لا تتركوا العينَ المريضةَ في جارحةً صحيحه

بدلا من : « لم تترك المقلَ المريضة .. » وفي رواية الديوان خطأ واضح .

٣٥ ـ (ص ١١٨/حا ٥) تملأ الحاشية الفارغة هنا بما يلي : الأبيات الستة في ديوان كشاجم ٢٩ ـ ٣٠ مع اختلاف في الترتيب ، وزيادة بيت . والرواية بعد الترتيب الأفقي للأبيات .

٤ ـ وحدائق مرائض صحاح

بدلا من : « وحدق مريضة .. » .

٥ ـ هن اللواتي افسدت صلاحي

بدلا من : « هن اللواتي أياست .. » .

٣٦ ـ (ص ١١٩/حا ١) البيتان في ديوان كشاجم (ط بيروت) ص ٦١ مع اثنين آخرين .

٣٧ ـ (ص ١١٩/حا ٣) يُضاف هنا: وبيتا أبي العشائر في لطائف اللطف ١٤٧ . والرواية فيه :

للعبدِ مسألة أريد جوابها   انْ كنتَ تذكره فهذا وقته

بدلا من : « للعبد مسألة لديك جوابها .. » وخرّج محقق لطائف اللطف الدكتور عمر الأسعد البيتين من الاعجاز والايجاز ٢١١ ، وخاص الخاص ١٤٤ .

٣٨ ـ (ص ١١٩/حا ٦) بيتا الثعالبي هنا في شعره في مجلة المورد ـ رقم (١٤٠) ومصدرهما أيضاً أحسن ما سمعت ١٠٩ .

٣٩ ـ (ص ١٣٠/حا ٢) تملأ الحاشية الفارغة هنا بما يلي : البيتان للثعالبي أيضاً في التوفيق للتلفيق ١٧٩ ، وخاص الخاص ٢٣٠ . ورواية الثاني في التوفيق للتلفيق:

فمسك ورد خدّيه السواقي   وعنبر مسك خدّيه الغبارُ

بدلا من « مسك صدغيه الغبار » . وهما في شعر الثعالبي في مجلة المورد رقم (٧٠) وفي أحسن ما سمعت ١٣٠ .

٤٠ ـ (ص ١٣٢/حا ١) يضاف هنا ان بيتي كشاجم في ديوانه (ط بيروت) ص١٢٥ من أربعة أخر والرواية فيه :

١ ـ مَنْ عذيري مِنْ عذاري رشا   عرض القلب لأسباب التلف

بدلا من : « من عذاري قمر ... »

٢ ـ « علم الشعر الذي جاء له ... » بدلا من « ... الذي عارضه » .

٤١ ـ (ص ٣٨/حا ١) يضاف الى هذه الحاشية الآتي : البيتان في لطائف اللطف ١٤٦ ـ ١٤٧ معزوّان لأبي الفتح نديم سيف الدولة . وقد خرّجهما الدكتور عمر الأسعد محقق الكتاب من خاص الخاص ١٤٥ ، والاعجاز والايجاز ٢١٢ .

٤٢ ـ (ص ١٤٠/حا ٥) بيتا ابن المعتز اللذان لم يجدهما المحقق في ديوانه هما في شعره (صنعة الصولي) ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ مع أربعة أخر . ورواية الثاني في شعر ابن المعتز :

٢ ـ نعم قرى السمع على شربها   نفخ المزامير وعزف القيانْ

بدلا من .. « .. صوت المزامير » .

٤٣ ـ (ص ١٤١/حا ٤) بيتا الثعالبي الرائيان في خاص الخاص ٢٣٢ . والرواية:

٢ ـ كأنّ عين الشمس قد أفرغت   في قالب صيغ من البدر

بدلا من : « .. صيغ من الدرّ » . والبيتان في شعر الثعالبي في مجلة المورد السالفة الذكر رقم (٨٣) ، وأشار صانع شعر الثعالبي الى أنهما في المبهج ٤٤ .

٤٤ ـ (ص ١٤٣/حا ١) يضـاف الىهذه الحاشية أن الأبيـات الثلاثـة في لطـائف اللطف ١٣٣ ٠

ومن الملاحظ أن في البيت الثـالث خللاعروضيا ، فقد رُسم على هذا النحو :

من شراب الذ من نظر المعشوق في وجـــه عاشـق بابتســـام

وهو من البحر الخفيف ، وصواب رسمه:

من شـراب ألذ مـن نظـر المعـ ـشوق في وجـه عاشـق بابتسام

٤٥ ـ (١٤٥ ـ ١٤٦/حا ٧) يضـافالي هذه الحاشية أن أبيات ابن المعتز الثلاثة في التوفيق للتلفيـق ٣٨ ، والروايـة في البيتالثاني :

فكـأنْ حمـرة لونهـا في خـده وكـان طيب نسيمها من بشـره

بدلا من : « ٠٠ من نشره » ٠ والروايـةالأخيرة هي الأجود والأعلى ٠

٤٦ ـ (ص ١٤٧/حا ٢) تعدل هـذهالحاشية لتصبح هكذا : الأبيات الثلاثة في شعر ابن المعتز (صنعة الصولي) ص ٩٨ ـ ٩٩ ٠والروايـة فيـه :

١ ـ خليلي قد طاب الشـراب المبرّدُ وقد عدت بعـد النسك والعود أحمد

بدلا من : « الشراب المورّدُ ٠٠ »

٢ ـ « فهاتِ عقاراً ٠٠ » بدلا من : «فهاتا عقاراً ٠٠ » ٠

٣ ـ « ٠٠ وذلك معروف لها ليس يجحد» ٠ بدلا من : « ٠٠ وذلك من احسانهـا ليس يجحد » ٠ والبيتان الأولان من الأبيات الثلاثةفي التوفيق للتلفيق ١٦٠ ٠

٤٧ ـ (ص ١٥٢/حا ١) تُصحّح هنارواية البيتالثاني من أبيات أبي تمام الثلاثة، وهـي :

عصابـة جـاورت آدابهـم اذنـي فهم وانْ فرقوا في الارض جيراني

لتصبح على هذا النحو :

« عصابـة جـاوزت آدابهـم أدبي فهـم ٠٠ »

بالزاي في (جاوزت) لا الراء ٠ وبالدالوالباء في (أدبي) لا بالذال والنون في (أذني)، وهذه هي رواية مخطوطة الظاهريةـ كما سبقأن أشرنا من قبل ٠

٤٨ ـ (ص ١٥٥/حا ١) يضاف هنا :البيتان في لطائف اللطف ١٤٢ ٠ وروايةالثاني

٢ ـ لولا تمتع مقلتي بقدومه لو هبتهـا لمبشـري باياب

بدلا من : « مقلتي بجماله ٠٠ » ٠

وذكر الدكتور عمر الأسعد محقق لطائف اللطف أن البيتين أيضا في الاعجاز والايجاز ٢٥٣ ومعهما ثالث . وفي الوافي بالوفيات ١ : ٤٥٥ .

٤٩ ـ (ص ١٥٧/العنوان) وقــع في هذا العنوان غلط يبدو أنه طباعي ؛ فقد كُتب هكذا : « فصل في العتاب والاستزادة » بالدال . والصواب « والاستزارة » بالراء ، لا بالدال، وهو كذلك في مخطوطة الكتاب بالظاهرية .

٥٠ ـ (ص ١٥٧/حا ٣) يضاف هنا : وبيت ابن الرومي في التمثيل والمحاضرة ١٠٠ .

٥١ ـ (ص ١٥٨/حا ١) يضاف هنا : أبيات كشاجم الثلاثة في ديوانه مع ثلاثة أخر ص ١١٨ . ورواية الثاني منها :

٢ ـ اذا ما الوشاةُ سعوا نحوه أصــاخ اليهــم بــاذن سميعــه

بدلا من : « سعوا بي اليه .. » .

٥٢ ـ (ص ١٥٨/حا ٤) تملأ الحاشية الفارغة هكذا : بيتا الثعالبي في شعره في مجلة المورد السالفة الذكــر ، ومصدرهمــا هنــاك اليتيمة ١ : ١٨ ـ ١٩ .

٥٣ ـ (ص ١٦٦/حا ١) يضاف هنا : بيتا أبي الفــرج الوأواء الدمشقي في لطائف اللطف ١٤٨ ، ورواية الثاني .

٢ ـ أنتَ اذا جدت ضاحكا ابــدا وذاك اذ جــاد باكــي العــين

بدلا من : « ضاحك أبداً .. دامع العين » .

٥٤ ـ (ص ١٦٧/حا ١) تملأ الحاشية الخالية هنا بالآتي : بيتــا كشاجــم في ديوانــه (ط بيروت) ٤٦ ضمن قصيدة تقع في عشرين بيتاً . ورواية الثاني فيه :

ان جمد الطبع حــلَّ منه فــان ذاب انحــلالاً أعــاده جــامــد

بدلا من : « لو جمد الطبع حلَّ منه ولو .. » . ورواية « من غاب » هي الصواب . وفي الديوان تصحيف .

٥٥ ـ (ص ١٦٨/حا ١) أشار المحقق الى أن بيتَي الثعالبي الكافيين في ثمار القلوب، ولم يذكر الصفحة ! وهما حقاً في الثمار (طبعة أبي الفضل ابراهيم) ص ٦٧٨ ـ ٦٧٩ ، وقد عزاهما الثعالبي نفسه الى بعض العصريين . ورواية الأول فيه :

صديق لنا عالم بالنجــوم يحــدّثنــا بلســان الفلك

بدلا من : « .. عن لسان الفلك » .

والبيتان في أحسن ما سمعت ١٦١ ـ ١٦٢ ، وفي خاص الخاص ٢٤٢ . والرواية فيه :

١ ـ « بلسانِ الملك » بدلا من : « عن لسان » .

٢ ـ « ولكن نَموم بسر الفلك » بدلا من : « ينمّ بسر الفلك » .

★ ★ ★

وبعد ، فهذه مجموعة من الاضافات والاستدراكات على كتاب (مَنْ غاب عنه المطرب) للثعالبي تجمعت لدي من خلال وقفة غير طويلة عند هذا الأثر التراثي · واني لعلى يقين أن وقفة أطول تتيح لي ، أو لغيري ، اضافات واستدراكات أخرى . ولكنّ غرضي ليس اعادة تحقيق الكتاب ، بل الاستجابة لنداء المحقق ·

ومن المسلَّم به القول : ان العمل بالتراث عمل شاق ومضن · وهو مظنّة للأوهام والزلات والأغلاط · وكثيرون ، ولعلي أولهم، واقعون في أولئك ·· ! ومن هنا كان بعض كبار الباحثين في تراثنا يعلنون عن رغبة قوية وصادقة في التصحيح والتنقيح والمراجعة ، الأمر الذي ينم على احترام جزيل لروح العلم ، واذعان لطيف للحقيقة العلمية وحدها ، وليس لغيرها ·· ويحضرني في هذا المقام ما كتبه الأستاذ المحقق محمود شاكر في مقدمة طبعته الثانية لكتاب (طبقات فحول الشعراء) ١٩٧٤ ، اذ قال مُتراجعاً عن طبعته الأولى للكتاب نفسه والتي كانت سنة ١٩٥٢ ، وبعد أن حصل على مصورة مخطوطة جديدة ، قال : « فلما جاءت مصورة المخطوطة وقابلتها بما طبعته في سنة ١٩٥٢ تبين لي أن نفسي غرّتني غروراً كبيراً، واني وقعت عند نسخها في أخطاء قبيحة لغرارتي يومئذ وجهلي · نعم قد صححتُ بعض هذه الأخطاء التي وقعت في نسخي القديم ، بما بذلته في مراجعة الكتاب على دواوين الشعر والأدب ، ولكن قادتني بعض هذه الأخطاء الى دروب موحشة ، تمثّرت فيها تمثّراً لا يُغتفر · ومن أجل هذا ، فانا لا أحلّ لأحد من أهل العلم ، أن يعتمد بعد اليوم على هذه الطبعة الأولى من (طبقات فحول الشعراء) مخافة أن يقع بي في زلل لا أرضاه له · وأضرع الى كل من نقل عن هذه الطبعة شيئاً في كتاب ، سواء كان قد نسبه الي أو لم ينسبه ، أن يراجعه على هذه الطبعة الجديدة من الطبعات لينفي عن نفسه وعن عمله العيب الذي احتملتُ أنا وحدي وزره » ـ (مقدمة الطبعة الثانية لعام ١٩٧٤ ـ ص ٧٠).

واختم بحثي هذا بما سبق أن قاله العماد الأصفهاني منذ مئات السنين وهو : «اني رأيت أنه لا يكتب انسان كتاباً في يومه الا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسَن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » ·

* * *